سيرة ذاتية: الجزء الثاني

واحات الغربة

محمد عناني

واحات الغربة

سيرة ذاتية: الجزء الثاني

تأليف
محمد عناني

هنـــداوي

واحات الغربة

محمد عناني

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ٩ ٣١١٢ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر هذا الكتاب عام ٢٠٠٠.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٣.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي.
جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي محفوظة للسيد الدكتور محمد عناني.

المحتويات

تقديم	٧
تصدير	٩
١- لندن	١١
٢- الشتاء الأول	٣٥
٣- الخريف الجميل	٦٣
٤- النكسة	٨٩
٥- النهر والروافد	١١٣
٦- سارة	١٤٣
٧- تحوُّلات	١٦٥
٨- العودة	١٩٣
ملحق صور	٢١٣

تقديم

على نحوِ ما أذكُر في كتابي «فن الترجمة» — وما فَتِئتُ أُردِّد ذلك في كُتُبي التالية عن الترجمة — يُعد المُترجِم مُؤلِّفًا من الناحية اللغوية، ومن ثَم من الناحية الفكرية. فالترجمة في جوهرها إعادةُ صَوغٍ لفكرِ مُؤلِّفٍ معين بألفاظِ لغةٍ أخرى، وهو ما يعني أن المترجم يَستوعب هذا الفكرَ حتى يُصبح جزءًا من جهاز تفكيره، وذلك في صورٍ تتفاوت من مُترجِمٍ إلى آخر، فإذا أعاد صياغة هذا الفكر بلُغةٍ أخرى، وجدنا أنه يَتوسَّل بما سمَّيتُه جهازَ تفكيره، فيصبح مرتبطًا بهذا الجهاز. وليس الجهاز لغويًّا فقط، بل هو فكريٌّ ولغوي، فما اللغة إلا التجسيد للفكر، وهو تجسيدٌ محكوم بمفهوم المُترجِم للنص المَصدَر، ومن الطبيعي أن يتفاوت المفهوم وفقًا لخبرة المُترجِم فكريًّا ولغويًّا. وهكذا فحين يبدأ المُترجِم كتابةَ نصه المُترجَم، فإنه يصبح ثمرةً لما كتبه المؤلِّف الأصلي إلى جانبِ مفهوم المُترجِم الذي يَكتسي لغتَه الخاصة، ومن ثَم يَتلوَّن إلى حدٍّ ما بفكره الخاص، بحيث يصبح النص الجديد مزيجًا من النصِّ المَصدَر والكساءِ الفكري واللغوي للمُترجِم، بمعنى أن النص المُترجَم يُفصِح عن عملِ كاتبَين؛ الكاتب الأول (أي صاحب النص المَصدَر)، والكاتب الثاني (أي المُترجِم).

وإذا كان المُترجِم يكتسب أبعادَ المُؤلِّف بوضوحٍ في ترجمة النصوص الأدبية، فهو يكتسب بعضَ تلك الأبعاد حين يترجم النصوصَ العلمية، مهما اجتهد في ابتعاده عن فكره الخاص ولغته الخاصة. وتتفاوت تلك الأبعاد بتفاوُت حظ المُترجِم من لغة العصر وفكره، فلكل عصرٍ لغتُه الشائعة، ولكل مجالٍ علمي لغتُه الخاصة؛ ولذلك تتفاوت أيضًا أساليبُ المُترجِم ما بين عصرٍ وعصر، مثلما تتفاوت بين ترجمة النصوص الأدبية والعلمية.

وليس أدل على ذلك من مقارنةِ أسلوب الكاتب حين يُؤلِّف نصًّا أصليًّا، بأسلوبه حين يُترجِم نصًّا لمُؤلِّف أجنبي، فالأسلوبان يتلاقيان على الورق مثلما يتلاقيان في الفكر.

فلكل مُؤلِّف، سواءٌ كان مُترجِمًا أو أديبًا، طرائقُ أسلوبيةٌ يعرفها القارئ حَدْسًا، ويعرفها الدارس بالفحص والتمحيص؛ ولذلك تَقترن بعض النصوص الأدبية بأسماء مُترجِميها مثلما تقترن بأسماء الأدباء الذين كتبوها، ولقد تَوسَّعتُ في عرض هذا القول في كتبي عن الترجمة والمُقدِّمات التي كتبتها لترجماتي الأدبية. وهكذا فقد يجد الكاتب أنه يقول قولًا مُستمَدًّا من ترجمةٍ معينة، وهو يَتصوَّر أنه قولٌ أصيل ابتدعه كاتبُ النص المَصدَر. فإذا شاع هذا القول في النصوص المكتوبة أصبح ينتمي إلى اللغة الهدف (أيْ لغة الترجمة) مثلما ينتمي إلى لغة الكاتب التي يُبدِعها ويراها قائمةً في جهاز تفكيره. وكثيرًا ما تَتسرَّب بعض هذه الأقوال إلى اللغة الدارجة فتحلُّ محلَّ تعابيرَ فصحى قديمة، مثل تعبير «على جثتي» (over my dead body) الذي دخل إلى العامية المصرية، بحيث حلَّ حلولًا كاملًا محلَّ التعبير الكلاسيكي «الموت دونه» (الوارد في شِعر أبي فراس الحمداني)؛ وذلك لأن السامع يجد فيه معنًى مختلفًا لا ينقله التعبير الكلاسيكي الأصلي، وقد يُعدِّل هذا التعبير بقوله «ولو متُّ دونه»، لكنه يجد أن العبارة الأجنبية أفصح وأصلح! وقد ينقل المُترجِم تعبيرًا أجنبيًّا ويُشِيعه، وبعد زمنٍ يتغير معناه، مثل «لَمن تدقُّ الأجراس» for whom the bell tolls؛ فالأصل معناه أن الهلاك قريبٌ من سامعه (It tolls for thee)، حسبما ورد في شِعر الشاعر «جون دَنْ»، ولكننا نجد التعبيرَ الآن في الصحف بمعنى «آنَ أوانُ الجد» (المستعار من خُطبة الحجَّاج حين وَلِي العراق):

آنَ أوانُ الجدِّ فَاشْتَدِّي زِيَمْ قد لَفَّها الليلُ بسوَّاق حُطَمْ
ليسَ براعي إِبلٍ ولا غَنَمْ ولا بجزَّارٍ على ظهر وَضَمْ

فانظر كيف أدَّت ترجمةُ الصورة الشعرية إلى تعبيرٍ عربي يختلف معناه، ويَحلُّ محلَّ التعبير القديم (زِيَم اسم الفرس، وحُطَم أي شديد البأس، ووَضَم هي «القُرْمة» الخشبية التي يَقطع الجزَّار عليها اللَّحم)، وأعتقد أن من يُقارِن ترجماتي بما كتبتُه من شِعر أو مسرح أو رواية سوف يكتشف أن العلاقة بين الترجمة والتأليف أوضح من أن تحتاج إلى الإسهاب.

محمد عناني
القاهرة، ٢٠٢١م

تصدير

هذا هو الجزء الثاني من سيرتي الذاتية «واحات العمر»، وعنوانه «واحات الغربة» يُعفيني من الحديث عنه؛ فهو يتناول أحداثَ السنوات العشر التي قضيتُها مغتربًا أطلب العلم في إنجلترا، ١٩٦٥م إلى ١٩٧٥م، والواحاتُ التي أعنيها هنا هي لحظاتُ الوعي التي ما تزال حيَّةً نابضة في النفس، وهي اللحظات التي تؤكِّد لنا حياة الروح، كياننا الذي يكتنفُه الغموض أبدًا، منابعُه مجهولة، ومساراتُه متعدِّدةٌ ملتوية متشابكة، ومصبُّه بحرٌ شاسع بلا شطآن، لكنه كالزمن إحساسٌ بالوجود وإطلالٌ على ما وراء الزمن — على الخلود.

ولقد شاركَني الكثيرون حياة الغربة في تلك الواحات فنفَوا عنها الغربة؛ منهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر، ومنهم من شاركَني مشاعري الدقيقة وكابدها لحظةً بلحظة، ومنهم من لا يزال يذكُر تفاصيلَها — بل من يذكُرها خيرًا مني — وأنا أذكُر أسماءهم الحقيقية، وأرجو أن يغفروا لي إغفالي بعضَ التفاصيل التي أفلتَت رغم أنفي من الذاكرة، أو التي تُنكِرها الذاكرة — على حدِّ تعبير وردزورث (disowned by memory) — فذاكرتي تستعين بالأوراق التي سجَّلتُ فيها تلك الأحداث، وهي أوراقٌ واهية قد تسجِّل الواقعة ولا تسجِّل الدلالة، ونحن نغوص في أعماقنا استرجاعًا لها وهي عصيَّةٌ متأبِّية، وقد يرى بعضهم أنني أغفلتُ ما هو مهمٌّ وسجَّلتُ ما هو غيرُ جديرٍ بالتسجيل، ولكن الغوص في أعماق النفس لا يأتي دائمًا باللآلئ، بل قد يكون الغوصُ هو الغاية، لا ما يعود به الغوَّاص.

إلى هؤلاء جميعًا أُهدي هذه الصفحات، وإذا كنتُ أهديتُ الجزء الأول من واحات العمر إلى زوجتي نهاد صليحة، التي صاحبَتْني وتحمَّلَتني في معظم أشواط الرحلة، فأنا أُهدي هذه الصفحاتِ أيضًا إليها وإلى ابنتي سارة التي رأت النور أوَّلَ ما رأته في الغربة، وإلى أبناء جيلها الذين لا يعرفون ما كابده الآباء في تلك الرحلة الشاقة. ولقد حاولتُ أن

أتحرَّى الدقة قَدْر طاقتي في رصد التواريخ والأحداث، ولكن الكمال لله وحده، ونحن بشرٌ نصيب ونخطئ. ولا شك أنني سوف أُرحِّب بأي تصويبٍ قد يَلفِت الأصدقاءُ نظري إليه، مثلما رحَّبتُ بتصويب بعض الأخطاء التي وقعَت سهوًا في الجزء الأول من واحات العمر.

وأرجو من القارئ أن يغفرَ لي إدراجَ بعض الألفاظ الأجنبية في الكتاب؛ إذ إن جُلَّ مذكِّراتي مكتوبة بتلك اللغة، وكنتُ أخشى أن أُغيِّر كثيرًا من مذاقِ ما سمعتُه وسجَّلتُه إن أنا ترجمتُ كل شيءٍ إلى لغتنا الجميلة. لقد تحرَّيتُ الدقة كما قلتُ وكانت الدقة تقتضي إدراج بعض العبارات بحروفها، راجيًا من القارئ أن يقبل عذري واعتذاري.

ولا بد لي أخيرًا أن أشكر الأصدقاء الذين شجَّعوني على هذا الغَوص المُضني في أعماق النفس، وقرءوا النص بعناية، وأبدَوا ملاحظاتهم القيِّمة؛ فهو سِجلٌّ لأيامٍ أرجو ألا تسقُط من ذاكرتهم، وأن ينتفعَ به من لم يشهَدها ولم يكن يدري بها.

والله من وراء القصد.

محمد عناني

القاهرة ١٩٩٩م

الفصل الأول

لندن

١

عندما حلَّقَت بي الطائرة المصرية أوَّلَ مرة فوق مدينة لندن، أفقتُ من الغَفْوة التي غلَبَتْني بعد سَهَر الليلة السابقة، وفتحتُ عيني لأرى من النافذة الضيقة سحاباتٍ قليلة، خفيفةً وشفَّافة ومتباعدة، يسطعُ عليها ضوء الشمس، ويلُوحُ فيما بينها على الأرض ما يُشبِه البستان الكثيف، تقوم في أرجائه بيوتٌ منخفضةٌ متناثرة ضئيلة الحِرْم، يضرب لونُها إلى الحُمرة، فتصوَّرتُ أننا ما زلنا في الريف بعيدًا عن قلب المدينة؛ إذ كنتُ أتوقَّع ناطحاتِ سَحاب أو قل بعض المباني السامقة التي أصبحَت علَمًا على الحواضر الغربية، ولكن الطائرة حوَّمَت مرتَين في دائرتَين متَّسعتَين، وكانت تزداد اقترابًا كلَّ مرة من الأرض، دون أن تظهَر المباني السامقة، ثم اخترقَت السحاب وبدأَت الهبوط، فازدادت ملامحُ البستان وضوحًا، فأيقنتُ أننا سنهبط في الريف المحيط بلندن.

كانت الساعة تقترب من الواحدة ظهرًا، وكان اليوم يوم الأربعاء ١٢ مايو ١٩٦٥م والمطار حافلٌ بالناس، وعلى الجدران لافتاتٌ تحمل سهامًا توجِّه القادمين إلى الأماكن الخاصة بكل فئة، ووجدتُ السهام التي أتَّبِعُها تحدِّد الفئة التي أنتمي إليها (مع بعض ركاب الطائرة) وهي فئة الأجانب (ALIENS) تمييزًا لهم عن أبناء البلد، وانتهَى مَسَاري إلى شُباك فحص جوازات السفَر، فدفعتُ إلى الموظَّف الجالس فيه بجواز سفري ووقفتُ أنتظر.

كان الجواز يقول إن من حقي السفر إلى ليبيا فقط، وكنتُ أخشى أن يسألَني الموظَّف عن دلالة ذلك، وخفت أن أتلعثَم في قص القصة؛ إذ كان من حق طالبِ البعثة استخراجُ جواز سفر، وكانت لوائح مصلحة الجوازات والجنسية آنذاك تقضي بعدمِ استخراجِ جواز

سفر إلا إذا نُصَّ فيه على البلدِ المسموحِ بالسفر إليها، ولم تكن الموافقة على سفري إلى لندن قد صدَرَت من مكتب الأمن، فوضع المسئولون ليبيا باعتبارها الدولةَ المأمونةَ الوحيدة آنذاك، وعندما أنهيتُ إجراءات الأمن الخاصة بالسفر إلى بريطانيا كتب الموظَّف في الجواز الذي ما زلتُ أحتفظ به «أُضيفت إنجلترا بمعرفة المصلحة».

كيف أشرح للموظَّف ذلك كله بالإنجليزية؟ وهل تُراه يُدرِك أن مسألة الأمن لا تعني أنني قد أكون خطرًا على الأمن؟ وهل تُراه يفهم العبارة الخاصة «بإضافة» إنجلترا مع أنها البلد الذي تقدَّمتُ بطلَب السفر إليه دون غيره؟ ولكن خوفي لم يطُل؛ إذ كان الموظَّف شابًّا باسِمَ المُحيَّا، انتهى من تسجيل بيانات الجواز بقلمٍ في يده، قبل شيوع استخدام آلات التصوير وبعدها الكمبيوتر، ثم سألَني عن مقصدي فقلت له «الدراسة»، ولم تبدُ الدهشة على وجهه بل بدا مطمئنًّا واثقًا من صدقِ ما أقول، وعندما طَرَحَ المزيد من الأسئلة عن الشاعر الإنجليزي الذي تخصَّصتُ فيه (وهو وليم وردزورث) William Wordsworth أجبتُه إجاباتٍ يبدو أنها أسعدَته؛ إذ قال إنه درس بعض أشعاره في المدرسة، وعندما بدأ يُلقي بعضَ أبياتٍ من قصيدة له، أكملتُها له فضحك، وتمنَّى لي حظًّا سعيدًا وسلَّمَني الجواز، وطلَب مني أن أتجه بعد أن يستقر بي المقام إلى أقرب مَخفرِ شرطة لتسجيل نفسي (اسمي وعنواني) واستخراج بطاقةِ إقامة، وانصرَفْت.

وعندما وصلتُ إلى منطقة الحقائب وجدتُ حقيبتي المنتفخة، فحملتها حملًا فلم تكن لها عجلات، ولم يكن بالمطار حمالون أو عرباتٌ لنقل الحقائب، وعندما وصلتُ إلى موظَّف الجمارك طلب مني أن أفتحها ففتحتُها، ثم قال كلامًا لم أفهم منه إلا أنه يطلُب مني إغلاقها، وبعد أن أغلقتُها أشار لي إلى باب الخروج، فسرتُ مُثقَلًا بطيء الخطو حتى كدتُ أن أتعثَّر فتوقَّفْت. وقبل أن أخرج، ناداني أحدهم فالتفتُّ إليه، فطلب مني الاقتراب تاركًا حقيبتي في مكانها بجوار الباب.

واصطحبني هذا الموظف إلى رجل الجمارك الأول، وكان يواجه فيما يبدو مشكلةً من نوعٍ ما، ولم يستطع أن يشرح لي المشكلة. ولمحتُ إلى جواره راكبًا مصريًّا يتحدَّث بلهجة أهل الصعيد، وقد بدا الارتباكُ على وجهه، ولاحت حبَّات العَرق على جبينه، وانعقَد لسانه بعد فترة فلم يعُد يتكلم لا بالإنجليزية ولا بالعربية! وسألتُ المصري سؤالنا التقليدي «خير؟» فأشار إلى الحقيبة التي أتى بها، ونطق بعباراتٍ مقتضَبة لم تُفصِح عن الكثير، فسألتُ موظَّف الجمرك إن كانت المشكلة خاصةً بما يحمله، ففتَح الحقيبة وإذا بغطائها قد انتظمَت فيه خيوطٌ مثبَّتة في الجانبَين، وبها أعدادٌ كبيرة من حبَّات البامية الناشفة

(المجفَّفة) فبدت كأنها خيوطُ مِسبَحةٍ أو عدة مسابحَ طويلة، وحدَسْتُ أن والدته أو زوجته هي التي أعدَّتها له طعامًا في الغربة، وكانت الصفوف المنتظمة المعلَّقة في غطاء الحقيبة الداخلي تشبه الرصاصات الصغيرة التي يضعها الجنود حول أسلحتهم أو على صدورهم فيما مضى من الزمان. كان المصري حائرًا لا يدري كيف يُقنِع الموظف أن هذه «الطلقات» هي طعامٌ مصريٌّ محبَّب، والموظَّف يُلِح في سؤالي عن سبب إحضارِ هذه الأشياء إلى لندن، خصوصًا؛ لأن الزائر ليس طالبًا، بل كان في الواقع من أقرباء ضابطٍ في الجيش يُعالَج من إصابةٍ أُصيب بها في حرب اليمن، وكان قد أتى له بهذا الطعام المصري لكي يطبُخَه له في المستشفى، ونصحتُ الزائر ألا يذكُر قريبه الضابط، وأن يتخلى عن البامية إذا أَصرَّ موظَّف الجمرك على ذلك، ولم يطُل انتظارنا إذ حضر اثنان من زملاء الموظَّف، وقالا إن رئيسهما يُصِر على عرض الأشياء الغريبة على الخبراء، ويُصِر على رفض السماح للمصري بالدخول إلى بريطانيا، ولما تحمَّستُ في تبيان «مناقب» البامية، قال أحدهما لي: وما يدرينا أنها ليست مخدِّرات؟ واستبعدتُ ذلك القول بحزم وقوة، وإزاء نبراتي الواثقة، قال أحدهما: سنسمح له بالدخول بضمانكَ أنت، ووافقْت، ووقَّعت في ورقةٍ صغيرة، ثم طلب الموظَّف من المصري أن يفُك خيوط البامية، ففعل ذلك والحزنُ يعتصره، وقدَّم له أحد الموظفين كيسًا شفَّافًا (نايلون) وضع البامية فيه، و«حرَّزَها»، وألصَق عليها بطاقةً تحمل اسمَ المسافر ورقمَ جواز سفره، وسمَح له بالذهاب.

وعندما خرجتُ من المطار كان عليَّ أن أجد مكانًا أقضي فيه الليل قبل أن أذهب إلى الجامعة في الصباح، وأن أذهَب أيضًا إلى مكتب البعثات، وكنتُ أحفظُ عنوانه وأُكرِّره حتى لا أنساه. وكان عليَّ أن أذهَب إلى المدينة أولًا وأن أسألَ مثل بطلِ قصيدةِ حجازي «يا عم من أين الطريق؟» ولم تطُل حيرتي إذ تقدَّمَت مني فتاةٌ هندية وقالت بلهجةٍ إنجليزية كُتِبَ عليَّ أن أعيش معها سنواتٍ طويلةً فيما بعدُ: هل تُريد الذهاب إلى لندن؟ فأومأتُ بالإيجاب فقالت إذن هيَّا — سوف نشترك في سيارة أُجرة خاصة — وفي لمح البرق كان السائق قد وضع حقيبتي في السيارة، وأجلسَني إلى جواره، والهندية وأصحابها في المقعد الخلفي، وانطلَقنا نحو لندن، وفي الطريق سألَني السائق بلهجة أولاد البلد في لندن (Cockney) عن المبلغ الذي سأدفعُه له وأدركتُ مرماه على الرغم من أنني لم أفهم كل كلمةٍ قالها، فقلتُ له بلهجةٍ عرفتُ فيما بعد أنها لهجة المثقَّفين والأجانب «خمسة شلنات» فقال fair enough وأردفَها بكلامٍ كثير لم أفهم معظَمه، ولكنَّني تساءلتُ في نفسي عن معنى العبارة، وعما إذا كانت تنمُّ عن الرضا حقًّا، وظللتُ طول الرحلة أتأمَّل

الطريق الذي تقومُ الأشجار على جانبَيه، والسيارات وهي مارقةٌ بسرعةٍ فائقة، وشمس مايو الجميلة وهي تسطَع على الخُضرة من حولي.

ووصلنا إلى محطة فكتوريا، ودفعتُ إلى الرجل ما طلَبه، ثم اتجهتُ إلى سيارة أُجرة رسمية، من التي ما تزال تعمل في لندن، وطلبتُ من السائق أن يتجه بي إلى أحد بيوت الشباب، وكان معي عنوانُه، وانطلَقنا على الفور، وعندما وصلتُ رأيتُ أن العدَّاد يقول أربعة شلنات، ففعلتُ ما أوصاني به الأصدقاء بأن أضفتُ إليها بقشيشًا قدْره نصفُ شلن (ستة بنسات)، وتناول الرجل النقود دون تعليقٍ سوى كلمةٍ مقتضَبة هي "Ta, guv" اكتشفتُ فيما بعدُ أنها تعني «شكرًا يا أستاذ» وأنها تتكوَّن من كلمتَين لا كلمةٍ واحدة هما العامية الدارجة لتعبير "Thanks, Governor!"، وفي بيت الشباب اكتشفتُ أن أجر المبيت (مع الإفطار) هو ١٥ شلنًا، وكان معنى هذا أنني إذا لم أُسرِع إلى مكتب البعثات للحصول على المال فسوف أُفلسُ بعد قليل؛ إذ كان كل ما سُمِحَ لي بحمله من النقود عندما خرجتُ من مصر هو خمسة جنيهاتٍ استرلينية أنفقتُ منها أكثر من جنيه في يومٍ واحد. وبعد أن وضعتُ حقيبتي في الغرفة خرجتُ للسير في الطريق الواسع الممتد، والربيع يكسو المنطقة بالزهور والخضرة الزاهية والدفء الجميل.

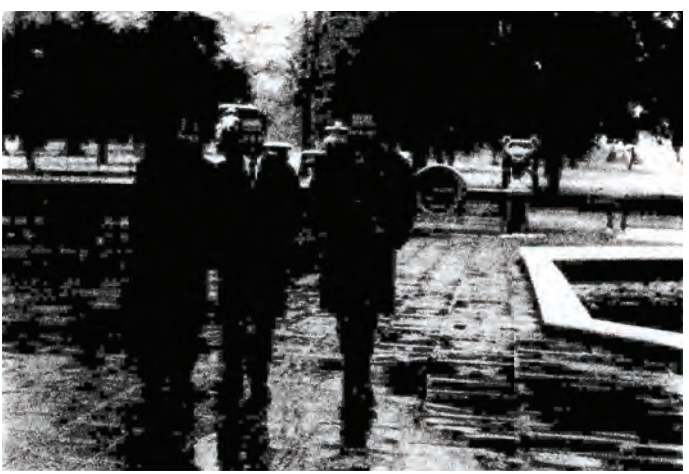

محمد عناني وعيسى موسى (من ليبيا) والدكتور/نعيم إليافي (من سوريا) يمسك المِظلَّة.

كانت تجربةُ إفطار الصباح فريدةً لم أعهد لها مثيلًا في حياتي. كان بيت الشباب يعجُّ بالأجانب، معظمهم أوروبيون، وكان الإفطار يتكوَّن أساسًا من السمك، سمك الرنجة غير المدخَّنة، وهناك البيض لمن يريد، واللبن، و«كورن فيلكس» الذي أصبح معروفًا في مصر، والشاي! وكان الجميع يلتهمون الطعام بشهيةٍ كبيرة، ولاحظتُ عدم وجود مكانٍ لغسل الأيادي والفم، فعُدتُ إلى الغرفة لأداء ما اعتدتُ عليه، ثم انطلقتُ إلى مكتب البعثات. وهناك قابلتُ مستر فيولنج Fuling، وهو فيما يُقالُ أجنبي (أي غير بريطاني) يُحب المصريين وقضى معظَم سِني حياته عاملًا بالمكتب، فاستقبلَني بالترحاب، وانتهَينا من بعض الأوراق الرسمية، ثم أخذَني إلى مدير المكتب؛ حيث تناولتُ شيكًا بعشرة جنيهات، باعتباره جزءًا من مُرتَّبي الذي يبلغ ٤٥ جنيهًا في الشهر، إلى جانب ثلاثة جنيهات «علاوة لندن». وبعد أن وضعتُ النقود في جيبي (إذ كان فرع البنك مجاورًا للمكتب) اتجهتُ إلى كلية بدفورد Bedford College التابعة لجامعة لندن؛ حيث قابلتُ رئيسة القسم الأستاذة تيلتسون Tillotson، وسألَتني عن سبب تأخُّري في المجيء، وقابلتُ بعض الأساتذة الآخرين، ومنهم مستر كيرجنفن Curgenven، الذي حدَّده القسم للإشراف على دراستي. وقال لي المشرف ضاحكًا: «لقد أتيتَ بالجوِّ الصَّحو من مصر!» ثم ضرب لي موعدًا في يوم الإثنين التالي. وانصرَفْت.

البط فوق سطح البُحيرة المتجمدة في حديقة ريجنت.

خرجتُ من باب الكلية التي تقع في وسط حديقة ريجنت Regent’s Park لأجد ما لا يُمكِن أن أصفه إلا بالجنة! كانت الحديقة منبسطةً لا تبدو لها نهاية. وفي وسطها تجري قنواتُ المياه العذبة التي تسبَح فيها الطيور — البط بأنواعه التي كنتُ أعرفها جيدًا، والإوز العراقي (التَّم) الذي يشيرون إليه خطأً باسمِ البجع — وحولها على الأشجار طيورٌ أوروبية لا تأتي إلى مصر إلا في الخريف عندما تعبُر المتوسط لقضاء الشتاء في السودان، وبدأتُ أتعرَّف على بعضها من صوتها، ودهِشتُ لأنها كانت لا تفزع حين أقتربُ منها، بل تنظُر إليَّ في حَيرة أو تساؤل! وظللتُ أسير بين الأشجار حتى وجدتُ مكانًا خُصِّصَ للجلوس، وانتثَرَت فيه المقاعد الخشبية وبعض المناضد ومن حولها الكراسي، وكان على البُعد أطفالٌ يلعبون الكرة ويتواثبون فرحين صائحين في مكانٍ خُصِّص لهم، وكانت نسائم العصر منعشة تحمل أريج بعض الزهور التي انتظمَت في أحواضٍ خاصة، ورأيتُ رأي العين زهور النرجس الأصفر Daffodils التي كتَب عنها وردزورث قصيدتَه المشهورة، فبُهِرتُ وتسمَّرتُ في مكاني أنظُرها كأنما غبتُ عن الوعي!

وأفقتُ من دهشتي عندما سقطَت بجواري كرةٌ ألقى بها بعض الصبية، فالتقطتُها ونظرتُ حولي باحثًا عن صاحبها وإذا بفتاةٍ كأنها من حُور الجَنَّة تُقبِل نحوي في سعادةٍ باسمة ضاحكة، فألقيتُ إليها بالكرة، فضَحكَت وهي تلتقطُها ثم مضت. وتذكَّرتُ وصف جيمس جويس James Joyce للفتاة التي رآها على شاطئ البحر في رواية «صورة الفنان شابًّا» A Portrait of The Artist as a Young Man وعجبتُ كيف استطاعَ ذلك العبقري أن يُبدِع تلك الصورة في كلماتٍ قليلة، ولو حاولتُ أنا أن أُصوِّر هذه الفتاة ما استطعتُ ولو سوَّدتُ صفحاتٍ وصفحات! وذكَرتُ قصيدة «تيرنر» Turner بعنوان «ترنيمة إلى مجهولة» Hymn to her unknown التي كان رشاد رشدي قد نشَرها في أحد كُتبه، وبدأتُ أُحِس بصدقِ ما قاله وردزورث في قصيدة المقدِّمة The Prelude (التي كنتُ أدرُسُها حين ذاك في مصر) عن الخيال، وبصدقِ ما قاله عن عجز اللغة البشرية عن التعبير عما يجيشُ في النفس حقًّا، وهو عجزٌ يثير الأسى والحزن:

Sad incompetence of human speech

كان الخيال قد رسَم لذلك الشاعر صورةً مهيبة لقمم جبال الألب، ولما عَبَر الجبال لم يواجه المهابة بل واجه الخيال، وها أنا ذا أواجه واقعًا يتضاءل معه كلُّ خيالٍ لي، وتَعجِز إزاءه كل قوة من قُوى التصوُّر والوَهْم! وظللتُ في مكاني ثابتًا ألتهِم بعينيَّ صور الأشجار

والأزهار والطيور والأطفال، وفي المشهد كله تموجُ روح البسمة الرائعة في وجه تلك الفتاة — كانت كأنما تقول إنني الحياةُ نفسها، وإنني روحُ الوجود بل وإنني الخلود!

لا أدري كم مَرَّ عليَّ من الوقت وأنا أشهدُ تلك اللَّوحة، وكنتُ أعرف تمامًا أنني أشعر بما شعر به جويس عندما قال إن صورة الفتاة سكنَت روحه إلى الأبد.

Her image passed into his soul for ever

فلكَم تعدَّدَت الأماكن التي زرتُها، ولكم كثُر انتقالي وترحالي، ولكم شاهدتُ أزهارًا ورياحين! ولكن تلك اللَّوحة الحية ظلَّت تتملَّكُني وتُشرِق في أعماق نفسي كلما ضاقت بي الدنيا، وما فتِئتُ أعودُ إليها أتملَّى ألوانَ طيورها وحركةَ أزهارها على شط الماء، ونسمات الربيع المنعشة فيها، وبسمة الصبيَّة المجهولة التي ستظل صَبِيَّة إلى الأبد في نفسي.

٢

في اليوم التالي ذهبتُ إلى المقر الرئيسي لجامعة لندن بجوار «رَسِل سكوير» Russell Square أو ميدان رَسِل، المسمَّى باسم عائلة الفيلسوف الشهير برتراند رَسِل، وكان هدفي هو البحث عن سكنٍ دائمٍ عن طريق مكتب خدمات الطلبة، قابلتُ الموظفة فأعطَتني بعضَ العناوين وبعضَ النصائح، ثم خرجتُ إلى نادي الجامعة الذي يُسمِّونه اختصارًا «يولو»؛ أي اتحاد «طلبة» جامعة لندن، فقابلتُ بعض المصريين، وبعضُهم يشغل الآن مناصبَ مرموقةً في الحياة الأكاديمية والعامة، ثم أطلعتُهم على أحوالي، فاقترح بعضهم علَى سامي أبو طالب (الدكتور الآن) أن يستضيفني مؤقتًا، قائلين إن لديه الآن غرفةً خالية، بعد عودة زوجته وابنه إلى مصر، وأنَّ بإمكانه أن يؤجِّر لي الغرفة. ووافق سامي على الفَور، وكان أجر الغرفة جنيهَين وربعَ جنيه في الأسبوع، وهو مبلغٌ معقول؛ لأن أجر الشقة الكاملة ستة جنيهات. وفي غضون ساعاتٍ كنتُ قد انتقلتُ من بيت الشباب إلى الشقة، وكانت تقع في شمال لندن في منطقة تُسمَّى «فنزبري بارك» Finsbury Park، وكان اسم الشارع هو «ولبرفورس رود» Wilberforce Road، وقد أُطلق عليه اسم هذا المُصلِح الاجتماعي، ابن القرن التاسع عشر؛ لأنه كان فيما يُقالُ أول من بنى به مسكنًا سمَح للزنوج بالإقامة فيه، والمعروف أن ولبرفورس هو صاحب الجهود التي أدَّت إلى تحرير العبيد. وبعد أن وضعتُ حقيبتي في الغرفة الصغيرة، ذهبتُ أنا وسامي لمقابلة صاحب المنزل وهو تركي

من قبرص له شاربٌ طويل مبروم، وعينان برَّاقتان، فاستقبلَنا بالترحاب، وقد وضع على الجدار صورة السلطان عبد الحميد، وقال لنا إنه لا يؤجِّر المسكن أو أيَّ بيتٍ من البيوت التي يملكُها إلا للمسلمين، وكان ذلك البيت مُقامًا على مساحةٍ صغيرة من الأرض ويتكوَّن من ثلاثة طوابق، وباعتباره مسكنًا لأسرة واحدة (في الأصل) مثل سائر البيوت التقليدية في إنجلترا، كان الطابق الأعلى يتكون من غرفتَين فقط، وبعد درَجٍ صغير يُوجَد مطبخٌ صغير، وبجواره مرحاض، ثم بعد درَجٍ آخر يُوجَد الطابق الثاني حيث غرفتان ومطبخ، أما الطابق الأرضي فبه غرفتان ومطبخ وحمَّام ويُطِل على حديقة المنزل الخلفية. وكان صاحب المنزل يقيم بالطابق الأرضي مع أسرته، ويؤجِّر الطابق الأوسط لأُسرةٍ باكستانية، وعلى نحوِ ما هو متَّبع في البيوت الإنجليزية يُوجَد مفتاحٌ واحد لباب البيت الخارجي، أما الغُرف فلا مفاتيح لها، ولا يُغلِقها أحد بالمفتاح، ولو كان مُستأجرًا. وكان الإحساس بالأمان هو القاعدة التي لا استثناء لها (في تلك الأيام) وكان الإنجليز يتفاخرون بأن أي إنسانٍ إذا أراد أن يدخل أيَّ بيتٍ يستطيع ذلك دون إثارة الشك، ولقد تعلَّمتُ فيما تعلَّمتُ آنذاك المثل الذي يعتبر البيت المثل الأعلى في الأمان وهو "as safe as houses".

كما تعلَّمتُ في تلك الأيام الأولى من إقامتي في إنجلترا مدى تقدير الإنجليزي للصدق والأمانة. وكان بعض الكُتَّاب يعزون ذلك إلى تقاليد الحركة الدينية البيوريتانية (التي ترجمها بعضهم بتعبير «التطهيرية» وإن كانت أقربَ في معناها إلى التزمُّت أو إلى الأصولية) ولكن خبرتي بالحياة البريطانية نقضَت هذا التفسير فيما بعدُ؛ إذ إنني أميل إلى اعتبار نزعة الصدق واحترام الصادق وأداء الأمانة من سمات المجتمع التجاري الذي يعتمد على الثقة؛ فالثقة لازمة لإبرام الصفقات بسرعة وتسيير حركة الأعمال التجارية. وأذكُر أنني كنتُ أدهَشُ في تلك الأيام الأولى؛ لأن أحدًا لم يكن يطالبني قَط بإبرازِ ما يثبت شخصيتي (كبطاقة الهُوية أو جواز السفر) عند صرف شيكٍ أو الدفع بشيك، بل إن الكلية لم تطالبني بأية أوراقٍ رسمية عند التسجيل للبحث العلمي! ويؤكِّد ذلك إطلاق الإنجليز — دون شعوب الأرض — على المحتال (النصَّاب) لفظ «خائن الثقة» "con man" — وهي اختصار confidence trickster — كما أذكُر أنني عندما انتقلتُ من مسكني إلى مسكنٍ آخر، ذهبتُ إلى بائع الصحف الذي كان يُرسِل لي الصحيفةَ اليوميةَ في الصباح لتسوية الحساب قبل الرحيل، وعندما شرحتُ له الموضوع قال: «لا بأس! اعتَبِر صُحفَ الأيام السابقة هدية! تكفيك متاعبُ الانتقال!» فكأنما كان يُكافِئني على الأمانة، مدركًا أنني كنتُ أستطيعُ الرحيل دون سداد الدَّين.

الدكتورة هدى حبيشة ومحمد السوري أمام حجر رشيد بالمتحف البريطاني عام ١٩٦٦م.

وفي تلك الأيام الأولى شهدتُ حادثةً ما تزال محفورةً بتفاصيلها الدقيقة في ذاكرتي، وكنا ما نزال في شهر مايو؛ إذ خرجتُ مع سامي أبو طالب للتريُّض في المنطقة في المساء، وكان الطريق شبه خالٍ من السابلة، وفي الهواء لذعةُ بردٍ خفيفة، وما كدنا نغادر الشارع الذي نقيم فيه إلى الطريق الرئيسي الواسع حتى شد انتباهنا صُراخٌ قادم من الجانب الآخر للطريق، وكان مصدره حانةً إنجليزية يُسمُّونها pub وهي اختصار لتعبير (public house)؛ حيث يحتسي الروَّاد الجِعَة الإنجليزية بصفةٍ أساسية، ويتناولون بعض الوجبات الخفيفة، وجميع تلك الحانات تُغلِق أبوابها عادةً في الحادية عشرة مساءً. وقفنا نرقُب مصدر الصُّراخ فإذا بامرأةٍ إنجليزية تخرج من الباب وهي تصيح بلهجة أبناء لندن «إنه زوجي، إنه زوجي!» لم تكن ملامحها واضحة ولكنها كانت في منتصف العمر تقريبًا، تميل إلى السمنة، ولم يلبث «الزوج» أن خرج، فإذا هو هنديٌّ قصيرٌ رَبْعة القوام داكن اللون وخَطَ الشيبُ شَعَره، ومن خلفه شابَّان إنجليزيان يبادلانه السباب، وفجأةً ازدحم الرصيف المتسع بالشبان الإنجليز الذين خرجوا من الحانة ثم علا صياحهم في وجه الهندي، وانقضُّوا عليه، فأخرج مُديةً من ملابسه وجعل يُلوِّح بها في وجوههم، وصُراخ المرأة يعلو ويشتد، وأحاط الرجال بالهندي وهو يُحاوِرهم حتى نجح أحدهم في إسقاطه من الخلف على الأرض، وإذا بالجميع ينهالون عليه ضربًا وركلًا حتى خِلنا أنه قد قُتِل،

ثم انفَضَّ الجميع فجأةً وانطلقوا يَجْرون هاربين حين نبَّهَهم أحدُهم إلى قدوم الشرطة. جلسَت المرأة على الرصيف تَلطِم خدَّيها وتبكي، وحين وصلَت الشرطة لم يجدوا سواها وزوجها فنقلوهما في السيارة وانطلقوا مسرعين.

وقلت لسامي هامسًا في فَرَق: هذا تأثير الخمر! فقال: بل كراهية الأجانب. وقص عليَّ طَرفًا مما شَهِده على مدى السنوات الثلاث الماضية من أحداث تؤكِّد تلك النزعة العدوانية التي تتحوَّل إلى العنف الدامي في لَمْح البَرْق، وإن كنتُ ما أزال أعتقد أن الخمر هي التي أطلقَت تلك النزعةَ الجائحةَ الجامحة. وشرح لي سامي خوف الناس من الشرطة؛ لأن رجال الشرطة لا يرحمون، وعقوبة العنف رادعة، ولو لم يفِرَّ المعتدون لتعرَّضوا لأقصى العقوبات؛ فالقانون الإنجليزي ينُص على أقصى عقوبةٍ للإخلال بالأمن (أو حرفيًّا «تعكير صفو السلم» Disturbing the peace).

د. محمد مصطفى رضوان ود. سعد حجازي أثناء رحلة لبيت الطلاب العرب.

عندما قابلتُ الأستاذ المشرف في الموعد المحدَّد (في الساعة الثانية يوم الإثنين ١٧ مايو)، ناقشَني في تفاصيل الرسالة، وكنتُ قد قطعتُ فيها شوطًا كبيرًا في مصر، فأشار إليَّ بأن أقتصر في الدراسة على الكُتب الثلاثة الأولى من قصيدة المقدِّمة، ولكنني كنتُ طموحًا فأردتُ توسيع نطاق البحث ليشمل الكتب الثلاثة عشرَ كلَّها في النسخة التي كتبَها عام ١٨٠٥م، ثم أصبحَت أربعة عشر كتابًا في النسخة المنشورة في عام وفاته، عام ١٨٥٠م، ووعدَني بتوسيع نطاق البحث في مرحلةٍ لاحقة، ولكنه طلب مني أولًا أن أُطلِعه على نموذج من

كتابتي، واقترح أن أقرأ كتابًا وأُعِدَّ له عرضًا في ثلاثة آلاف كلمة، وآتي به في الأسبوع التالي. واستعرتُ الكتاب من المكتبة، وعُدتُ به فرحًا إلى المنزل إذ كان من الكتب النادرة التي طالما سمعتُ عنها وقرأتُ مقتطفاتٍ منها في غضون كتبٍ أخرى دون أن أطَّلِع عليها. وما إن دخلتُ غرفتي حتى انكببتُ عليه ألتهمُه التهامًا مستعينًا بالمعجم الذي اشتريتُه بعشرة شلنات، حتى غلبَني النُّعاس، واستأنفتُ القراءة في اليوم التالي فلم أذهب إلى الكلية، ولم أتوقَّف عن القراءة إلا لأداء الواجبات، ولكنني لم أنتهِ من قراءته حتى اليوم الثالث — يوم الأربعاء — وعندها بدأتُ الكتابة.

كنتُ أعرف أن ذلك المقال — كما يُسمُّونه (essay) — بمثابة اختبارٍ لقدرتي على التعبير، فتعمَّدتُ التنميق والزركشة، محاكيًا كُتَّاب الملحق الأدبي لصحيفة التايمز (TLS) أو ما يُسمِّيه شكري عياد «التأنُّق في الأسلوب»، وكتبتُ عشرَ صفحاتٍ قدَّرتُ أنها تضُم ثلاثة آلاف كلمة، وراجعتُها بدقة، ثم أسرعتُ إلى الكلية، وكان ذلك يوم الخميس ٢٠ مايو، فوضعتُ المقال في دُرج البريد الخاص بالأستاذ وخرَجْت.

كان الجو الصحو يُغرِي بالسير في الحديقة، فسِرتُ الهُوينَى أرقُب الطيور والزهور وأتأمل أنواع الأشجار الأوروبية التي لا نألفُها في مصر، وأنظُر إلى صفحة الماء الساكنة، وأتطلَّعُ إلى السحابات التي لا تكاد تتحرَّك عند الأُفق حتى بدأَت تصطبغ بألوان الأصيل، فأيقنتُ أن اليوم يطوي صفحته، وأن عليَّ أن أُهرعَ عائدًا لشراء بعض اللوازم المنزلية قبل أن تُغلِق المحلات أبوابها.

وعندما عُدتُ إلى المنزل حدَّثني سامي عن رسالته، وكانت عن أثَر الثقافة في تعليم اللغة الإنجليزية في مصر، وتحادَثْنا طويلًا في الصعوبات التي تكتنف مناهج التعليم بسبب اختلاف المفاهيم، وعرض عليَّ بعضًا من النتائج التي توصَّل إليها، وما يتصوَّره من أساليبَ للتغلُّب على الصعوبات الثقافية، ووجدتُ الموضوع شائقًا لكنني لم أفهم ما يعنيه بالنحو التحويلي transformational grammar، ولم أكن سمعتُ بعدُ عن تشومسكي وأوستن وسيرل (Chomsky, Austin, Searle)؛ إذ لم تكن علوم اللغة الحديثة قد «وصلَت» إلى مصر في تلك الأيام، فبدأتُ أسألُ وهو يُجيب حتى حان موعدُ النوم.

وفي اليوم التالي — يوم الجمعة — اقترح سامي عليَّ أن أصحَبه إلى مسجد لندن لأداء فريضة الجمعة، فتوضأنا وذهبنا فرأيتُ عجبًا، كان معظم المصلِّين ممن لا يعرفون العربية؛ فهم مسلمون من بلدانٍ أفريقية وآسيوية، وبعضهم من أوروبا، وكان عدد

المصريين لا يتجاوز أصابع اليد الواحدة، وكلهم يستمع إلى خطبة باللغة العربية ويؤدي الصلاة طبعًا باللغة العربية، كان من بينهم جارنا في المنزل (باقر) الباكستاني، وبعد الصلاة تحادَثْنا فعرفتُ أنه من طائفة الإسماعيلية، ولم أكن أعرف عنها شيئًا حينذاك، فكنت أستمع في صمتٍ لما يُقالُ ونحن نسير خارجَين عَبْر الحديقة المجاورة للمسجد، حتى تفرَّق الحشد الحاشد وذاب في زحام الطريق.

كنت مشغولًا أثناء العودة بالتفكير في خطبة الجمعة، كانت ولا شك من الخطب المحفوظة، وذكَّرَتني بالخطبة التي كان يلقيها الشيخ «حمدتو» في مسجد الشيخ قنديل في رشيد؛ فهي تبدأ بالصلاة والسلام على النبي، وتلاوة آية، ثم تأتي العبارات المعهودة: «أما بعد فأوصيكم عباد الله بتقوى الله، وطاعة أوامره واجتناب نواهيه ...» وقلتُ في نفسي: هل يفهم المصلُّون هذا الكلام؟ إنهم ولا شَكَّ يفهمون الآياتِ وقِصارَ السور التي يقرءونها في الصلاة، ولكن تُراهم يفهمون معنى «تقوى الله»؟ وهل من الجائز إلقاء خطبة الجمعة بالإنجليزية؟ وهل هي خطبة حقًّا (homily) أم موعظة (sermon)؟ وما الغرضُ منها في لندن؟ ولم تتوقَّف تساؤلاتي بعد كل جمعةٍ أُصلِّيها في ذلك المسجد.

وذهبتُ يوم السبت إلى «اليولو» حيث قابلتُ بعض المصريين، فعلمتُ منهم أن كلية المسرح في لندن (رادا وهي اختصار Royal Academy of Dramatic Arts) ستُقدِّم حفلًا في نفس اليوم مرتَين؛ الأول ماتينيه (نهاري وإن كان يبدأ مثل جميع المسارح في الثانية والنصف ظهرًا)، والثاني مسائي، وأن المسرحية هي «عطيل» لشيكسبير Othello، وأن البطل الذي يقوم بدور عطيل هو المصري أحمد عبد الحليم، ولم أتردَّد. ذهبتُ وشاهدتُ العرض، وبَهرَني ذلك العملاق المصري وهو يؤدي دور القائد المغربي الذي نهَشَته أنياب الغَيرة فقتل زوجتَه ظلمًا، وكنتُ أُتابع حركاتِه وسكناتِه بمزيجٍ من الإعجاب والاعتزاز بموهبته الفذَّة، وسعيتُ إليه بعد انتهاء العَرض وقلتُ له إنني سأكتُب عن العَرضِ في مجلَّة المسرح القاهرية، وطلبتُ صورًا تُنشَر للعرض، فوعد أن يأتي بها بعد أيام، وعندما صدَرَت جريدة المسرح الإنجليزية The Stage كان فيها مقالٌ يمتدح أداءه، كما ذكَرَت صحيفة التايمز The Times اليومية نبأ حصوله على ميدالية الشرف. وكتبتُ المقال وأرسلتُه إلى مصر؛ فرئيس التحرير هو رشاد رشدي، وسكرتير التحرير هو فاروق عبد الوهاب (الدكتور، الذي يعمل أستاذًا بجامعة شيكاغو حاليًّا) ولم يلبَث المقال أن نُشِر في العدد التالي من المجلَّة بعنوان «عطيل جديد من القاهرة».

٣

عندما قابلتُ المشرف يوم الإثنين التالي كان منفرج الأسارير، بشوشًا كعادته، ولكن تعليقه على مقالي لم يكن يبعث على الاطمئنان؛ إذ بدأ — بعد تعبيرٍ عام عن الرضا — بتعداد عيوبي الأسلوبية، وأهمها ما كنتُ أظُنه مزيةً كبرى وهو التأنُّق في العبارة! وجعل يردِّد أن الكاتب عليه أن «يختفي» وراء كتابته لا أن يُبرِز ذاته، وأن يَعمِد إلى البساطة في التعبير حتى يفهَمه القارئ دون عناء، وأن بناء الجُمل الطويلة المعقَّدة يُرهِق القارئ، وأشار بالقلم إلى بعض عباراتي التي قال إنها عسيرةُ الفهم، وإن عليَّ أن أضع الوضوحَ نُصبَ عيني لا الصياغة البديعة! وأردف قائلًا إنه سيمنحُني فرصةً أخرى، لكتابة عرضٍ لكتابٍ آخر، وموعدنا الأسبوع التالي. كان معنى ذلك أنه لم يرضَ عن المقال، وعبَّرتُ عن احتجاجي قائلًا إن كاتبة الكتاب تستخدم الأسلوب نفسه، ولكنه ردَّ في هدوء قائلًا: إذن عليك أن تتولَّى تبسيطَ الأفكار بلغتك وبسطَها بسطًا مستفيضًا expatiation فذلك من حَقِّ القارئ عليك. وانتهت المقابلة وخرجتُ أحمل المقالَ الذي خيَّب الظن، وعُدتُ إلى المكتبة فاستعرتُ كتابًا آخر وذهبتُ إلى المنزل لا ألوي على شيء.

كنتُ أشعُر أنني طُعِنتُ في أعزِّ ما أملكُ وهو قدرتي على الكتابة، أو على التعبير الواضح الجلي، وأن عليَّ أن أجتهد حتى أُبرِّر حُسن ظني بنفسي، فعكَفتُ على الكتاب الثاني أقرؤه على مهَل، وأتوقَّف عند النقاط المهمة، فأنقل منه فقرةً أو بعض فقرة، في أوراقٍ صغيرة مُقوَّاة (مثل البطاقات) حتى انتهيتُ من الفصل الأول. وجعلتُ أسأل نفسي ماذا تقول الكاتبة (واسمها WelsfordEnid واسم الكتاب Salisbury Plain) ثم كتبتُ ما تصوَّرتُ أنها تقولُه في صفحةٍ واحدة، وانتقلتُ إلى الفصل الثاني. وهكذا قضيتُ ثلاثة أيام لا همَّ لي إلا إيضاحُ الأفكار التي لم تكن في الواقع عميقة ولا جديدة عن الشاعر وردزورث، على عكس الكتاب الأول الذي كان يناقش العلاقة بين الرمز والصورة في شِعر الشاعر نفسه (لمؤلفةٍ أمريكيةٍ تُدعى Florence Marsh) وانتهيتُ يومَ الخميس من الكتاب، ولكنَّني لم أكن قد انتهيتُ من المقال، فتفرَّغتُ له صباح الجمعة ونقَّحتُ المسوَّدة، ودعمتُه بمقتطفاتٍ من كلام ولسفورد نفسها، حتى طال فأمعَن في الطول. ولكنني كنتُ راضيًا عنه فلم أحذف أي شيء، وأسرعتُ إلى الكلية فوضعتُه في دُرج بريد الأستاذ وخرَجْت.

لم أكد أعود إلى المنزل حتى وصل خطابٌ في بريد العصر من سمير سرحان، يقول لي فيه: إنه سوف يُسافِر يوم السبت (اليوم التالي) من مصر إلى أمريكا، وإنه سوف

يتوقف يومًا وليلة في لندن ليراني. وطرتُ فرحًا وأخبرتُ سامي أبو طالب فقال لي إنه يستطيع قضاء الليلة هنا معنا، وفي صباح اليوم التالي اتجهتُ إلى المطار في إحدى الحافلات المخصَّصة لهذا الغرض وأجرُ الرحلة ثلاثة شلنات ونصف، وانتظرتُ وصولَ الطائرة المصرية، وخرجنا معًا إلى لندن. وحكى لي في الطريق أن الدكتور محمد مندور تُوفي وأن الدكتور لويس عوض مال على الدكتور رشاد رشدي أثناء العَزاء وقال له «الدور علينا بقى» فغضِب رشدي غضبًا شديدًا لأنه لا يُحب ذِكر الموت، ولولا شعوره بالواجب الاجتماعي ما حضَر العَزاء أصلًا. وظلِلْنا نتجاذب أطراف الحديث حتى وصلنا إلى المنزل، ثم انطلقنا إلى وسط المدينة لأول مرة.

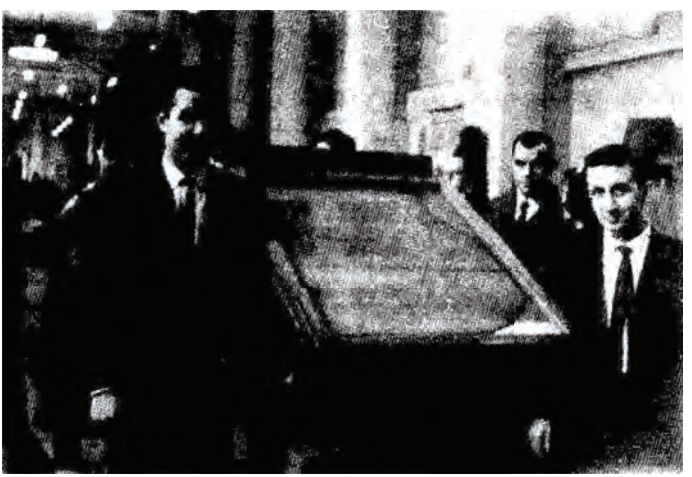

محمد السوري، محمد عناني، أمام حجر رشيد في المتحف البريطاني عام ١٩٦٦م.

كانت تلك ليلة السبت (أي عشية الأحد ٣٠ مايو ١٩٦٥م) وهي تقابل ليلة الخميس لدينا (أي عشية الجمعة) وكان ميدان بيكاديلي Piccadilly Circus غاصًّا بروَّاد المسارح والسينما، فتجوَّلنا ما شاء الله لنا أن نتجوَّل، من ليستر سكوير Liecester Square إلى شارع ستراند The Strand حتى وصلنا إلى مسرح أولدويتش Aldwych — مقر فرقة شيكسبير الملكية، وعرَّجْنا على مسرح كَفِنْت (كوفِنت) جاردن Covent Garden حيث تُعرضُ مسرحيةٌ موسيقية، وأخيرًا عُدنا إلى المنزل وقد أنهكَنا طُول التَّجْوال، فوجدنا

سامي أبو طالب في انتظارنا وقد أعدَّ لنا عشاءً خاصًّا، وبعد الطعام أكمَلنا السمَر في غرفة سامي حتى حان موعد النوم، وفي الصباح اصطحبتُه للمطار وفي حلقي غُصَّة؛ فقد بدأَت أيام الغُربة حقًّا، وعليَّ أن أنتظر عامًا على الأقل حتى تنتهي نهاد خطيبتي من دراستها وتلحق بي في لندن.

أصبح قطار المترو (The Underground) عادةً يومية، أستقلُّه في الصباح في الثامنة حتى أصل إلى الحديقة فأسير حتى الكلية، ثم أنتظر افتتاح المكتبة في التاسعة فأكون أوَّلَ الداخلين، وأقرأ حتى الحادية عشرة — موعد القهوة — فأخرج لتناوُل القهوة بأربعة بنسات، ثم أعود للقراءة حتى الثانية عشرة والنصف، فأخرج لتناوُل الغَداء، حتى الثانية — وكان ذلك موعد الأستاذ يوم الإثنين — أما في الأيام العادية فأعود إلى المكتبة حتى الرابعة — موعد الشاي — ثم أستأنف القراءة حتى السابعة — موعد العشاء!

وعندما قابلتُ المشرف في ذلك اليوم (٣١ / ٥) لم أُلقِ بالًا إلى هشاشته فهي لا تعني شيئًا، بل ركَّزتُ اهتمامي في الألفاظ التي سينطقها كأنما كان مستقبلي متعلقًا بها، وعندما بدأ الحديث كان ما يزال يُحدِّق في الأوراق التي كتبتُ فيها المقال، ثم استدار فجأةً ليقول «أرى أنك تعلَّمتَ الدرس» فأردف ذلك ببسمةٍ صافية، ثم قال كأنما يُكلِّم نفسه «لم تكن هذه الفتاة تلميذةً مجتهدة في يومٍ من الأيام .. ما رأيك في هذا الكتاب؟» وتملَّكَني الصمت والذهول. لم أكن أدري أنه يعرف المؤلِّفة معرفةً وثيقة، ولم أكن أعرف رأيَه الشخصي فيها ولا في الكتاب، فتلعثمتُ وهو ينقل بصره بيني وبين الأوراق، فأجبتُ على سؤاله بسؤالٍ من عندي، وهي حيلةٌ أوصاني بها الدكتور مجدي وهبة (رحمه الله) للخروج من المأزق، فقلتُ: «ما رأيك في المقال؟» ويبدو أن الأستاذ فَطِن للحيلة فقال ضاحكًا: «يبدو أنك راضٍ عن الكتاب!» وهنا أدركتُ أنه كان يريدني أن أُهاجم المؤلِّفة، فقلتُ بنبراتٍ واثقة وضعتُ فيها كل ما أملك من التواضع: «لقد حاولتُ عرض ما تقول بأمانة، وموضوعية.» ونجحَت الحيلة؛ إذ قال بسرعة «وأتيتَ في مقالك بالأفكار التي سرقَتها من أستاذنا السير موريس رحمه الله! هذه من لصوص الأفكار يا مستر عناني! هل تعرف أنها سرقَت مني أنا عبارةً وضعَتْها في بحث التخرُّج عندما كنا في أوكسفورد Oxford؟ وهل تتصوَّر أنها كوفئَت على تلك العبارة بتقدير ممتاز في البحث؟» وصمَت ليرقُب تأثير ذلك الخبر عليَّ فسألتُه: «عبارة واحدة؟» فأسرع يقول «كانت العبارة الأساسية (Key) التي أوضحَت للمُمتحِن إلمامَها بالموضوع!» وقلتُ في دهشةٍ صادقة هذه المرة: «وماذا فعلتَ أنت؟» فضحك وقال: «كان ذلك من زمنٍ بعيد، وقد أغلقنا الملف وانتهينا!» ولم أجد ما أقولُه فساد الصمت،

وقام ليُفرِغ لنفسه شرابًا من الجلوكوز يستمدُّ منه القوة؛ فقد كان شيخًا واهنًا، ثم قال: «أعتقد أنك قادر على الكتابة، ويجب أن تبدأ بصياغة عنوانٍ دقيقٍ للرسالة حتى يتسنَّى التسجيلُ قبل انتهاء الفصل الدراسي.» وسألتُه إن كان العنوانُ وحدَه كافيًا للتسجيل فأجاب بالإيجاب، وقال إن ما كتَبتُه في خطاباتي لرئيسة القسم مُقنِع وسيرضَى عنه مجلس الجامعة (The Senate) وسألتُه عن الإجراءات والأوراق المطلوبة، فقال: «اذهب إلى سكرتير الكلية، وعُد إليَّ غدًا أو بعد غد بعنوانٍ دقيق، فإن لم تجدني فاتركْه في درج الخطابات.» وانصرَفْت.

كان العنوان هو الذي سبق الاتفاق عليه، ولكن التحديد مشكلة، وآثرتُ عدم الإصرار على تناول جميع الصور الشعرية في قصيدة المقدمة برُمَّتها، والاكتفاء بالصور الأساسية في الكتب الستة الأولى، وكتبتُ العنوان وجئتُ في اليوم التالي فوضعتُه حيث طلب، وعُدتُ إلى المكتبة، وبدأتُ منذ ذلك اليوم، وكنا في أوائل يونيو، رصدَ كُل ما كُتِب في الموضوع، وتلخيص كل مقالٍ أو كتابٍ في بطاقةٍ صغيرة (كارت) وإعداد هذه البطاقات للرجوع إليها عند الحاجة للاستزادة من كتابٍ من الكتب، وقدَّرتُ أن هذا العمل سيستغرق شهرًا أو شهرَين، ولكنني آليتُ على نفسي أن أنتهي منه قبل تحليل الشعر نفسه. وكانت المكتبة زاخرةً بالكُتب التي تتناول شعر الشاعر، وبالدوريات العلمية الحافلة بما كُتب عنه، فكانت ساعات اليوم تفِر سِراعًا وأنا منهمكٌ في ذلك العمل المضني حتى انقضى الفصل الدراسي، واطمأنَّ قلبي إلى أنني سوف أعرفُ كل ما كُتب عن الشاعر حتى عام ١٩٦٥م.

٤

ولكن شهور الصيف سرعان ما انقضَت دون أن أنتهيَ من ذلك العمل، وكنتُ أُدرِك كل يومٍ مدى التحوُّل في كل شيء حولي؛ فلم يكد شهر سبتمبر يأتي بأجواء الخريف حتى اختلف وجه الطبيعة، وتغيَّرَت ألوانُ أوراقِ الشجر، وبدأَت الرياح تعصفُ أحيانًا بلا مطر، وإن كانت الأمطار تسقُط بلا نمطٍ ولا نظامٍ من أي نوع، وكنتُ أُحِس في كل يومٍ بذلك التغيير، وأفهَم منه مدى انشغال الإنجليز بالطبيعة، بل وبدأتُ أفهم الشعر الذي أقرؤه فهمًا جديدًا؛ فالإنجليزي يُحب الطبيعة حبًّا مشبوبًا، وهو دائم التفكير في حديقة منزله وزهور شُجيراته، والمجلات التي تُعالِج موضوعات «البستنة» horticulture (أي غرس أشجار البساتين المُثمِرة والمُزهِرة ورعايتها) كثيرةٌ لا حصر لها، وأحاديث طُلَّاب الدراسات

العليا وأعضاء هيئة التدريس في غرفتنا (The Common Room) كثيرًا ما تدور حول أنواع الأزهار والثمار التي يزرعونها في حدائق بيوتهم، وبدأتُ أفهم أيضًا سر ميل الشعراء إلى تحديد أنواع الأزهار في أشعارهم؛ فالأزهار جزءٌ من الثقافة الإنجليزية، ورعايتها جزءٌ لا يتجزَّأ من تفكير الإنجليز بل ومن اللغة الإنجليزية نفسها، ووجدتُني رغم أنفي أتعلم التمييز بين الزَّنبَقة Tulip والأُقحُوانة Daisy، وبين القَرنفُلة carnation والبنَفسِجة Violet، وبين أنواع الورود، ثم أقف حائرًا عند عشرات أسماء الأزهار التي لم أكن أعرف لها مقابلًا بالعربية، واجتهدْت حتى أصبحت أعرف الـ blue bells والـ foxgloves والـ orchids وغيرها، وفرحتُ لأنني استطعت إدراك المعنى الصحيح لبيتٍ ورَد في قصيدة المقدمة، وكنتُ أسأتُ فهمَه في مصر وجاء فيه:

Planting my snowdrops among winter snows

إذ كنتُ لا أعرف أن snowdrop اسم زهرة، وتصوَّرتُ أنها تعني قطعةً صغيرة من الثلج!

كان جمال الخريف أخَّاذًا، وكنتُ أرقُب الحديقة من مجلسي في المكتبة، وكثيرًا ما كنتُ أترك القراءة وأتطلَّع فتراتٍ طويلةً إلى الأشجار وهي تنفضُ أوراقها وتتعرَّى غصونها مع هبَّات الريح، وفي ذاكرتي أبيات الشاعر شلي Shelley، وكان الجو أحيانًا يكفهرُّ وتغيبُ الشمس خلف السحاب، وأنا أُقلِّب بصري بين ما أقرأ وما أشاهد، حتى انقضى سبتمبر، وفاجأَني سامي أبو طالب ذات يومٍ بأنه سوف يترك الشقة؛ لأن إدارة البعثات أخبرَتْه أن كلية التربية قرَّرَت إيقاف مرتَّبه لأنه لم يحصل بعدُ على أي درجةٍ علمية تُبرِّر بقاءه في البعثة، وقال إنه سوف يُضطَر إلى الالتحاق بعمل «بعض الوقت» في بيت الطلاب بجامعة لندن بالقرب من ميدان رَسِل، مقابل الإقامة والطعام وبعض قروشٍ زهيدة، حتى يستطيع الانتهاء من الرسالة!

وقَع الخبر عليَّ وَقْع الصاعقة، ولم أكن حزينًا فحسب لأنه سوف ينتقل إلى مسكنٍ آخر، بل أيضًا لأنه كُتبَ عليه أن يعمل عملًا يدويًّا حتى يستطيع الاستمرار، وكان الأمل في أن تغيِّر الكلية رأيها أو أن تتراجع عن قرارها شبهَ معدوم، وكان سامي طالبًا مُجدًّا قطع شوطًا كبيرًا في اكتساب المعرفة بعلوم اللغة الحديثة وهي بعدُ في مهدها، وكان يُتابِع الجديد ولا يتركُ شيئًا دون تمحيص، فأحسستُ أنه مظلوم، وقلتُ في نفسي إن ما حدث له يمكن أن يحدُث لأي إنسان، خصوصًا بعد أن زارني كرم محسن ذات مساءٍ عاصف

في أواخر سبتمبر! وأذكر أنه كان يوم الجمعة (٢٤ / ٩) إذ جاء في الصحف نبأٌ يفيد اتفاق مصر والمملكة العربية السعودية على وقف إطلاق النار تمهيدًا لإنهاء حرب اليمن. وكان كرم محسن زميلًا يسبقني بعامٍ في الدراسة، وتخرَّج بتقدير جيد جدًّا وعُيِّن مدرسًا للغة الإنجليزية بالقسم، ثم حصل على بعثة إلى اسكُتلندا وسافر قبلي بعامَين، وكنتُ أتصوَّر أنه قد بهر الجميع في جامعة إدنبره Edinburgh بجدِّه واجتهاده؛ ولذلك فوجئتُ عندما طرق بابي في لندن ذات يوم وهو مهمومٌ كاسف البال، وجلس يُغالِب الدموع ليقُص عليَّ رسوبه في الامتحان التأهيلي DiplomaQualifying الذي تعقده تلك الجامعة لجميع المتقدمين للدراسات العليا قبل التسجيل للدرجة (أولًا لدرجة .M. A أي الماجستير التي قد تتحول إما إلى .M. phil التي هي وسط بين الماجستير والدكتوراه أو إلى .Ph. D أي الدكتوراه) وذلك بعد دراسةٍ قد تستمر عامًا واحدًا يعقُبه ذلك الامتحان، أو لمدة عامَين إذا لم يوفَّق الطالب في الامتحان الأول، ويُمنَح الطالب الناجح ما يُسمَّى بدبلوم الدراسات العليا postgraduate diploma وهو ليس درجةً علمية بل خطوة تأهيلٍ للبحث العلمي.

وجعلتُ أُناقِش كرم محسن في التفاصيل، فقصَّ عليَّ أنهم طالبوه بقراءة عدة نصوص لشيكسبير في مادة الدراما وكتابة أبحاثٍ عن النقد الحديث الذي كان ملمًّا به، وتوسَّع وأفاض في مَيل بعض الأساتذة إلى اضطهاد الأجانب، وقال إنه يظُن أنهم يهود (وقد اعتدتُ سماع ذلك فيما بعدُ من الذين لم يُوفَّقوا) وأضاف إنه سيتحوَّل إلى جامعةٍ أخرى قد تكون أرحَم وأشفَق، وذكر لي بعض الجامعات الإنجليزية التي قبلَته ثم مضى (وعلمتُ فيما بعدُ أنه صادف صعوباتٍ كثيرة عاد بعدها إلى مصر دون الحصول على الدرجة).

كان الموقف كئيبًا، وبدأتُ أتردَّد على بيت الطلاب العرب الذي يُسمُّونه نادي الطلاب العرب ومقرُّه هو مكتب البعثات؛ أي مكتب المستشار التعليمي والثقافي المصري، وتعرَّفتُ فيه على معظم المصريين وبعض الطلاب العرب من خارج مصر، وكان من بينهم من همَس الهامسُ بأنهم «مخابرات» أي عيونٌ ترقُب سلوك الطلاب وترصُد أقوالهم، فكنتُ أتعمَّد تحاشي المشاركة في المناقشات السياسية، وأحوِّل دفة أي مناقشة إلى اللغة الإنجليزية وصعوباتِها، وهم في حَيرة من أمري! كان بيت الطلاب صورةً مصغَّرة من الجو السائد في مصر والبلدان العربية «التقدُّمية» وكان الخوف هو الشعور السائد بين الجميع! من يدري قد يكونُ من تُحادِثه من «العيون» وقد يكون حديثه فخًّا منصوبًا للإيقاعِ بك!

ورأيتُ السلامة في تحاشي هذا وذاك، وإن كانت ثقتي لم تتزعزع ببعض زملاء الكلية الذين كانوا يدرُسون تخصُّصاتٍ مختلفة.

كان ضيقُ ذات اليد من أهم ما يشغلُني آنذاك، فاقترح عليَّ أحدهم أن أتجه إلى القسم العربي بهيئة الإذاعة البريطانية علَّني أستطيع أن أكتبَ شيئًا يأتي بعائدٍ ماديٍّ معقول. كان رئيس قسم الدراما هو الكاتب السوداني الطيب صالح، وكان رئيس قسم المنوَّعات اسمه عبد الرحيم الرفاعي، ويرأس القسم الأول إنجليزيٌّ اسمه دكورث Duckworth ويرأس الثاني سيدةٌ اسمها مسز شرينغهام Mrs. Sheringham وكان صالح والرفاعي قد اطَّلَعا على ترجماتي لشيكسبير التي نُشِرَت في مجلة المسرح القاهرية، فاقترحا أن أكتُب بعض الأحاديث الإذاعية، فكتبتُ حديثًا عن رديارد كبلنج Kipling قصَّاص الإمبراطورية البريطانية وشاعرها، وسلَّمتُه إلى سعيد العيسى وهو فلسطيني يعمل رئيسًا لقسم الأحاديث، فأبدى رضاه عنه، خصوصًا ما ترجمتُه من قصائدَ عثَرتُ عليها في المجموعة التي نشَرها ت. س. إليوت وكتب لها المقدِّمة، ولكنه لم يجد قصيدتَه المفضَّلة والشهيرة التي يُشار إليها عمومًا باسمِ قصيدة "If" والتي يقول مطلعُها:

If you can keep your head when all about
You are losing theirs and blaming it on you …

ومعناها:

«إذا استطعتَ أن تظل ثابتَ الجَنان،
وطاشَ عقلُ كُل من يُحيط بك،
وقال إنك السبَب …»

فتساءل كيف أُغفِل قصيدةً شهيرةً مثل تلك القصيدة، ولم يقتنع بما ذكرتُه عن عدم إدراج إليوت لها في المختارات، وأكَّد لي أن الحديث الإذاعي لن يكتمل إلا بها؛ ومن ثم اتجهنا إلى المكتبة وأتينا بديوان الشاعر، وفي دقائقَ كنتُ أعددتُ ترجمةً منظومةً للأبيات الأولى منها، مما أدهشَه دهشةً واضحةً، فقال فلنُضِف الأبياتَ إلى الحديثِ ففعلنا، وانتهَينا من التسجيل في أقلَّ من نصف ساعة، وانصرفتُ على أن يرسل لي العقد الخاص بكتابة الحديث بالبريد، يتلوه الشيك. وكان العنوان الذي أعطيتُه إياه هو عنوان المنزل الجديد

الذي انتقلتُ إليه في أكتوبر، وهو منزلٌ قديم بُني قبل الحرب العالمية الأولى، فبدت عليه دلائل الهرَم، ولذلك قصةٌ موجزة.

بعد أن انتقل سامي أبو طالب إلى بيت الطلاب، كان عليَّ أن أبحث عن مسكنٍ آخر بسرعة، وفي المنطقة نفسها، لأنني أصبحتُ أعرفها، وحيث يقيم عددٌ من إخواني المصريين، وحيث ألتقي بهم في نهاية الأسبوع أحيانًا؛ مثل فؤاد أبو حطب، وحامد زهران، وحسنين ربيع وغيرهم، وقد تعرَّفتُ في منزل حامد زهران الذي كان تخرَّج في قسم الجغرافيا ولكنه كان يدرس التربية وعلم النفس، على سمير رضوان الذي كان يدرُس الاقتصاد، وكان يتحدَّث عن الاشتراكية بحماس وإيمان منقطع النظير، ثم دار الزمان وسمعتُ صوته أثناء مقامي شهرًا في جنيف للعمل بالترجمة في الأمم المتحدة عام ١٩٩٢م، سمعتُ صوته في التليفون يسأل عن محمد العليمي، أحد خريجي القسم والعاملين بالأمم المتحدة، ولما سألتُ إن كان المتحدث هو الشخص نفسه الذي تفوَّق في جامعة كيمبريدج وكان من أبرز الدارسين ودعاة الاشتراكية، جاءني الردُّ بالإيجاب مع تذييلٍ قصير مفاده أنه أصبح من كبار الدعاة الإسلاميين، شأنه في ذلك شأن محمد العليمي نفسه. ولم أشأ أن أطرح المزيد من الأسئلة؛ فالقصة متكرِّرة ومألوفة، وأعود إلى قصة الانتقال إلى المنزل «الجديد».

كان من عادة أصحاب المنازل الذين يريدون عرض غرفة أو شقة للإيجار أن يعلنوا عن ذلك في بطاقاتٍ صغيرة توضع في لوحةٍ خاصة خارج المحلات التجارية مقابل قروشٍ زهيدة، وكنتُ قد اعتدتُ قراءة هذه البطاقات وفك رموزها التي تُحدِّد «نوع» الساكن المطلوب، وكان معظم المعلنين من العجائز أو الأرامل اللائي أصبحن يعشن في وحدةٍ بعد وفاة الزوج ورحيل الأبناء، أو بعد فقدان الأهل، وما كان أكثرهنَّ في تلك الأيام؛ فلم يكن مضى على الحرب العالمية الثانية سوى عشرين سنة، وكانت تلك السيدات اللائي فقدن رجال الأسرة ما زلن قادراتٍ على العمل (على تقدُمهنَّ في السن) وكان وجود السكان الأفراد في الغرف المفروشة يمثِّل مصدرًا للدخل، ويوفِّر لصاحبة المنزل The landlady عملًا يشغلُها ويُنسِيها آلام الوحدة. وكان الشائع في تلك الأيام أيضًا وجود عبارة في ذيل البطاقة تقول «لا نقبل الملوَّنين» مثلًا (no coloured) أو لا نقبل أبناء أيرلندا، أو لا نقبل الأطفال أو الكلاب إلى آخر ذلك.

وانتقيتُ بطاقة لا يضع صاحبها شروطًا من أي نوع، ويقول إن الغرفة إيجارها ثلاثة جنيهات إلا ربعًا في الأسبوع، فأسرعتُ بالاتصال برقم التليفون فوجدتُ ترحابًا، وطلب المتحدث مني أن أتجه إلى المنزل وأن أُخبِر من يفتح الباب أنني قد استأجرتُ

الغرفة وأن لي أن أنتقل دون إبطاء، على أن يُحسَب الإيجار اعتبارًا من اليوم التالي. كنا يوم الخميس (٣٠ / ٩)، فتوجَّهتُ من فوري إلى المنزل في شارع أيزلدون (١٣, Isledon Road) (وكنتُ أظن أن حرف الـ S صامت ولكنني اكتشفتُ أنه يُنطَق زايًا!) الذي لا يبعُد إلا مائتَي متر تقريبًا عن منزلنا القديم، وعندما قرعتُ الباب فتحَت لي امرأةٌ سوداءُ هائلة الجِرْم، ضاحكة السن، شعرها أبيض كالقطن، وبدت خفيفة الحركة على ضخامتها، ترتدي ملابسَ زرقاءَ داكنة، وقالت كلامًا لم أفهَم معظمه، ثم اصطحَبَتني إلى الطابق الثالث (يوازي الثاني عندنا) وفتحَت لي الغرفة وقالت لي تفضَّل! كان بالغرفة شُباكٌ كبير يُطِل على فِناءٍ تابعٍ لمحطة قطارات الضواحي، وقد تناثَرَت فيه قِطَع الحديد والأخشاب، ثم ارتجَّ البيت رجةً عظيمة حتى خلتُ أنه كاد أن يسقط، وبدَت أمارات الهلَع على وجهي وأمسكتُ بإحدى قوائم السرير، والتفتُّ إلى السوداء الضخمة في تساؤل وذعر وكانت الأواني الموضوعة على المنضدة تصطَك وتُحدِث جلَبةً مفزعة، فأجابَتْني بضحكةٍ مجلجلة قائلة: «إنه القطار! سوف تعتاد عليه!» وبعد أن هدأ رُوعي خرجتُ لا أدري هل أمضي في مشروع الانتقال أم أبحث عن مسكنٍ آخر، وعندما وصلتُ إلى باب المنزل قالت لي السوداء: «سأُعطيك مفتاح البيت عندما تأتي .. وإذا شئتَ أتيتُك بمفتاحٍ للغرفة .. أنا في انتظارك على العموم!» وخرجتُ إلى الطريق العام دهِشًا من كلامها. وبعد أن قلَّبتُ الأمر على وجوهه قرَّرتُ الانتقال في نفس اليوم، فأعدَدتُ حقيبتي وحملتُها على كتفي وسِرتُ حتى أفرغتُ ما بها في الغرفة الجديدة، ثم عُدتُ إلى المنزل القديم وملأتُها من جديد ثم عُدتُ فأفرغتُها وتركتُها، ورجعتُ إلى التركي لكي أودِّعَه وأعطيَه مفتاح المنزل، وعندما استقر بي المقام في الغرفة الجديدة، حاولتُ أن أروِّض نفسي على تقبُّل الأمر الواقع؛ فالغرفة لا تدفئة بها، ولديَّ مدفأة تعمل بالجاز (الكيروسين) أُوقدها ليلًا، وليس بالغرفة مكتب، بل منضدةٌ صغيرة لا تكفي كتبي وكرَّاساتي. والمشهد من الشُّباك قبيحٌ قبيح، وضجيج القطار يتكرَّر ليلًا ونهارًا، وعندما جاء صاحب المنزل يوم السبت (٢ / ١٠) لتحصيل الإيجار وجدتُه عملاقًا أسود، اسمه آشيل Achilles (مثل البطل الإغريقي أخيلاس) وكان يتحدث كأنما لا يُشارِكه الحوار أحد، وأكاد أذكُر كل كلمة قالها ذلك الصباح:

– صباح الخير يا مستر عناني .. أنت من مصر .. هذا حسن! أنا من أفريقيا! نحن جميعًا من أفريقيا. هل أعجبَتْك الغرفة؟ هذا حسَن! روزانا تقول إنك دمْث الأخلاق. هذا حسَن. هل تحتاج لشيء؟ هذا حسَن! إذا احتجتَ لشيء فاطلبه من روزانا! سآتي صباح السبت التالي!

لم تستغرق المقابلة سوى دقائقَ معدودة، اختفى بعدها آشيل ولم أعُد أسمع له صوتًا، بعد أن كانت جملة "That's good" ترن في الفضاء مثل الرعد! وفي الهدوء العميق الذي ساد المكان بعد رحيله، وجدتُني أجلس على الكرسي الوحيد المواجه للنافذة، وأتأمل قضبان السكك الحديدية الصدِئة، وأكواخ المهمَّات المُهمَلَة، وأكوام الأخشاب والصخور المستخدمة في بناء الوصلات، وأحد العمال يصيحُ في زميلٍ له بلهجة من المُحال تحديد كُنهها، أنا لا شك أفريقي، ولكنني لستُ من هذه الفئة، وذكرتُ ما قاله سامي أبو طالب عن العنصرية والتعصُّب فقرَّرتُ ألا أشغَل بالي بالتصنيفات العِرقية، وأن أتفرَّغ للدرس حتى أعود إلى مصر العربية، وإلى من لا يعتبرني «غريب الوجه واليد واللسان»!

وقضيتُ عطلة نهاية الأسبوع ما بين القراءة وبين التريُّض في الحديقة العامة التي أُطلِق اسمها على الحي، وعُدتُ ابتداءً من يوم الإثنين إلى النظام اليومي في الكلية أُحاوِل أن أنتهي من تصنيف كل ما كُتب عن الشاعر ووضعه في البطاقات، حتى خلتُ أن المهمة اكتملَت، فأفضيت بالخبر السعيد إلى المصري الوحيد الذي كان يدرُس معي في كلية بدفورد وهو عادل مشرفة، وفي تضاعيف الحديث ذكرتُ له تلك الغرفة الكئيبة، وكان قد عرَّفني بطالبةٍ تخرَّجَت في قسم اللغة الفرنسية، وهي إنجليزيةٌ تدعى هيلاري وايز (Wise) وتدرُس اللغة العربية في غُضونِ بحثها عن النحو التحويلي الذي ما لبث أن «تحوَّل» إلى موضة في الستينيات وما بعدها. وما إن سمعَت هيلاري قصة آشيل حتى انطلقَت تُحدِّثني عن مغبة الحياة مع الزنوج، وكانت كأنما تذكِّرني بأحاديث جدتي — رحمها الله — إذ روت لي (أي جدتي) أن جدَّتَها كانت لديها جاريةٌ سوداء، واكتشفَت الأسرة ذات يومٍ أن لها ذيلًا قصيرًا، فتأكَّد لهم أنها «غُولة» وسرَّحوها خوفًا على أطفالهم منها. لم تزعم شيئًا مثل ذلك ولكنها ذكرت بعض «الوقائع» ثم اقترحَت عليَّ أن أتقدَّم بطلبٍ إلى بيت طلابٍ جامعي اسمه Lillian Penson Hall ومعنى Hall هو مقَر إقامة، فهو اختصار تعبير Hall of Residence الذي ما يزال مستعملًا في بريطانيا، وأما الاسم فهو اسم الأستاذة الجامعية التي تبرَّعَت بالمال اللازم لتحويل فندقٍ ضخمٍ اسمه Stephen Court Hotel إلى بيتِ طُلاب. وأرسلتُ الطلبَ بالبريد في اليوم التالي إلى عنوانه في تولبوت سكوير Talbot Square واستأنفتُ حياتي المعتادة.

وانقضَى أكتوبر وأنا أتحمَّل رائحة القرنبيط والكرنب المسلوق، وهم لا يضيفون إليه الكمُّون الذي يذهب بالرائحة، ولا يطبخونه بطريقتنا بل يسلُقونه سلقًا، وكانت الرائحة تملأ البيت في المساء، وما كان أبغضَها وأقبحَها! وفي يومٍ من أيام نوفمبر عُدتُ إلى الغرفة

كارول أثناء العمل بالترجمة في كوينز هاوس.

مُرهَقًا من طُول القراءة في المكتبة، فأويتُ إلى الفِراش بعد أن أوقدتُ المِدفأة ولكن قبل أن يشيعَ الدفءُ في الغرفة، وإذا بي أرتعدُ وأرتعد ساعةً أو ساعتَين حتى خِلتُ أنني سأَهلِك. وفي الصباح ذهبتُ إلى الطبيب، وكانت امرأةً شرقية الملامح اسمها هانا بيرمان Hanna Beerman، شرحتُ لها ما أصابني فكتبَت لي علاجًا ونصحَتْني بالدفء.

اشتريتُ الدواءَ وبعضَ الطعام الذي أوصَت به وعُدتُ إلى الغرفة، وكان ذلك يوم السبت فوجدتُ جارتي السوداء (ولم أكن رأيتُها من قبلُ) قد استضافت روزانا الضخمة، وبابُ غرفتِها مفتوح، فدعَتْني للدخول فدخلتُ وسلَّمت، فقالت الجارة إنها سمعَت رِعْدتي في الليلة السابقة؛ فقد كان السرير يهتز، ويبدو أنني كنتُ أتألم بصوتٍ مسموع دون أن أدري، وقالت إن ذلك كثيرًا ما يحدُث لمن يسكُن تلك الغرفة. وحينما لاحظَت دهشتي قالت: «إن الروح الباردة تسكنُها (haunted by a cold spirit)، ولا يُجدي فيها أي قَدْرٍ من التدفئة!» وضحكَت روزانا وقالت: «إنه يريد تدفئةً خاصة تُذهِب تلك الروح!» وضحكَت الأخرى. وأحسستُ بالرِّعدة من جديد! وقدَّمَت لي جارتي قطعةً من الكعك وفنجانَ شاي، وقالت إن البريد أتاني بخطابٍ قدَّمَته لي فأخذتُه وانصرَفْت.

وعندما فتحتُ الخطاب وجدتُه من بيت الطلاب المذكور، وهو يتضمَّن الموافقة على الانتقال إليه، على أن أُشارِك أحد الطلاب غرفتَه بإيجارٍ شهري قدره ١٤ جنيهًا أما

الغرفة المستقلة فإيجارها ضعف ذلك! ولم أُضِع الوقت فانطلقتُ إلى الطابق السفلي حيث التليفون المشترك (لسكان المنزل جميعًا) ووضعتُ أربعة بنسات وطلبتُ بيت الطلاب وقلتُ لهم إنني قادم! وعندما جاء السيد آشيل بعد نحو ساعةٍ أبلغتُه الخبر فهاج وماج، وقال لا بد أن تُخطِرني قبل الرحيل بأسبوع، وأصررتُ على موقفي، فتصايحنا فجاءت جارتي، ثم جاءت روزانا، واقترحَت المرأتان أن أدفع نصفَ قيمةِ إيجار أسبوع بدلًا من الإخطار، ووافق آشيل وأخذ المال وانصرَف.

وأبدت المرأتان حُزنَهما لرحيلي، ولكنهما أظهرتا قَدْرًا لا بأس به من التعاطُف، وساعدَتني روزانا في حزم حقائبي (وكنتُ اشتريتُ حقيبة أخرى بجنيهَين ونصف) بل حملَت الحقيبة الثقيلة بنفسها، وطلبَت لي سيارة أجرة بالتليفون! وفي أقل من ساعةٍ كنتُ في مقَري الجديد على مشارف وسط لندن!

الفصل الثاني

الشتاء الأول

١

كان بيتُ الطلاب الجديد ما يزال في مرحلة الإعداد، وكانت جميعُ ملامح الفندق القديم ظاهرةً فيه، ولم يكن قد تغيَّر فيه سوى تحويل قاعة الضيوف أو قاعة الاستقبال بالدور الأرضي إلى مكانٍ يشبه المكتبة العامة، به مناضدُ مصفوفة وكراسيُّ خشبيةٌ غير وثيرة، وإلى جواره غرفةٌ خاصة للتليفزيون يجتمع فيها الطلاب في المساء لسماع نشرة الأخبار أو مشاهدة حلقةٍ بوليسية، وكان به مطعم في الدور تحت الأرضي يقدِّم وجباتٍ زهيدة السعر لتكون في متناول أيدي الدارسين، وكان هؤلاء خليطًا عجيبًا من الأجناس المتنافرة إلى جانب الإنجليز المغتربين عن أهلهم للدراسة في لندن، فكان فيه العرب وأبناء أفريقيا وآسيا وأمريكا، بل وأستراليا ونيوزيلاندا! وما إن حطَطتُ الرحال حتى تعرَّفتُ على زميلي الذي يشاركني الغرفة، وهو هنديٌّ تقدم به العمر، وكان يُحاوِل جاهدًا أن يحصل على الدكتوراه في الأدب الإنجليزي، ولن أنسى صباح أول ليلةٍ أقضيها في ذلك المكان؛ إذ عندما فتحتُ عيني وجدتُه في وضعٍ مقلوب، قدماه في الهواء ورأسه على الأرض، وفي الغرفة رائحة بخورٍ خفيفة، عبيرُها غيرُ نفاذ، وضوء الصباح يتسلَّل برفق من خلف الستائر التي تحجُب شُباكًا كبيرًا واجهتُه شرقية.

كان الصمت يلفُّ المكان، فمكثتُ في الفراش أرقُب القدمَين المعلَّقتَين في الهواء عدةَ لحظات وأنا حائرٌ في تفسيرِ ما يفعل «فيكرام» Vikram، حتى انتهى من تلك الرياضة الصباحية، وقد اكتشفتُ فيما بعد أنها نوعٌ من اليوجا، ثم جلس أمام صورة للزعيم الروحي بوذا في استغراقٍ شديد، ورائحة البخور تزدادُ قوة، ولا أدري كم مَرَّ من الوقت

عليه وهو في تلك الحال، وأنا أخشى أن أنهضَ حتى لا أتسبَّب في تعكير صفو تأمُّلاته، وبعد برهةٍ قام فأزال الصورة وأطفأ البخور وفتح الشُّباك وقال لي: صباح الخير!

كانت اللهجة الهندية التي يتحدَّث بها اللغة الإنجليزية طريفة، ولم نلبث أن تناوبنا استخدامَ الحمام، ثم انطلق كلٌّ منا إلى كليته. وعرفتُ من مناقشاتي فيما بعدُ معه أنه يؤمن بتناسُخ الأرواح أو transmigration of souls أي بأن لكل مولودٍ روحًا تأتي من أحد الراحلين، وأذكُر أنني عندما سألتُه كيف يفسِّر الزيادة في عدد الأرواح بزيادة عدد سكان الأرض أجاب بأن الأرواح تأتي ممن تركوا الأرض على مر الأزمان، وعندما اعترضتُ قائلًا إن ذلك لا يعدو أن يكون من باب الظن، قال: «بل هو اليقين.» وانطلَق يعرض النظرية التي درَج على الإيمان بها دون مناقشة، ثم سألَني فجأة: «ألا تشعُر أحيانًا أن بداخلك إنسانًا لا تعرفه؟» ولم ينتظر مني الإجابة، بل أردَف يقول واثقًا:

> «لقد قرأتَ شعر الشاعر وردزورث، ولعلَّكَ تذكُر ما يقوله في قصيدة «مشاعر الخلود المستوحاة من ذكريات الطفولة الأولى» — ولعلكَ قبلتَ ما فيها على أنه رؤيةُ شاعرٍ لرحلة الروح من عالمٍ سابقٍ على الوجود المادي إلى عالمٍ لاحقٍ على هذا الوجود! والشاعر كما تعرف يُنكِر تأثُّره بأفلاطون مؤكدًا أن ذلك الإحساس داهمَه حتى قبل أن يقرأ ذلك الفيلسوف اليوناني، وأنه كان يشعُر بغربة روحة عن عالم الأرض، وضيقها بسجن الجسد، ونُزوعِها للتحرُّر منه آخر الأمر! إنه يؤكد أن الروح التي تُولَد معنا مثل الشمس التي تُشرِق في عالمٍ جديد في اللحظة التي تغربُ فيها عن عالمٍ آخر — وهذا هو معنى التناسُخ!»

وسجَّلتُ ملاحظاتِه في كراسةٍ لديَّ ما زلتُ أحتفظ بها، وعُدتُ إلى قراءة تلك القصيدة التي كنتُ ترجمتُها ذات يومٍ في مصر، ولاقت إعجابًا من أستاذي مجدي وهبة، رحمه الله، وشُغِلتُ يومًا أو يومَين بهذه الرؤية الشرقية المحضة لحياة الروح الإنسانية، وانتهيتُ إلى أنها لا تعدُو أن تكون رؤية شاعر، وأنها لا تصلُ أبدًا إلى يقين العلم؛ فالروح من أمر ربي، وما أُوتي البشر من العلم إلا قليلًا، ولكن أحببتُ أن أستزيدَ من العلم بهذه الفلسفة الشرقية التي كُتب لها أن تظل ضربًا خاصًّا من الاستبطان (introspection) وألا ترقى أبدًا إلى مرتبة الفكر الحقيقي. وعندما صارحتُه بذلك دار بيننا حوارٌ أرجو أن أنجحَ في تلخيصِه هنا استنادًا إلى مذكِّراتي؛ إذ التفَت إليَّ ببسمة الواثق قائلًا:

– لقد تدرَّبتَ على التفكير الذي ينسبُ كل ما لا تعرفه إلى السماء؛ أي إلى مصدر خارج النفس، ولديكم في الإسلام والمسيحية رموزٌ تتوسَّلون بها حتى تتجنَّبوا حياة الروح الحقيقية، ولكن أستاذنا بوذا يُعلِّمنا كيف نغتَني بالمواجهة الصادقة مع النفس عن رموز الجنة والنار، وعن تصوُّر الملائكة والشياطين، ومفهومنا للخير نسبي، وكذلك مفهومنا للشر؛ فكل ما يؤدي إلى التوافُق والتناغُم والسلام خير، وكل ما يُفسِد ذلك شر، وأفكارنا الدينية أقرب إلى البراجماتية والعيش في هذا الكون من أفكاركم التي تُرجئ كل شيءٍ ليوم الحساب!

د. حسين ربيع أمام ميدان رَسِل في لندن عام ١٩٦٦م.

– ولكنك تستعينُ بالرموز في صَلاتِك، وتستخدم طقوس البخور والصور!

– هذه ليست رموزًا، بل هي من العوامل التي أستعين بها في التركيز!

– ورياضة اليوجا؟

– هذه ليست رياضةً بالمعنى المفهوم، بل هي تدريبٌ للروح على تقبُّل الجسم الذي قُدِّرَ لها أن تعيش فيه، وتدريب الجسم على تقبُّل الروح التي تسكُنه!

– أنت إذن تفصل بين مفهوم الروح ومفهوم الجسد، وهي الفلسفة الثنائية التي يُنكِرها علم النفس الحديث وتُنكِرها الفلسفة اللغوية المعاصرة!

– الفصل قائمٌ يا صديقي، مهما برعَ العلماء المزعومون في تِبيان الصِّلات وإقامة العلائق! قل لي: ألا تشعُر أحيانًا بأن في ذاتكَ نوازعَ غريبةً عنك؟ ألا تشعر أحيانًا بأنك لا تعرف تلك النفس التي يقطع العلماء بوجودها؟ بل لعلَّك أحسستَ يومًا ما بأن في داخلك ما تُسمِّيه الأديانُ بالملائكة والشياطين! إنها نوازعُ الروح التي تُخاطِبك بما لا تعرف!

– وهل يعني ذلك أن الروح جاءت من كائنٍ حي آخر؟

– قل لي وكن صريحًا معي .. ألم تشعر يومًا أن مشهدًا ما قد سبقَت لك رؤيتُه؟ ألم يُداهِمك الإحساس بأن نغْمًا ما يثير نفسكَ فجأةً دون سبب؟ ألم تنظُر يومًا إلى السماء فتدرك أن ما تراه ليس غريبًا عليك؟

– ربما سبق لي أن شاهدتُه في الطفولة!

– وعندما كنتَ طفلًا .. ألم تكن تشعر أحيانًا بأن منظرًا ما مألوفٌ لديك؟

– لقد انتهى علماء النفس من تحليل ذلك!

– لم يَنتهِ أحدٌ من شيء! كُلُّنا يحاول ترويضَ روحه حتى تقبَل الجسم وتقبَل العالم .. وقد ننجح أو نفشل .. لكننا في الحالَين لا نستطيع تغييرَ طبيعةِ الروح الخالدة .. قد تكون ذاتَ خَيرٍ فتدفعُ الجسم إلى الخير، وقد تكون ذاتَ شَرٍّ فتدفعُ الجسم إلى الشر، ونحن في صراعٍ دائم مع الخير والشر معًا!

– وذلك ما تقول به الأديان السماوية .. كُل ما هناك هو أننا ننسبُ الخير إلى دوافع عُليا يرسمُها العقل، وننسبُ الشر إلى دوافعَ سُفلى يرسمُها الشيطان! ونحن نهتدي بما أُوحي إلى الأنبياء من آيات وأُنزل عليهم من هدًى!

ولكن فيكرام لم يكن — رغم عدم تصديقه للأديان السماوية — ممن يسخرون منها أو يهزءون بما أُنزِل على غيرهم من الأمم، بل كانت البسمةُ لا تفارق شفتَيه، وكان هادئ الطبع، «طويل البال»، وكان أحيانًا يطلب مني مغادرة الغرفة؛ لأنه يريد «التأمُّل» وحده، ولم أكن أُعارِضه، بل كنتُ أحملُ كُتبي وأهبط إلى قاعة الدرس، فأقضي الوقت الذي حدَّده وحدي، ثم أصعد لأنام.

ثم جاء يومٌ من أيام ديسمبر عُدتُ فيه من الكلية مُرهَقًا، فوجدتُه يطلُب مني «إخلاء» الغرفة ساعتَين، وكان لديَّ عملٌ كثير؛ إذ كنتُ قد بدأتُ تصنيف الصور الشعرية التي كنتُ كتبتُها في بطاقاتٍ كثيرة في مصر، وكانت نهاد خطيبتي قد أرسلَتها في طردٍ كبير، وكنتُ أعيد قراءة هذه الصور على ضَوء ما قرأتُه عن الشاعر في مراجعَ لم

تكن متوافرةً في مصر، فأخذتُ أوراقي وهبطتُ إلى قاعة الدرس، وجعلتُ أعمل بجِدٍّ حتى انقضى الوقت، وكنتُ قد تناولتُ العَشاءَ في الكلية على مائدة طلاب الدراسات العليا والأساتذة، فشعرتُ بأنني لا بد أن آوي للفِراش.

وعندما طرقتُ باب غرفتنا، فتح لي فيكرام، وكان يرتدي ملابس الخروج مع أن الساعة قد تجاوزَت العاشرة، ودخلتُ فإذا بحسناءَ إنجليزية الملامح واللهجة تجلس على سريري وفي يدها قدحٌ حدَستُ أن فيه خمرًا، فقدَّمني إليها وعرَّفني بها، ثم قال إننا نرجوك الانتظار نصف ساعة أخرى فنحن على وشك الانتهاء من الحديث الشائق ذي الشجون! وانعقَد لساني من المفاجأة، ولم أشأ أن أعترض، فوضعتُ الكتب على المكتب، وخرَجْت.

محمد عناني يكتب على الآلة الكاتبة في حجرته عام ١٩٦٦م.

وفي قاعة الاستقبال التي كانت ما تزال تحمل ملامح الفندق القديم، جلستُ شارد النظرات لا أدري ما أصنع، هل كان ذلك دأبه في كل مرة طلَب مني مغادرة الغرفة؟ وقرَّرتُ الانتقال إلى غرفةٍ مستقلَّة single room مهما كلَّفني ذلك من مال؛ فنحن نُطلِق في مصر لفظًا غير كريم وغير مُشرِّف على من يحتمل ما احتمَلْت، ولم أقل شيئًا لأصدقائي العرب الذين أدهشَهم وجودي في ذلك الوقت المتأخر في قاعة الاستقبال، وشُغِلتُ بالحديث مع بعض الزملاء السودانيين ممن يدرسون تخصُّصاتٍ مختلفةً في جامعة لندن، وكان

عددٌ آخر من دارسي الأرصاد الجوية يجلسون قريبًا؛ ثلاثةٌ منهم من سوريا والرابع ليبي، وسرعان ما اشتَعل النقاش وحَمِي وطيسُ الجدل، فنسيتُ ما أنا فيه، ولم أُفِق إلا حين رأيتُ الحسناءَ تُغادِر البيت.

وذهبتُ في الصباح إلى الإدارة، وطلبت الانتقال إلى غرفةٍ مستقلَّة، فنظرَت لي السكرتيرة وقالت لي ما يلي بالحرف الواحد:

– It didn't work out? No, I didn't think it would!

أي «لم تنجح إقامتكما معًا؟ لا، لم أكن أظن أنها ستنجح!».

وعجبتُ من ردِّها! إذا كانت لا تتوقَّع لها النجاح فلماذا حاولَت إنجاحَها؟ يبدو أنها كانت تأمُل (على استحالة الأمل؛ أي Hoping against Hope) أن نتفق بسبب دراستنا المشتركة للأدب الإنجليزي، ثم أردفَت قائلةً إن الغرف المُستقلَّة مشغولة، وبقاء غرفةٍ مشتركة دون «شريك» من قبيل «وجع الدماغ» (is a headache) ولكنَّني ألححتُ، فوعدَت خيرًا، وفي اليوم التالي اقترحَت عليَّ الانتقال للسُّكنى مع أنور عبد العظيم (الأستاذ حاليًّا في كلية العلوم بجامعة القاهرة) حتى يتسنَّى لها تدبيرُ غرفةٍ مستقلَّة لي.

وسرعان ما أصبحَت غرفة أنور عبد العظيم ملتقًى للمصريين وللعرب أحيانًا، وأصبح من روَّادها صديقي محمد مصطفى رضوان، طالب الهندسة المتخصِّص في التصوير الجوي، وكان يقضي النهار كُلَّه في المختبر الهندسي بجامعة لندن، وكان بارعًا في الرياضيات وكان أستاذه معجبًا به، وكان يقيم في غرفةٍ مشتركة مع دارسٍ آخر للرياضيات اسمه ريتشارد لندن، وكان هذا الأخير مصداقَ قول ألبرت أينشتاين إن بعض الناس يفكِّرون «بالأرقام»؛ أي لا يستخدمون الصور ولا الألفاظ، وكنتُ قد قرأتُ كتابًا عنوانه «العملية الإبداعية» The Creative Process وردَت فيه أقوال الكثيرين في هذا الموضوع، ومنها أقوال عالم الرياضيات الشهير مع تحليلٍ علمي لها، ولذلك لم أدهَش للصمت الدائم الذي كان يعيش ريتشارد لندن فيه! ولا أذكُر أنني سمعتُه يومًا يقول عبارةً يزيد طولُها عن ثلاث كلمات.

وعندما انتصف شهر ديسمبر (١٩٦٥م) حل شهر رمضان المبارك، وبدأنا الصيام، وما كان أيسَره في لندن! فنحن نتناول السحور في الخامسة صباحًا (الفجر يُؤذَّن له في السادسة) ثم نصلي الفجر ونتجه إلى كلياتنا في السابعة، ونعود في الثالثة، حيث نقوم بإعداد طعام الإفطار معًا، ونُفطِر في الرابعة تقريبًا! كان قِصَر النهار فريدًا، وبرودة الجو تمنع العطش (أو الإحساس به) وكانت الصحبة رائعة، خصوصًا ونحن نُفطِر

جميعًا معًا، وكانت تتناول الطعام معنا طالبةٌ مسيحية اسمها نادية (لحق بها زوجُها جورج بعد فترة) وكانت صائمة؛ ولذلك كنا نصنع نوعَين من الطعمية (الفلافل)؛ نوعًا يُضافُ إليه البيض، ونوعًا لا يتضمَّن البيض وهو مخصَّص للصائمين المسيحيين، وقد أُطلق عليه فيما بعد اسم «طعمية نادية»! وسمعتُ أحد الأمريكيين يتساءل عن ذلك اللون الفريد من الطعام بعد أن ذاقَه فراقَ له وتساءل دهشًا "Is it meat?" (أي هل هذا لحم؟) وغمزتُ لأصدقائي حتى لا يُفصِحوا عن سر الوجبة الشهية، وشرحتُ له أنها تأتي على صورة مسحوقٍ من مصنع سان جورج بالإسكندرية، ثم نُضيف إليها الماء ونُعيدُها سيرتَها الأولى، وسرعان ما انتَشر الخبر في بيت الطلاب، وقالت لي السكرتيرة:

– Must you have a party everyday?

وشرحتُ لها أن تلك «حفلاتُ» إفطارٍ رمضانية، تنتهي بحلول العيد، وكان من العسير عليها أن تُدرِك معنى «الصحبة»، وهو المعنى الأصلي لكلمة "party" وإن كانت قد اقترنَت في الأذهان بالرقص والموسيقى والشراب! وعندما حل عيدُ الفطر شَهِد بيت الطلاب ما يشبه العرس، فاجتمع جميع العرب، ورقص السوريون «الدبكة» وغنَّى السودانيون أغاني ذات سُلَّمٍ موسيقيٍّ خماسي، واجتمع الطلاب من شتى الجنسيات لتأمُّل هؤلاء العرب الذين اختلفَت ألوانهم وجمعَهم تُراثٌ واحد، ولغةٌ واحدة، بل إن نادية أعدَّت الفتَّة الشهيرة ليلة السادس من يناير (ليلة إفطارها) وحملَت طبقًا منها إلى السكرتيرة، مُزانةً بقِطَع اللحم (الهُبَر) فهالها حجم الطبق، وأصَرَّت على أن تحملَه إلى المنزل حتى يفرحَ به زوجُها وأطفالها!

وقبل أن يحلَّ العيد، جاءَني صوتٌ مألوف عَبْر التليفون، يطلُب مني الحضور. كان ذلك صوتَ فادية سراج الدين، الطالبة في قسم اللغة الإنجليزية، وابنة المرحوم أنيس سراج الدين الذي كان رئيسًا لبنك القاهرة، وكانت تُعالَج في أحد مستشفيات لندن من شلَل الأطفال، فخرجتُ من الكلية وزرتُها ثم انصرفتُ مسرعًا لكي أدرك الإفطارَ مع الأصدقاء، وبعد ذلك اتصل بي والدُها وطلب مني أن أُعينَها على متابعة الدروس حتى لا يضيعَ عليها العامُ الدراسي، فزُرتُها وكانت قد انتقلَت إلى فندقٍ فاخرٍ قريبٍ من بيت الطلاب، وتردَّدتُ عليها حتى اطمأنَّ قلبي إلى أنها قرأَت ما هو مطلوب، فودَّعتُها، وعادت إلى مصر وانقطَعَت عني أخبارُها عشرين عامًا، حتى رأيتُ النسخةَ المكتوبة بخط يدها من كتابٍ يُطبَع في الهيئة المصرية العامة للكتاب في أواخر الثمانينيات وعليها توقيعٌ من سمير سرحان يقول فيه: «حافظوا على هذه النسخة فهي الوحيدة بخط المؤلِّفة رحمها الله.»

٢

كنتُ أعيش في عالَمَين مختلفَين؛ فأنا بالنهار في المكتبة، أقرأ الإنجليزية من الصباح إلى المساء، وأُحادِث الإنجليزي بالإنجليزية طبعًا، وأتناول العشاء مع الأساتذة على مائدةٍ خاصة، نتحادث فيها أكثر مما نأكل، وقد بدأتُ ألتقط التعبيرات الجديدة على مِسمَعي وأُكرِّرها، وأحاكي لهجة الأساتذة، فإذا كتبتُ تعثرتُ؛ لأنني لم أكن أعرفُ كيف أُفرِّق بين العبارات العامية والعبارات الفصحى، وأحيانًا ما كنتُ أمزج هذه بتلك فيدلُّني الأستاذ المشرف على الصواب، وكنت باختصار أعيش عالَمًا غريبًا بكل معنى الكلمة.

أما العالَم الذي كنتُ أعود إليه في المساء فقد جعلَته الغربة وطنًا؛ فالطلاب في البيت الذي أُقيم فيه أغراب، لكن رباط الغربة يشُد بعضهم إلى بعض، وكنتُ أحيانًا أخرج مع أحدهم، خصوصًا جلال الإدلبي (السوري) فنذهبُ إلى السينما أو نتنزَّه في شوارع منطقة بادنجتون Paddington التي تتميَّز بأحيائها الفقيرة، وكان بعضها قد دمَّرَته الحرب ولم تمتدَّ إليه يدُ التعمير بعدُ، أو في منطقة «لانكاستر جيت» Lancaster Gate المجاورة لنا ذات المنازل التقليدية التي صوَّرها جورج أورويل في رواياته، والتي بدأَت بعضُ المنازل الجديدة تظهر فيها، وبعضُ ملامح العمارة الحديثة فيما بعدُ.

وبدأت أشعر بالصراع بين العربية الكامنة في أعماقي والتي كُتبَ عليها أن تظل حبيسةَ الزمان، وبين الإنجليزية التي أنهَلُ منها فلا أشبع! لم يكن هَمِّي الانتهاء بسرعة من الرسالة، بل كنتُ أعيش في العالمين معًا، خصوصًا بعد أن عرفتُ طريق الإذاعة، وكتبتُ سلسلةَ مقالاتٍ عن «المغنِّيات العربيات»، جئتُ بالمعلومات عنهن من كتاب الأغاني للأصفهاني الموجود في كلية الدراسات الشرقية بلندن، وخصوصًا بعد أن التقيتُ ببعض الزملاء من المصريين الذين رحَّبوا بوجودي بينهم، ويَسَّروا لي سُبل الكتابة والترجمة. وكان أهمهم المرحوم إدجار فرج الذي كان شريكًا للمُترجِم دنيس جونسون دافيز في مكتبٍ للترجمة، يتردَّد عليه المصريون جميعًا؛ فهو قريبٌ من المكتب الثقافي، وكانت لهما قصةٌ ستأتي في حينها.

كان إدجار صعيديًّا قُحًّا، يتحلَّى بالشهامة والمروءة، وكان يعرف من يعاني من ضائقةٍ مالية فيرسل إليه نصوصًا يترجمها ولا يبخل عليه بالمال، بل كان يعطيه أجرًا أكبر من القَدْر المرصود للترجمة، متظاهرًا بأنه يُحاسِبه بـ «المليم» حتى لا يشعُر المصري بأنه يتلقَّى مساعدةً من أي نوع. وكان من أهم المتعاملين مع المكتب عبد اللطيف الجمَّال، الذي كان قد حصل على درجة الماجستير من جامعة القاهرة، وانتهى من دبلوم

د. مسعد حجازي في بيت الطلاب ١٩٦٦م.

الدراسات العليا بجامعة ليدز Leeds وسجَّل موضوع الدكتوراه عن النظرية النقدية عند أ. أ. ريتشاردز I. A. Richards وكان قارئًا نهِمًا، ولم يتخلَّص من عاداته الريفية (فهو من إحدى قرى المنوفية) فهو يميل إلى الصراحة والصدق، وهما من الفضائل التي يحتفل بها الإنجليز كما سبق أن قُلْت، ولم يكن في تلك الأيام يفكِّر إلا في تعلُّم الألمانية، وبعد أن قضينا يومًا من أيام السبت مع عبد الرشيد الصادق المحمودي الذي كان يدرُس الفلسفة، عرَّفَني بإدجار فرج، ثم لم يلبَث الجمَّال أن رحل إلى ألمانيا.

كان شتاء ذلك العام غير قارس البرد، وكنا نقضي معظم أوقاتنا في المكتبة التي تتميز بدفئها المعقول، وكانت حياتي في الكلية منتظمةً إلى حدٍّ لا يمكن تكراره في أي مكانٍ آخر، وكانت حاجاتي محدودةً فكل ما أريده من كُتبٍ موجود، وكنتُ قد أقلعتُ عن التدخين واشتريتُ لنفسي غَلْيونًا ألهو به في أوقات الفراغ في المنزل، ولكن الحاجة إلى المال كانت ما فَتئَت تُعاوِدني، وكانت عيناني تتطلَّعان إلى الكتب الجديدة فلا أستطيع شراءها، وإلى الملابس الفاخرة دون أن أشعُر بالحاجة إليها، ولكنني كنتُ قد بدأتُ عادةً لم أتخَلَّ عنها طُول عمري وهي الذهاب إلى المسرح، ولَمَّا كانت تذاكر المسرح غاليةً نسبيًّا فإنني كنتُ ألجأ إلى الحجز مقدمًا لشهورٍ طويلة، وقد ساعدني المخرج أحمد زكي الذي كان يدرُس الإخراج المسرحي في لندن في الالتحاق بجمعية المسرح الإنجليزي

مقابل اشتراكٍ سنويٍّ زهيد، مما أتاح لي حضور بروفات (تجارِب) المسرحيات الجديدة في مسرح رويال كورت Royal Court، وفي منطقة تشلسي Chelsea الفاخرة، ومشاهدة العروض أيضًا مجَّانًا، كما أرشدَتني هدى حبيشة، أستاذتي القديمة في جامعة القاهرة، والتي كانت تُعِد الدكتوراه في الشعر الميتافيزيقي الإنجليزي، إلى طريقةٍ أستطيع بها أن أحجز تذاكر لموسمٍ مسرحيٍّ كامل في مسرح أولديتش Aldwych حيث تقدِّم فرقة شيكسبير الملكية عُروضها؛ إذ كنتُ أذهب في الصباح الباكر غداة الإعلان عن فتح باب الحجز فأشتري تذاكر للحفلات النهارية (من ٢:٣٠ ظهرًا إلى الخامسة يومَي الأربعاء والسبت) لجميع المسرحيات التي سوف تقدِّمها الفرقة على مدى الموسم كله (ثلاثة أشهر) في أماكنَ جانبيةٍ في المسرح حيث أستطيع أن أسمع الحوار بوضوحٍ وإن كانت زاويةُ الرؤية مُرهِقة، كما كنتُ أشتري تذاكر لمشاهدة عروض المسرح القومي واقفًا (بأربعة شلنات ودون حجز) فكنتُ أذهب قبل العرض بساعة أو بعض ساعة فأقف في الطابور وأشتري التذكرة وأشاهد العرض واقفًا ثم أجلس في الاستراحة، مما أتاح لي مشاهدة لورانس أوليفييه العظيم في مسرحية عطيل لشيكسبير وغيرها، وكان من نتيجة هذا التدبير والميل إلى التقشُّف أن أصبحتُ شديد الوعي بقيمة النقود والتمييز بين الضروريات والكماليات، وتعلَّمتُ من الطلاب حيلة قراءة الصحف والمجلات دون أن أشتريَها؛ إما في غرفة الأساتذة بالكلية أو في أماكن بيع الصحف بالمكتبات، فكان كينيث جوردون، صديقي الإنجليزي، يُشير عليَّ بالمكتبات التي لا يكترثُ أصحابُها بمن يُغافِلهم ويقرأ الصحف، كما أرشدَني إلى الأماكن التي يترك الإنجليزُ الصحفَ اليومية فيها بعد قراءتها، وكان كثيرًا ما يتجوَّل وحده ليكتشف المطاعم الرخيصة والمكتباتِ التي تبيعُ الكتب القديمة، فكان خير عونٍ للفقراء، وسرعان ما قال المصريون إنَّ كِنْ (Ken وهو اسمه المختصر) «واد جن»! (أو «كِنْ مصوَّر»!).

كان دخلي من الإذاعة محدودًا، وكتابة الأحاديث مُرهِقة، وعملي في الرسالة يستغرق معظم وقتي ولا يترك لي الوقتَ الكافي لزيادة الدخل، وكانت معظم مَسرَّاتي في الحقيقة ذات تكاليفَ محدودة؛ فالسير في الطريق الذي يتوسَّط متنزه هايد بارك لا يكلِّف شيئًا، وكانت الحديقة قريبةً من منزل الطلاب، ومشاهدةُ الطيور في البُحيرة الساكنة ومحاولةُ معرفة أنواعها، ومشاهدةُ الأزهار الغريبة أو الاستماع إلى المذياع؛ كل هذا من المتع التي اكتسبتُها، وكان على رأسها جميعًا فنُّ المحادثة!

وقد اكتشفتُ جمال هذا الفن على مائدة الغَداء في الكلية بعد أن عرَّفَني عادل مشرفة بزملائه الذين أصبحوا زملاء لي، ومن بينهم أمريكيةٌ كانت تدرُس علم الاجتماع اسمها سوزان، وتشكو دائمًا من عدم توافُر الأفكار اللازمة للرسالة، وشابٌّ يوناني اسمه بابادوبولوس، وكان يدرُس الرياضيات، وأخرى تدرُس الفيزياء واسمها كريستين، وكانت إنجليزيةً محضة، وكان يرتاد المائدةَ غيرُهم من طلاب الدراسات العليا، فإذا دار الحديث الذي عادةً ما يبدؤه الإنجليز بذكر أحوال الطقس، برزَت اتجاهاتٌ تعلَّمتُ رصْدَها في تفكير كلٍّ منهم، وكنتُ أذكُر في هذا الصدد قول الطيب صالح إن الذكاء يختلف عن سرعة التفكير (mental agility) أو ما يُوحِي بسرعة التفكير واللَّمَاحية (أو الألمعية) في تراثنا الشرقي (wit)؛ فالشرقي يرحِّب بسرعة التفكير والردود الحاضرة وإن اقتصرَت على ردود الأفعال الساذجة، أما الغربي فلا يكترثُ لها، بل يهمُّه أن يكون المتحدِّث على صواب بغَض النظر عن إطالة التفكير أو الإبطاء في الرد؛ ولذلك فلدى الإنجليز ما يُسمَّى بالحديث العابر أو الاجتماعي (small talk) الذي يُدرِجه الدكتور بيرن Berne في باب «الطقوس الاجتماعية» (rituals) مثل الحديث عن الجو أو عن الصحة والمواصلات وكل ما لا يتوقَّع معه المتحدِّث ردًّا حقيقيًّا من صاحبه، وقد يُدرج فيه ما يُسمِّيه بيرن بحديث تزجية الوقت (pastime) أو حتى الأحاديث ذات الطابع الآلي التي لا تنمُّ عن تفكيرٍ من أي نوع (mechanical) وهم يفرقون بين ذلك كله وبين المناقشة الحقيقية، وهي عادةً ما تتسم بالحذَر والتردُّد بسبب ضرورة تقليب الأمر على وجوهه، وكان بعضُ علماءِ اللغة آنذاك قد أصدَروا كتبًا يُحلِّلون فيها مسالكَ الحديثِ ومساربه، لا من مُنطلَق علم النفس كما فعل بيرن في كتابه «الألعاب التي يلعبها الناس» Games People Play الذي قرأتُه آنذاك (نوفمبر ١٩٦٥م) بل من مُنطلق بناء اللغة في كل موقف، مما أدى إلى استحداث مفاهيمَ جديدة تتعلق بما يُسمَّى بفعل الكلام Speech acts وما تلا ذلك من توسُّع في علم الدلالة؛ فدلالة الألفاظ لا تكمُن فيها وحدها، كما هو معروف، بل تكمن في دلالتها في العبارة والموقف؛ أي في دلالة تداوُلها، مما أدَّى آخر الأمر إلى نشوء فرع من علوم اللغة يبحث التداول في المواقف المختلفة، واصطُلح على تسميته «التداولية» pragmatics. وبدا لي الأمر شائقًا عندما بدأتُ تحليل مناقشاتنا حول مائدة الغداء، ثم حول مائدة العشاء.

اكتشفتُ أن نمَط المتحدث الإنجليزي التقليدي the typical English speaker يميل دائمًا إلى الحذَر حين ينتقل من الحديث العابر إلى موضوعٍ جاد، وقد يعود ذلك

إلى أسلوب التنشئة أو التربية في المنزل والمدرسة؛ فالأهلُ والمدرِّسون يشجِّعون التلميذ على التفكير أولًا قبل الإجابة على أي سؤال، وهم لا يتوقَّعون من الطفل أن يكون حاضر البديهة، بل ولا يعتبرون ذلك من سمات الذكاء، ووراء ذلك كله قرونٌ طويلة من عصر العلم، وتقاليد الإصرار على أن يكون للطالب وجهةُ نظرٍ مستقلة، وأن يُمارِس حرية التفكير ثم يُحاسَب على هذه الحرية وما فعل بها؛ ولذلك فما أسرعَ ما يعترف المخطئ بخطئه ويُعرِب عن أسفه! وهذا مما يعتبره المربُّون مزيةً كبرى، والأهل والمعلِّمون لا يحاسبون المخطئ على الخطأ بل على مكابرته إذا كابر؛ فالجهل ليس عيبًا، بل العيب كل العيب أن يدَّعي الدارس أنه يعرف ما لا يعرف؛ أي أن «يتعالَم». ويتجلى ذلك كلُّه في استعمال اللغة الإنجليزية في الحديث والكتابة، وعندما أدركتُ هذه الحقائق فهمتُ غضَب الأستاذ المُشرِف عليَّ حين وجدَني أستخدم ألفاظًا قاطعة، وأطلَعَني على عَرضٍ كان يكتُبه لكتابٍ قرأَه، وكيف كان يتحاشى فيه القطع بأي شيء؛ فالعلوم الإنسانية، كما يقول، تتناول تفسير الحقائق أكثر مما تتناول الحقائق باعتبارها حقائق؛ ومن ثَم شَرعتُ في محاكاة هذا الأسلوب، فلم تلبَث اللغة التي أتكلَّمها وأكتُبها أن اكتسبَت طابعًا أقربَ إلى طابع أهلها؛ أي أهل الإنجليزية!

د. عادل مشرفة ود. نعيم اليافي في كلية بدفورد عام ١٩٦٦م.

كان الفن الحديث يرتبط بدراستي، والحِيَل اللغوية تتردَّد في حوار الناس والممثِّلين على المسرح، فإذا أراد شخصٌ أن يعرب عن اعتراضه لم يقل «إني أعترض» بل قال "I don't know …" بدايةً، ومعناها «لستُ واثقًا من صحة ما تقول»، ثم يُردِفها برأيه الذي قد يمثِّل نقيضَ ما قيل، وإذا أراد التعبيرَ حتى عما نعتبرُه من الأحكام غير الخلافية، أدرَج في العبارة ألفاظًا تسمح بقَدْرٍ ما من الاختلاف، وذلك كما أقول حتى لو كان الأمر لا خلاف عليه! وانظُر الحوار التالي الذي يُعتبَر غريبًا عن العربية:

– It feels warm enough here!

– The central heating must be working well!

– It's the new librarian, you know! She says she's a greenhouse plant and seems to relish the sweltering heat!

– Would those foreigners, coming from the tropics?

وانظر إلى ترجمته الحرفية:

– أشعر بأن الدفء هنا يكفي!

– لا بد أن جهاز التدفئة المركزية يعمل بكفاءة!

– والسبَب هو أمينة المكتبة! فهي تقول إنها مثل النباتات التي تنمو في الصوبة الزراعية، ويبدو أنها تستمتع بهذه الحرارة البالغة!

– وهل يستمتع بها هؤلاء الأجانب القادمون من المناطق الحارة؟

الحديث — كما ترى — من نوع «تزجية الوقت» في الظاهر، ولكنه يتضمن الاعتراض على زيادة التدفئة إلى حدٍّ أكبر مما ينبغي، ولكن الصياغة تُحيل الأفكار إلى ملاحظاتٍ تقبل النقض، خصوصًا العبارات التي تتضمَّن المقارنة أو ما يُسمَّى بالتعبير النسبي (Comparative)، مثل كلمة enough؛ فماذا تعني الكناية هنا؟ يكفي ماذا أو لماذا؟ إنها تعبير تنفرد به اللغة الإنجليزية ويبدو في الترجمة غريبًا، وانظُر إلى تعبير must be (لا بد أنه) الذي لا يفيد اليقين، وكذلك seems (يبدو) والسؤال الختامي! بل إن العبارة التي تنسبُ لأمينة المكتبة «التسبُّب» في رفع درجة الحرارة غير واضحة! فما معنى السطر الثالث حقًّا؟ هل يعني ما جاء في الترجمة من أن أمينة المكتبة هي السبب؟ لا شك أن ذلك هو المعنى المُوحَى به، ولكن التعبير نفسه لا يقطع بذلك؛ فقد يكون المعنى أنها تُوافِق على رفع درجة الحرارة، أو لا تعمل على خفضها، أو أنها ذات صلةٍ ما بالحرارة الشديدة وحسب! وانظُر إلى الحذَر في الإشارة إلى ما تُبديه أمينة المكتبة

من استمتاعٍ بالحرارة؛ إذ يبدأ التعبير بعبارة «إنها تقول ...» أي «والعهدة على الراوي!» مما يُبرِّئ المتحدِّث من تهمة التجنِّي عليها! تُرى لو قدر لاثنين من العرب أن يُعبِّرا عن الأفكار نفسها — أي عن الحقائق facts الواردة هنا — فهل يقولان ذلك؟ أفلا يقولان «ما أشد الحرارة هنا! إلخ»؟

كنتُ أتعلَّم الإنجليزية لا باعتبارها ألفاظًا بل باعتبارها أنماطَ تفكير، وسرعان ما وجدتُ أن عالم الجامعة والكتب ومناقشات المائدة table talk أصبحَت تتناقَض مع عالَم العربية التي أتحدَّثها أحيانًا في المساء مع الأصدقاء، وكانت الهوة تزداد حتى أصبحتُ أشعر أنني غير قادرٍ على كتابة الأحاديث الإذاعية، وبازدياد ابتعادي عن الإذاعة ازداد نابُ الفقر حدَّة، وغدوتُ أستعيض عن متعة الإنفاق بمتعة الحديث، خصوصًا حول مائدة العشاء مع الأساتذة الإنجليز، وقلَّ معدَّل الخطابات التي أُرسلها بالعربية إلى مصر وإلى سمير سرحان في أمريكا! وبدأتُ أكتُب رسائلي بالإنجليزية إلى نهاد خطيبتي وحدَها!

٣

وكان من المُتَع الأخرى متعةُ الاستماع إلى مغامرات المصريين مع الإنجليزيات واصطدام مَيل المصري إلى الكذب مع مَيل الإنجليزية إلى الصراحة، وكنتُ أُحاوِل في متابعة أخبار الأصدقاء، وبعضُهم ممن تربطني به علاقةٌ مستمرة، أن أعرف دوافعَهم الحقيقية للكذب، واكتشفتُ على مَرِّ السنين أن الدافع الرئيسي هو «الافتقار إلى الأمان»، وهي ترجمةٌ شائعة ورديئة لكلمة insecurity التي تعني في الواقع ما نعنيه في حياتنا المعاصرة بالقلَق وعدم الاطمئنان، وتتضمَّن بعض عناصر الخوف وعدم الثقة بالنفس. كان بعض أصدقائي قد ارتبطوا بفتياتٍ إنجليزياتٍ أو أمريكيات، واتفقوا إما على البقاء في إنجلترا أو على الهجرة إلى أمريكا أو كندا، ولم يكن هؤلاء بحاجةٍ إلى الكذب، بل كانوا يختفون فلا يظهرون في دوائر الطلاب العرب، وتقتصر صلتُهم بالمكتب الثقافي على الخطابات الرسمية المتبادَلة، ولكن البعض الآخر لم يكن واثقًا مما سيفعلُه في المستقبل، وكان لذلك «يحمي» نفسه بستارٍ كثيف من الأكاذيب، وكان بعضهم قد اعتاد الكذب على الفتيات في مصر، وتمكَّنَت منه العادة التي كان يراها لازمة، ثم لم يستطع أن يُقلِع عنها حتى بعد زوال ذلك اللزوم، وكانت فئةٌ ثالثة تكذب لا لسبب؛ فهو كذبٌ يكاد يكون مفروضًا على الفرد من باطنه، وهو ما يُطلَق على صاحبه تعبير compulsive liar، وأخيرًا كانت هناك فئة تجد في الكذب متعةً إبداعية؛ فألوان الكذب هنا منوَّعة تتفاوَت بتفاوُت المواقف،

ويُعمِل الكاذب فيها خيالَه فيُبحِر في المحيطات ويجوب الفيافي، ويؤلِّف القصص وينسِج الحكايات، وإن كانت الحادثة التالية تقبل التصنيف في جميع الفئات المذكورة!

قال لي صديقي، وسوف أُخفي اسمه الحقيقي وأُسمِّيه «عبده» إنه تعرَّف بإحدى زميلاته في الكلية، وكان يعمل معها كل يوم في المختبر؛ إذ كانا متخصِّصَين في الكيمياء العضوية organic chemistry وبعد عام تقريبًا من الزمالة قال لها أثناء ساعة الغداء إنه يحبها! وفُوجئ بأنها تُنكِر هذا القول وتقول له ببسمةٍ صافية: «لا أعتقد ذلك! لقد اعتدتَ مصاحبتي في العمل فقط!» ولم يجد ما يرُد به عليها فلغتُه الإنجليزية محدودة، وهو لا يملكُ إلا بعض العبارات التي يحفظها منذ الصبا، أو مما سَمِعه يتردَّد حوله في محيط الجامعة؛ ولذلك لم يجد بُدًّا من تَكرارِ ما قاله، مؤكِّدًا أنه يحبُّها من زمنٍ بعيد! وهالَه أن تنصرف الفتاة في عجلة دون تعقيب، بل وأن تغيب عن الكلية عدة أيام، مما جعله يلجأ إليَّ طالبًا النصح!

ولم تكُن لديَّ نصائحُ حاضرة؛ فأنا لا أعرف الفتاة، بل ولا أعرف شيئًا عن الفتيات، أو الإنجليزيات بصفةٍ خاصة، ولم أكن أمضيتُ في إنجلترا إلا شهورًا معدودة، ولكنني حاولتُ أن أعرف منه بعضَ التفاصيل، فهوَّنتُ عليه الأمر وطلبتُ منه أن يتصل بها تليفونيًّا ليرى إن كانت غابت بسبب المرض. وعندما قابَلني بعد نحو أسبوعٍ سمعتُ منه ما كان يمكن أن أتوقَّعه لو أنني أوليتُ الأمر عنايتي الصادقة ولو أنني أحطتُ بالمعلومات الكافية؛ إذ جاءت الفتاة إليه بعد المحادثة التليفونية، وقد ارتدَت أجمل أثوابها، وبدَت مشرقةً وضَّاءة، ووجهُها — كما يقول — ينطقُ بالسعادة الغامرة، واستأنفَت العمل في المُختَبَر دون أن تشير إلى ما قاله أو ما قالَته، وعندما حان موعد فسحة القهوة عَرضَ عليها الذهاب إلى الكافيتريا (ويُسمُّونها في جامعة لندن buttery) لكنها رفضَت وقالت إنها ستستمر في العمل، ولم يجد بُدًّا من الاستمرار هو الآخر، حتى حان موعد الغداء فبادأَته هي بالدعوة، وعندما جلسا لتناوُل الطعام قال لها: «كنتُ قلقًا عليك.» وكان ردُّها مقتضَبًا (شكرًا)؛ ومن ثَم انطلَق يبثُّها لواعجَ غرامِه مؤكِّدًا أن حبه قديم. وهنا قالت له عبارةً لم يفهمها وإن حفظها وهي:

“But you didn’t do much about it, did you?”

أي ولكنَّك لم تُفصِح عنه طيلة هذه المدة، واعتذَر بأنه كان يخافُ رفضَها، فقالت: «هل تظُنون أن الإنجليز يتَّسمون بالبرود؟» وفُوجئ وانعقَد لسانه، بينما انطلقَت هي تتحدَّث، فأخبرَتْه أنه ظل يشغَل فكرها شهورًا، وكانت تحلُم باللحظة التي يميل فيها

قلبُه إليها! وكاد يطير من الفرح فعرض عليها الخروج فورًا، ولكنها قالت إن العمل في المختبَر متأخر، وإن صدمة اعترافه بحبها قد أربكَتها عدة أيام، وهي تُحاول الانتهاء من العمل في موعده رغم التأخُّر، ولكنها ضربَت له موعدًا في عطلة نهاية الأسبوع.

كان «عبده» منفعلًا وهو يحكي لي ما حدث، وكان ينظُر إلى الورقة التي دوَّن فيها كلامها خشيةَ أن ينسى شيئًا منه، وقلتُ له إن ذلك أمرٌ طبيعي وهي قصةُ حُب عادية بل عادية جدًّا، وقد تنجح وتُكلَّل بالزواج. وبدا الهمُّ على وجهه. الزواج؟ «نحن لم نذكُر شيئًا عن الزواج!» وضحكتُ وقلت له: إذن تراجَع وأنت على البَر! فردَّ قائلًا: «ولكنَّني أُحبها!» وشرحتُ له أن ذلك هو ما كانت تعنيه عندما أنكرَت أوَّل الأمر حُبه لها، فالحب Love عند الإنجليز يعني الزواج، ولم يكن هناك ما يدعو إلى استخدام تلك الكلمة ما دام لا يريد الزواج، ودُهِش «عبده» من كلامي وقال لي إنني ملمٌّ بأحواله، وإنه لن يتسنَّى له الزواج قبل الانتهاء من الدكتوراه، وربما يكون أهلُه قد رتبوا له زواجًا في مصر عند العودة، وزواجه من هذه الفتاة معناه اصطحابها إلى مصر «حيث عليها أن تجد عملًا، أو أن تقنع بمرتَّب الجامعة الذي سأتقاضاه (نحو أربعين جنيهًا في الشهر)، أو أن أعيشَ أنا هنا إلى الأبد بعيدًا عن أهلي!»

لم يكن «عبده» سعيدًا سعادةً صافية بالحب الوليد، بل كان يرى فيه مَصدَر همٍّ أو عبئًا لم يعتَد حملَه ولا يعرف كيف يحملُه، وتخفيفًا عنه حاولتُ الدخول من بابٍ آخر، فقلتُ له «ربما لم تكن تُحبها حقًّا.» أو «ربما تكون قد تسرَّعتَ أنت فأسأتَ فهم عاطفتك.» وألا يمكن أن تكون هي أيضًا قد تسرَّعَت بإعلان «استجابتها» لك؟ فبدَت عليه الحَيرة، وانصرف على أن نلتقي بعد مقابلته لها في عطلة نهاية الأسبوع.

لم تشغَلْني كثيرًا قصة «عبده» أثناء الأسبوع التالي؛ إذ أعاد المُشرِف لي الفصل الذي كنتُ كتبتُه من الرسالة، وذيَّله بعدة ملاحظاتٍ كان أهمها رضاه عن المنهج، ولكنه أبدى بعض التحفُّظات على بعض الألفاظ التي وصفَها بأنها أمريكية واقترح إبدالها، فعكفتُ على ذلك، وأعدتُ طباعة الفصل على الآلة الكاتبة التي اشتريتُها (مستعملة) ثم شرعتُ في كتابة الفصل التالي، وكان الشتاء ما يزال يقبضُ على الطبيعة بيدٍ من حديد، فإذا ظهَرَت الشمس أسرعتُ إلى الحديقة أتأمَّل الطيور وهي تسير على ماء البحيرة المتجمِّد، وبعض الأشجار التي لم تنفُض أوراقها وقد كسا الثلج أطرافها، وكنت سعيدًا؛ لأن مرض الحساسية الذي كان يصيبني بالتهابٍ في الجيوب الأنفية قد رحل، وأصبحتُ قادرًا على التنفُّس من جديد!

وفوجئتُ يوم الاثنين بشيكٍ يصلني من الإذاعة، مكافأة إضافية عن بيع سلسلة أحاديث المغنِّيات العربيات إلى محطةٍ عربية في الخليج، وكان المبلغ كبيرًا (٤٥ جنيهًا) فوضعتُه في البنك، وقرَّرتُ تحقيقَ حُلمي القديم بشراء جهازِ تسجيلٍ حتى أسمعَ ما أريد من الموسيقى، وكان من بين نزلاء بيت الطلاب طالبٌ سوري لا أذكر إلا أن اسمه كان محمدًا، قرَّر الهجرة إلى أقاربه في البرازيل، وعندما حصَل على تأشيرة الزيارة عرض ما لديه من «كراكيب» (ويُسمِّيها الأغراض) للبيع، وكان من بينها جهازُ تسجيلٍ متوسِّط الحجم، باعه لي بخمسة وثلاثين جنيهًا (بدلًا من ٤٥ جنيهًا) ففرحتُ به وشُغِلتُ بالاستماع إلى الموسيقى الكلاسيكية، ثم أخبرني صديقي محمد مصطفى رضوان أن طالبًا سعوديًّا لديه أسطوانات عبد الوهاب القديمة، ولا يملك جراموفونًا، وأن علي النشَّار (طالب الهندسة الذي هاجر إلى أمريكا ونجح نجاحًا باهرًا؛ إذ اكتشف طريقةَ تحليةِ المياه بأسلوب الضغط الأسموزي) لديه مثل هذا الجهاز لكنه لا يُكِنُّ له (أي للجهاز) احترامًا كبيرًا، فقرَّرنا عقد أمسيةٍ عربية في غرفتي، نسمع فيها عبد الوهاب ونسجِّل أغانيه على شريط!

ولم نكد نبدأ الأمسية، ونبدأ في تحضير الأطعمة الشرقية، حتى وصل «عبده» وطلب الانفراد بي على الفور. وطلبتُ الإذن بالخروج تاركًا الغرفة للأنغام ورائحة الفلافل، وخرجتُ مع عبده إلى قاعة الاستقبال، وانتحينا ركنًا قصيًّا حتى لا يسمعنا أحد، وبدأ حديثه بعبارةٍ لن أنساها أبدًا: «شورتك مهبِّبة يا عناني!» وعجبتُ من ذلك؛ فأنا لم أُشِر عليه بشيء، وإن كنتُ اقترحتُ التراجُع، فهدَّأتُ رُوعَه وطلبتُ منه أن يحكي لي ما حدث.

قال عبده: «ذهبنا مساء السبت إلى السينما، وشاهدنا فيلم My Fair Lady وكانت تستمتع هي به بينما أُحاوِل أنا متابعة الحوار دون ترجمة على الفيلم، وبعد السينما خرجنا في البرد، فاقترحتُ أن نذهب إلى غرفتي (وكانت بجوار الجامعة) لكنها قالت إنها تفضِّل قضاء الليلة في فندق، تخيَّل! وقلت لها إن أهلها سوف يقلقون عليها ولكنها أصرَّت، وكلما أبديتُ اعتراضًا قالت لي بلهجةٍ قاطعة: «ألست تحبني؟» وأنت تعرف أن لغتي الإنجليزية ليست ممتازة، ولا أستطيع أن أتحدَّث بطلاقتك، وحاولتُ أن أَثنيَها بذكر الإيجار المرتفع للفنادق، ولكنها قالت إننا سنتقاسم جميع التكاليف، ودون أن أدري، كأنما كنتُ مخدَّرًا وجدتُني أوقِّع في كشفِ نزلاء أحد الفنادق، ودفعتُ جنيهَين كاملَين، وصَعِدنا إلى غرفةٍ بالطابق الثالث، وقضينا الليلة فيها، وكان ما كان، ولم أنَم إلا من فَرْط الإرهاق، وفي السابعة هبَطْنا إلى مطعم الفندق حيث تناوَلْنا الإفطار، وانصرَفْنا.»

وبدأتُ في التساؤل عن الأشياء المعتادة في هذه الظروف، وفهمتُ من إجاباته أنها قالت إنه ليس أوَّل رجل «تُحبه» فقد سبق لها «معرفة» شابٍّ نيجيري، وكانا على وشك الزواج لولا أن والدها رفض؛ لأن الحبيب كان كاثوليكيًّا، ووالدها متزمِّت في مسألة الدين، وهو لا يقبل إلا البروتستانت، ويفضِّل أتباع كنيسة إنجلترا (الإنجليكانية) وقالت له إن والدها أعدَّ لها منزلًا خاصًّا لأنه ثري، وهو صاحب مصنعٍ كبير في جنوب إنجلترا، وإنها سوف تعمل فيه حالما تحصُل على الدكتوراه؛ لأنه يُنتِج الأدوية وبه قسم للبحوث، وبإمكانها أن تسعى حتى يحصُل «عبده» على عملٍ فيه معها، وإنها لم تكن تريد أن تُخبره بذلك كله حتى تتأكَّد من مدى اتفاقهما الزوجي conjugal compatibility ولذلك أصرَّت على مسألة البيات في لندن بعيدًا عن أهلها (الذين يقيمون في الضواحي) ولم تُفصِح لهم بعدُ عن السبب وإن كانت سوف تفعل عندما «يوافق» عبده على ذلك!

وسألتُه عما فعَل بعد ذلك، وقد انقضى أكثر من أسبوع، فقال إنه وجد أن السبيل الوحيد للخروج من هذا المأزق هو أن يلتزم الصمت؛ فقد كانت الليلة رغم كل شيء «ليلة سعيدة» وقد وجد في جيب الجاكتة مبلغ جنيهَين مساهمةً منها في التكاليف، ثم تسرَّع في لحظة طيشٍ وهما في غرفته (إذ أصبحَت تتردَّد عليه أثناء النهار) وأخبرها أنه مسلم! وكان في الحقيقة قبطيًّا (أرثوذوكسي) والواضح أنه أدَّى بذلك إلى غيابها يومَين، وجاء الآن يسألُني ما العمل؟ وقلتُ له كان ينبغي أن تكون صريحًا معها منذ البداية، وإن الأخطاء لا تُصحَّح بارتكاب مزيد من الأخطاء، وآن الأوان أن تُعاوِد الصراحة وتثوب إلى رُشدِك وتتوب؛ فبابُ المغفرة مفتوح، واحزم أمرك، وفكِّر في مستقبلكَ في مصر وفي أهلك. وبدا عليه التردُّد، ولكنه وعد بأن يُحاوِل جاهدًا وضع حدٍّ لتلك العلاقة، وانصرف، وعُدتُ إلى حفل عبد الوهاب وهو يُوشِك على الانتهاء.

٤

فاجأَنا الربيع مثلما فاجأَنا الشتاء، كما يقول الشاعر، وتحقَّق وعد السكرتيرة، فانتقلتُ إلى غرفةٍ مستقلَّة، وأصبحتُ قادرًا على أن أخلُوَ بنفسي ساعاتٍ طويلةً في المساء، أستمع إلى الموسيقى الكلاسيكية التي أصبحَت هوايةً مفضَّلة، وأقرأ حتى الواحدة، وأنهض مع شروق الشمس فأذهب إلى الكلية وأسير في الحديقة فرحًا بالزهور والبراعم التي تتفتَّح كل يوم، أو أتمتَّع فحسبُ بهواء الصباح المُنعِش الذي يذكِّرنا بالنيل عند رشيد، حتى تفتَح المكتبة أبوابها، فأقرأ أو أكتب حتى ينتهي اليوم، ولم أعُد ألتقي بأصدقائي العرب

إلا فيما ندَر؛ إما عند العَشاء في الفندق، أو في قاعة الاستقبال حين ألقاهم مصادَفة، وكان شهر مارس برُمَّته شهر التَّجوال وتأمُّل الطبيعة، وكان يصحبُني أحيانًا بعضُ الأصدقاء ذاهبين إلى كلياتهم سيرًا على الأقدام، وكان الحديث يتطرق أحيانًا إلى أحلام المستقبل، فكان بعضُهم يحلُم بفيلَّا وسيارة، والبعضُ الآخر يحلُم بالهجرة، وفئةٌ ثالثة لا تعرف الأحلام، وكنتُ بالنسبة للجميع المرجع الذي يسألونه في اللغة الإنجليزية، ورغم تقارُبنا في العمر كانوا يعتبرونني أخًا أكبر، وكانوا لسببٍ ما يستودعونَني أسرارَهُم، ويَرونَ في قراءتي للأدب وهوايتي للفلسفة وعلم النفس مصدَر حكمةٍ يمكن أن تُعِينَ من يطلبُ العون، وهكذا وجدتُ أنني قد كُتب عليَّ وأنا بعدُ في السابعة والعشرين أن «ألعب دور» الشيخِ الحكيمِ أو الأخِ الكبيرِ العاقل!

وأفضى إليَّ بعضهم بمغامراته مع بعض العاملات في الفندق (اللائي احتفظن بوظائفهن بعد تحوُّله إلى بيت طلاب) وكان معنا طالبٌ نابهٌ من جنوب السودان، لا يعتبره الشماليون عربيًّا مع أنه يتحدَّث العربية، ولكن ملامحه كانت زنجيةً خالصة، ولونُه فاحم لامع، وكان طويلًا فارعًا لطيف المَعْشَر، عقَد صداقةً مع فتاةٍ برتغالية تعمل في الفندق، وكان كلٌّ منهما يقُص عليَّ أخباره مع صاحبه، وكانت هي أيضًا فارعةَ الطول نحيلة، ملامحها شرقية، وغيرُ جذَّابة، ولكنها كانت عاملةً مجتهدة، تُحاوِل أن تجد لنفسها ركنًا تعيش فيه في أي مكان في العالم (niche)، بعد أن ضاقت بها سُبل العيش في بلدها، وكانت تتصوَّر أن السوداني سوف يعود بها إلى جنوب السودان. أما هو فكان واضحًا في موقفه وصريحًا إلى أقصى درجة؛ فلا مكان للبرتغاليات في جنوب السودان — هذا إذا عاد هو إلى الجنوب — وعليها أن تظَل في بريطانيا.

وعلى كثرة الجنسيات في ذلك الفندق القديم، وكثرة جنسيات من التحق بالعمل به بعد تحوُّله إلى بيت للطلاب، لم تكن بين الخادمات أو العاملات زنجيةٌ واحدة! كان الجميع تقريبًا من أوروبا، ومعظمهن إما من أيرلندا أو إسبانيا ودول أوروبا الشرقية، وكان أصحاب الوظائف الإدارية من الإنجليزيات، ترأسُهُن مس ساتون Miss Sutton ذات الصوت المُجلجِل، والتي يرهبها الجميع فهي المديرة التنفيذية للبيت، وهي مسئولة عن كل صغيرة وكبيرة فيه، وأما السكرتيرة الهادئة مسز تريسي Mrs. Tracy فهي العقل المدبِّر والمدير المالي معًا، تعرف جميع النزلاء وتُحادِثهم تليفونيًّا في غرفهم، ولها في غرفتها بالطابق الأرضي نافذةٌ تطل منها على مدخل الفندق القديم فتعرف القادمين والخارجين وتكاد تُتابِع أخبارهم، ويبدو أنها أدركَت من علاقتي بالعرب أنني أقوم

بدور المُترجِم لمن لا تُسعِفه اللغة الإنجليزية؛ إذ كان بعضهم يأتي من بلدانٍ عربية لا تشترط إجادةَ اللغة الإنجليزية قبل الشروع في الدراسة، فكانت تسألُني في رفق أن أُبلغَهم الرسائل التي تريدها، وتتصل بي تليفونيًّا لمعرفة الجواب.

وذات يومٍ عُدتُ إلى غرفتي بُعيد مغرب الشمس، ولم أكَد أتخفَّف من ملابسي حتى جاءني صوتٌ في التليفون يطلب الغوث! كان صوتَ إنجليزيةٍ صميمة، أبلغَتْني الرسالة بسرعة ووضعَت السماعة فأسرعتُ إلى تريسي لأُبلغَها بنفسي حتى تطلُب الطبيب؛ فتليفونها مشغولٌ دائمًا. كان أحد نزلاء بيت الطلاب مصريًّا يدرُس بعض الوقت في كلية الفنون التطبيقية (البوليتكنيك) ويعمل طُول الوقت في مطعمٍ في وسط لندن؛ فهو طبَّاخٌ محترف، وكان يعاني من مرضٍ غريب في أُذنه، وسمعتُ أنه قريبٌ لأحد الوزراء في مصر، وأنه حصل على البعثة بالواسطة (الوساطة!) للعلاج أساسًا، وإن كان السبب المعلن هو الدراسة، ولولا الوزير ما غادَر مصر أصلًا. وكان يقيم وحده في غرفةٍ مستقلة وتتردَّد عليه إحدى موظَّفات بيت الطلاب، وهي رَبْعة القوام غليظةٌ مربَّعة، كنتُ أراها تُحادِث الدكتور سمير المنقبادي، وهو مصريٌّ يُعِد دراسات «ما بعد الدكتوراه» في القانون، ويقيم في النرويج ويُدرِّس القانون في جامعة أوسلو بعد أن تزوَّج ابنة عميد كلية الحقوق هناك. كنتُ أراها تُحادثُه محادثةَ من يعرفه حَقَّ المعرفة، وقد تحقَّق ظني فيما بعدُ، وكانت هي التي حادثَتْني ذات المساء؛ لأنها كانت تزور صاحبنا ذا الأذن المعطوبة فأُصيب بما يشبه الإغماء أو النوبة القلبية مما جعلها تستغيث بي. أبقيتُ الأمر سرًّا، بطبيعة الحال، ودفعَني حب الاستطلاع إلى معرفة القصة الكاملة وهي مما لا يُروى في مثل هذا السياق.

وعندما جاءت أمطار أبريل، تبدَّلَت عاداتُنا بعض الشيء، لكن روتين الكلية والمكتبة (أو المختبَر عند الآخرين) لم يتغيَّر، وعندما دفعتُ إيجار الغرفة المستقلَّة أحسستُ أنني لا بد أن أحصل على مَورِد رزقٍ آخر وإلا لم يعُد لديَّ ما أُنفِقُه على ما أعتبره من ضرورات حياتي (كالمسرح). وسعيتُ يومًا إلى نادي هيئة الإذاعة البريطانية حيث يجتمع العاملون في القسم العربي، وقضيتُ بعض الوقت أُحادِث الذين كانوا هناك للراحة والسمر، فعلمتُ أن عبد الرحيم الرفاعي انتقل إلى الإذاعة السويسرية، وتابعتُ أخبار بعض المسيطرين على الأقسام من العراقيين (ممدوح زكي ونعيم البصري وزوجته وأولغا جويدة ... إلخ) أو من الفلسطينيين أو المصريين على قلَّتهِم، وتبيَّن لي أن مجال العمل قد ضاق فأمعَن

د. حنين ربيع مع المؤلِّف في ميدان رَسِل لندن عام ١٩٦٦م.

في الضيق. كان صلاح عز الدين مخرجًا في قسم الدراما لكنه كان يتكلم بطريقةٍ لم أفهمها، وكان قسم الدراما يُسيطِر عليه بعض الأصدقاء والأحبَّاء الذين لم يسمحوا لأحدٍ أن يدخل بينهم، وانصرفتُ مهمومًا؛ فالحياة في غرفةٍ مستقلة ترفٌ لا يمكن الاستمرار فيه دون موردٍ آخر.

وذات ليلةٍ من ليالي مايو، وبينما أنا مهموم بأفكاري — أتأمَّل العامَ الطويل الذي انقضى في غرفةٍ غريبة، وضيقَ ذات اليد الذي أصبح لا علاج له، ومهارتي في الترجمة التي لا أستطيع الانتفاعَ بها — إذ بالتليفون يرن، وإذا بصوت الصديق العزيز عبد المنعم سليم، الكاتب المشهور، يقول لي: هل تقبل أن تُترجِم خطابات من العربية إلى الإنجليزية يومًا أو يومَين في الأسبوع؟ أقبل؟ كدتُ أطير فرحًا .. وقال اذهب غدًا إلى منير عبد النور في مبنًى اسمه Queen's House أمام مبنى كوداك بالقرب من Bush House حيث الإذاعة؛ فهو في حاجة إلى مُترجِم في قسم بحوث المستمعين لمدة أربعة أو ستة أسابيع؛ لأن الوظيفة الخالية لم يعلَن عنها بعدُ، وهم يستخدمون الأشخاص بعض الوقت للعمل بالساعة. وذهبتُ في اليوم التالي فقابلتُ منير عبد النور — المصري — الذي طلَب مني أن أذهب إلى الإدارة حيث أقابل ماري بيرتون (Mary Burton) رئيسة المُستخدَمين، وفعلتُ ذلك فقالت لي: لك أن تعمل إما يومًا كاملًا أو نصف يوم، يومَين أو ثلاثة في الأسبوع، تبعًا لحاجة العمل، واليوم الكامل بخمسة جنيهات، ونصف اليوم

بثلاثة جنيهات ونصف! وكان معنى هذا أنني أستطيع لو أردتُ أن أكسبَ نحو عشرة جنيهاتٍ في الأسبوع تكفي لدفع الإيجار بل تزيد! ووقَّعتُ العقد المؤقت وطِرتُ إلى منير عبد النور حيث عرَّفني بمصريٍّ آخر اسمه ريمون مِكَلِّفْ (Mecallef)، وهو اسمٌ شائع في مالطة، وبالسكرتيرات (سالي وماريون وكارول Sally, Marion and Carol) وقال إن لدينا أستاذًا مصريًّا في الجغرافيا اسمه عزت أبو هندية يعمل بكلية هولبورن Holborn للُّغات والاقتصاد، وهو يعمل بعض الوقت أيضًا، وسيدةٌ مصرية اسمها إفادات كيبرون (Capron) متزوجة من رجلٍ إنجليزي، وهي مؤقَّتة أيضًا، وسيدةٌ مصرية من أصل لبناني اسمها ماري روك (متزوجة من إنجليزي Rook) تتولى النسخ على الآلة الكاتبة. أما العمل فهو ترجمةُ خطابات المستمعين التي تَرِد إلى القسم العربي بالإذاعة وتتضمَّن تعليقاتٍ على البرامج الإذاعية، وتصنيفُها؛ فبعض المستمعين يطلبون الاشتراك في مجلة هنا لندن العربية، وبعضهم يُرسِل مساهماتٍ في برنامج ندوة للمستمعين، وهذه خطاباتٌ لا تُترجَم بل تُحَوَّل إلى الأقسام المختصة، ولكن بعض الخطابات تتضمَّن نقدًا (مدحًا أو قدحًا) وهذه هي التي يهتمُّ المسئولون بتَرجمتِها لمعرفة ما يدور في القسم العربي وإصدار التعليمات اللازمة بشأنها!

وبدأتُ العمل فورًا، وكنتُ أُجهِّز الخطابات التي تفتحُها السكرتيرات، ثم أمُرُّ عليها بعيني سريعًا لأرى نوعَ الخطاب وأصنِّفه ثم ألخِّص محتواه بالإنجليزية. واستغرقتُ في اليوم الأول فترةً طويلة في ذلك العمل إذ كنتُ أكتب النصَّ المترجَم بخط يدي، وأضع رموزًا على الخطابات الواردة إلى الأقسام المختلفة، ثم أبعثُ بالنصوص المُترجَمة إلى غرفة السكرتارية، ثم شاهدتُ الدكتور عزت وهو يعمل، كان يُملي على السكرتيرة مضمون الخطاب بالإنجليزية وهي تكتُبه بالاختزال short-hand ثم تأخذ دفتَرها وتنسخُ ما فيه على الآلة الكاتبة. وكانت إفادات تكتُب بخط يدها، وهي دائمة السؤال، متردِّدة، تخشى أن تُخطئ فتفقدَ عملها، وكان البحثُ قد بدأ عن موظَّفٍ دائم يُغني الإذاعة عن المؤقَّتين.

ولم يمضِ الأسبوع الأول إلا وقد أحكمتُ الصنعة، فأصبحتُ أُملي السكرتيرة مضمون الخطابات بلغةٍ تعمَّدتُ أن تكون عاميةً أو أقربَ إلى العاميَّة حتى أتدرَّب على استخدام ذلك المستوى من اللغة الذي حُرمتُ منه في الجامعة، واخترتُ الحضور ثلاثَ مرات أسبوعيًّا (نصف يوم) فكنتُ آتي في التاسعة والنصف وأمكثُ إلى الثانية عشرة موعد الغداء؛ حيث ينطلق الجميع إلى مطعم الإذاعة في مبنى Bush House، أما أنا فأنطلق إلى الكلية لأستمتعَ بالطبيعة ثم أعكُف على الدراسة في المكتبة حتى السابعة.

وكانت الإذاعة تُرسِل لي النقود في ظرفٍ مختوم على عنوان مسكني، وكانت نقدًا cash، فكانت تسُرُّني خيرًا من الشيكات، ولم يكن يُخصَم منها بنسٌ واحد، بخلاف النظام المصري المعروف، وكنتُ أُسارِع بوضعها في البنك، مع حشد التجار الذين كانوا يأتون بحصيلة الأسبوع إلى البنك يوم الجمعة. وكنت أحتفل بقدوم المال كل أسبوعٍ فأشتري ما لذَّ وطاب من الأطعمة، وأحيانًا ما كنتُ أذهب إلى المطبخ المشترك في بيت الطلاب فأقوم بالطهي أو إعداد الطعام بنفسي. وكان متوسِّط ما يصلني أسبوعيًّا يتراوح بين عشرة جنيهاتٍ ونصف وبين اثنَي عشر جنيهًا إذا اقتضى العملُ قضاء يومٍ كامل، وكنتُ في ذلك اليوم أتناول الغَداء في مطعم الإذاعة وأُحادِث الإخوان العرب، وكثيرًا ما كنا نجتمع حول موائدَ يُشارِك فيها الإنجليز، فتعرَّفتُ على زاهر بشاي المصري الذي كان يُعِد رسالة للدكتوراه، طال عملهُ فيها فأمعَن في الطول (ولم يحصُل عليها إلا حين أبلغَتْه الإذاعة بإلغاء عقده، فحصَل عليها لكنه لم يُفصَل!)، والدكتور محمود حسين الذي كان متزوجًا من أجنبية، أظن أنها كانت سويديةً وله منها ثلاثة أولاد، وكان ضخم الجثة رقيق الصوت، عُرِف عنه انشغالُه بالنساء ومطاردتُه لهنَّ، وتعرَّفتُ على أكرم صالح — الفلسطيني المتخصِّص في البرامج الرياضية — وكان إذا حاول مصادقةَ فتاة فصَدَّتْه وصفها بأنها صهيونية، وكنتُ أرى الكثيرين من الطلاب الذين يتردَّدون على المطعم لتناول الغداء والصحبة فحسب.

كان مجتمعًا غريبًا؛ فكلٌّ منهم له قصة، وكلٌّ منهم يعيش حياةً تختلط فيها صور الماضي بالحاضر دون أن يرى له مستقبلًا، كان العرب يندفعون مع الإنجليز كل صباح إلى العمل، ثم يُطِلُّون في أحاديثهم على الذكريات التي يبتعدُ بها قطارُ الزمن فتختلف ألوانها وتشحب، وتتداخل خطوطها وتشتبك، وكان معظم المصريين هناك ممن جاءوا إلى بريطانيا أصلًا للدراسة، ثم انقطعَت رواتبهم فالتحقوا بالعمل وهم يَرونَ شمعة الدراسة تذوي ويخفتُ ضوءُها، وتزوج بعضهم من إنجليزيات واشترى له بيتًا ذا حديقة، وأنجب أطفالًا يحملون الجنسية الإنجليزية ولا يتكلَّمون العربية، وظلَّت صورة الوطن كما هي — أي كما تركوه — وكانوا يتأثَّرون قطعًا بما يسمعونه في أجهزة الإعلام، وكان بعضهم يُحاوِل أن يُبرِّر حكمة خروجه من مصر وعدم العودة إليها، وبعضُهم يُبدي الندمَ في لحظاتٍ نادرة عابرة، وكان من بين هؤلاء عزت أبو هندية (رحمه الله) الذي ينتمي إلى دمياط، وقد اشتُهِر عنه إمساك اليد، ولو أن هذا يرجع إلى فقر أيام الدراسة، وهو يقول إنه على استعدادٍ للعودة إذا وافقَت إدارة البعثاتِ على دفع

تكاليف تعليمه طيلةَ فترة عمله وإنفاقه على نفسه. وكان يعيش خارج لندن في منزلٍ اشتراه، وكان لا يريد الزواج حتى لا تستولي زوجتُه على أمواله، وكان يُحاكي الإنجليز في «تعقُّلهم» في الإنفاق والحرص على المال، وكذلك رغم تقدُّمه في السن (إذ كان قد جاوز الخمسين) ورغم مرض القلب الذي يعاني منه في مصادقة الفتيات. حتى وقعَت الحادثة التالية:

اقترحَت إفادات كيبرون أن تُعرِّفَه بفتاةٍ ثرية اسمها شيلا جرين تعمل في العلاقات العامة، وأفهمَت كُلًّا منهما أن صاحبه ممتاز (وكانت شيلا ولا شك ممتازة) وعملَت إفادات على «توفيق رأسَين في الحلال» حتى يجد الدكتور عزت من يرعاه إذا مرض، ومن يعتني به في حياته اليومية حتى يظهر بالمظهر اللائق بجميع المصريين. وكنت حاضرًا أثناء المقابلة، ومال كلٌّ منهما — كما يبدو — إلى صاحبه، وأصبحنا نتوقَّع إعلان الزفاف بين لحظة وأخرى، ولكن عزت تراجَع في آخر لحظة، ويبدو أنه سمع منها ما يفيد أنها تعرف أنه مريض بالقلب، فتخيَّل أنها تريد أن ترثَ مالَه حين يوافيه الأجل، ولم يمضِ أسبوعان حتى نعى الناعي شيلا جرين، وقال قائل إنها تُوفِّيَت دون أن تعاني من أي مرض، ولكن الأجل المحتوم لا يحتاج إلى مرض، كما تحدَّث المتحدثون عما خلَّفَته من ثروة طائلة، آلت إلى الحكومة؛ لأنها لم يكن لها وريث، وأصبحنا نرى الدكتور عزت وهو شارد اللُّب، يفيض صوتُه بالحزن، ثم فوجئنا به في المكتب ذات يوم يقول «أنا أعرف حظي .. لو تزوَّجتُها لعاشت مائة عام!»

أما ريمون مِكلِّف فكان إسكندرانيًّا ظريفًا (ابن بلد وابن نكته) يحمل جواز سفر بريطانيًّا لأن أصلَه من مالطة وأبوه مالطي يحمل الجنسية البريطانية، واستقر أخيرًا في الإسكندرية. وحين طُردَ الإنجليز (ومن يحملون جوازات سفرٍ إنجليزية) من مصر إبَّان العدوان الثلاثي عام ١٩٥٦م، كان ريمون قد ارتبط بغرامٍ مشبوب بفتاة من حي بحري بالإسكندرية (وتقيم في شارع رأس التين) اسمها جانيت، وكانت ما تزال تلميذةً في المدرسة الثانوية، وكان يتمنى أن يخطبها فور حصولها على التوجيهية (الثانوية العامة) ثم فوجئ بقرار الطرد، فجاء إلى لندن حيث عمل في بحوث المستمعين، لكن خطاباته لم تنقطع إلى جانيت، وما إن تحسَّنَت الأحوال السياسية حتى هبَط مصر بالطائرة وتزوَّجَها في اليوم التالي، وبعد يومَين كانا في لندن، فاشترى بيتًا في جنوب لندن، في منطقة Streatham، وأنجب منها ثلاثة ذكور، أحدهم مريض بالهيموفيليا (مرض سيولة الدم) وعندما زرتُه صباح يومٍ من أيام السبت شممتُ رائحةً مصرية محبَّبة كنتُ

افتقدتُها من زمن، وعندما سألتُه قال «أصل جانيت لازم تدمِّس الفول بنفسها!» ولا شك أنها كانت مدبِّرةَ منزلٍ رائعة، ولا أظن أنني أكلتُ فولًا أشهى مذاقًا من فول جانيت.

٥

كان من نتائج عملي الجديد، الذي تطلَّب إذنًا خاصًّا من وزارة الداخلية (بالعمل خلال الصيف للطلاب) أن اختلَف نظامُ حياتي فتعلَّمتُ السهر، خصوصًا بعد أن طال النهار واعتدَل الجو، واشتريتُ جهازًا للراديو ماركة بوش Bush (ما يزال يعمل حتى الآن) أغناني عن الراديو المشترك للفندق القديم، واشتريتُ قلنسوةً من الفِراء، كندية الصنع، بخمسة جنيهات، ما زلتُ أرتديها حتى اليوم في شتاء أوروبا، وبدأتُ أتردَّد على بعض المطاعم الهندية التي تقدِّم وجباتٍ كثيرة التوابل، ومتنوِّعة الطعوم يُطلِق عليها الأجانب مجتمعةً لفظ كَري بتفخيم الكاف curry (وتنطق في مصر كاري بترقيقها ومد الفتحة) كما اكتشفتُ كُشْكًا يبيع الكتب القديمة بنصف الثمن، وأحيانًا ما كانت كتبًا جديدة أصابها تلفٌ طفيف، فبدأتُ أقرأ بنهَمٍ في شتى الموضوعات، خصوصًا في الفلسفة وعلم النفس؛ إذ كان الأستاذ هاردنج Harding، أستاذ علم النفس بكلية بدفورد مُولَعًا بالشاعر الذي أدرُسُه، وكان يوجِّهني إلى قراءة كتبٍ معيَّنة في علم النفس يرى أنها لازمةٌ لدراسة هذا الشاعر، كما بدأ في ذلك الوقت غَرامي الشديد بالفيلسوف الألماني كانط Kant، بعد أن قرأتُ مدى تأثُّر كولريدج Coleridge (صديق وردزورث) به، وكنتُ أقرأ عنه قبل أن أقرأ الترجمات الإنجليزية المشروحة لكتاباته، وبدأَت مكتبتي الخاصة تزدهر؛ فكل كتابٍ أقرؤه أحتفظُ به وأعودُ إليه، وكان ذلك كله سببًا في تعطيل الكتابة (في الرسالة) ولكن المشرف لم يعترِض.

وذات مساءٍ دافئ من أمسيات مايو الجميلة، كنتُ أتريَّض في الحديقة حين رأيتُ على البعد شخصًا يُشبِه «عبده» المصري. وتوقَّفتُ من المفاجأة. ما الذي أتى به إلى الحديقة؟! وسرعان ما جاءني وفي يده حزمة أوراق، وقال لي: ذهبتُ إليك في الفندق، فقالت السكرتيرة إنك ذهبتَ إلى الحديقة! (قلتُ في نفسي هذه سكرتيرة «مخابرات»!) وقال إن لديه خطاباتٍ من صديقته كاثلين ريلتون Kathleen Railton دأبَت على إرسالها إليه بعد ما انقطع عنها في الأسابيع الثلاثة الماضية، وألقيتُ على الخطابات نظرةً سريعة فإذا هي أقرب إلى الفن الجميل أو الأدب الرفيع منها إلى الخطابات العادية، فقررَّت قراءتها فيما بعدُ على مهَل، وكانت تواريخها المتقاربة وكثرتُها تدل على أن

أحمد عثمان المؤلِّف المسرحي والمؤرِّخ ونجلاء عاصم زوجته وهي ابنة مدحت عاصم عام ١٩٦٦م.

صاحبتها لم تتوقَّف عن التفكير في «الموضوع» بل كان يشغلها تمامًا، وطلبتُ منه أولًا أن يقُصَّ عليَّ التطورات، فقال إنه كان مطمئنًّا بعد أن قال لها إنه مسلم، فلا يُوجَد في ظنه دينٌ يمكن أن يعترض عليه والدها مثل الإسلام، وعندما غابت عن الكلية عدة أيام استبشر خيرًا، ولكنه فُوجئ بها تفعل ما فعلَته في المرة السابقة؛ إذ عادت هاشَّة باشَّة، وقالت له إنها لن تخبر والدها بخبر دينه، وإنها على استعدادٍ لاعتناق الإسلام وقد سألَت بعض أصدقائها من «الراسخين في العلم» فقالوا لها إن الإسلام لا يمنع زواج المسلم من المسيحية، ومع ذلك فهي لا تريد لأطفالهما أن يعانوا، وتعتزم أن تعتنق الإسلام فتصبح مثل «ممتاز» الفتاة الباكستانية المسلمة في قسم الفيزياء، بل إنها سألَتْها عن الخطوات الواجب اتِّباعُها حتى تصبح مسلمة.

قال عبده: وعندها قرَّرتُ أن أصارحها بالحقيقة، ولكنها رفضَت الاستماع إليَّ مثلما يحدث في الأفلام، وقالت لي إنني لن أفهم تفكيرها إلا إذا خرجتُ معها إلى الغابة يوم الإثنين ٢ مايو؛ فهو يوم عطلة (Bank Holiday)، ولم أعرف ما تعني بالغابة ونحن في إنجلترا فاتضح أنها تعني حديقة وندسور الكبرى Great Windsor park التي يُطلِقون عليها اسم غابة وندسور Windsor Forest (والاسم ينطق وِنْزَرْ لا كما نكتُبه بالعربية) وفعلًا قضَينا اليوم هناك، وسوف تجد وصفًا لتلك الرحلة في خطابٍ لها، وقالت كلامًا

كثيرًا لم أفهَم معظمه، ويدور حول الحرية والانطلاق والتحرُّر من قيود التقاليد وما إلى ذلك، وتحدَّثَت فأسهبَت عن عدم حاجتها إلى والدها أو إلى أمواله، قائلةً إنها على استعداد لأن تتبعني إلى أقصى أقاصي الأرض، حتى الصعيد الجوَّاني، تحقيقًا لحبها العظيم. وعندها أحسستُ بالخطر خصوصًا عندما وصلَتني خطاباتٌ من أهلي تفيد أنهم «شمُّوا» الخبر، وأنهم لن يقبلوا زواجي من إنجليزية، وعلى الفور انتقلتُ إلى مسكنٍ آخر لا يعرف أحدٌ عنوانه، وكلَّفتُ أحد أصدقائي بترك الخطابات التي تصلني إلى الكلية لدى إبراهيم الدويني، وكنتُ أمُرُّ عليه ليلًا لكي آخذها ثم أنصرف سرًّا. واليوم ذهبتُ إلى المكتب الثقافي لأطلب تحويل تسجيلي إلى جامعة خارج لندن فوجدتُ مستر فيولنج يُعاتِبني على عدم إخطاره بتغيير العنوان، وأردف ذلك قائلًا: «لقد سألَت عنك خطيبتُك ولم أجد لديَّ العنوان الجديد!»

كانت التطورات جادَّة وتتطلَّب تفكيرًا عميقًا، فجلسنا على أحد المقاعد الخشبية في الحديقة للنظر في جميع الاحتمالات، وكانت اقتراحاتي كلها مرفوضة، لا لأن عبده يرفض الارتباط بكاثلين ولكن لأنه يريدها ولا يريدها في الوقت نفسه، وهو لا يريد أن يقول الحقيقة حتى ولو كانت فيها نجاتُه، وعندما غربَت الشمس بدأنا نُحِس نسمات البرد الخفيفة، فاقترحتُ عليه أن يأتي معي إلى غرفتي، ولكنه كان يخاف أن تكون في انتظاره؛ ومن ثم أعطاني عنوانه السري الجديد ورقم تليفونه ورحل.

وعندما عدتُ إلى الغرفة نحَّيتُ أوراقَ الرسالة والكتب جانبًا، وجلستُ إلى المكتب أقرأ رسائلها إليه، بعد أن وضعتُها في تسَلسُلها الزمني الصحيح، وفقًا لتواريخ إرسالها، وبدأتُ بالرسالة التي تحكي فيها قصة غابة وندسور، ولاحظتُ أن فيها فقراتٍ تكاد تكون منقولةً بالحرف من رواية عشيق الليدي تشاترلي للكاتب د. هـ. لورانس D. H. Lawrence’s Lady Chatterly’s Lover، التي أخرج لها الدكتور أمين العيوطي ترجمةً عربيةً ممتازة في الثمانينيات، كما كانت بها فقراتٌ تقطع بأن كاتبتها موهوبة، وأنها تمثِّل نمطًا فريدًا من التفكير الرومانسي كان الدكتور شفيق مجلِّي قد حدَّثَني عنه في مصر في الستينيات، فلم أكَد أصدِّقه. وسوف أقتطف من هذه الرسالة التي ما زلتُ أحتفظ بها فقرةً قصيرة:

> «إنك تخاف يا حبيبي من القيود والمحاذير التي وضعَها الناس لأنفسهم، وهي قيودٌ ينسبونها إلى الدين أو إلى الأديان، ولكنك إذا رجعتَ إلى اليهودية أقدم الأديان لوجدتَ أصل هذا الخلط؛ الإنسان لا يستطيع التفكير المجرَّد،

ولا يستطيع الاتصال بروح الكون، وهو لا يستطيع إدراك المعنى إلا إذا رآه مجسَّدًا في رمز، ونحن لا نعرف معنى الروح البيولوجية إلا عند تأمُّل الخلية الحية. تعرف هذا مثلما أعرفه؛ ولذلك كان اليهود يرون أن الله لا يُعبد إلا في معبد، فألبسوا المعبد ثوب القداسة وجعلوه مكانًا إلهيًّا، مثلما فعلنا نحن بالكنيسة ومثلما فعلتُم أنتم بالمسجد (حسبما تقول ممتاز) ولذلك أيضًا صَبَّ كل رجال الدين همهم على الجسد؛ لأنهم رأَوا فيه رمزًا للروح؛ أي إنهم تصوَّروا أن الروح تسكن فيه فحرَّموا هذا وحلَّلوا ذاك، ولكن الجسد والروح شيءٌ واحد، والخلية إذا لم تكن حية لم تعُد خلية؛ أي إن الحياة صفتها الأساسية، ونحن لا نتعامل مع مادة مضافًا إليها (plus) روح، بل مع حياة إذا قتلتَها لم تعُد موجودة، وهذا هو ما قلتُه لك حين غبنا عن الوعي تحت الشجرة أول مرة، لقد امتزجنا فأصبحنا حياةً واحدة، ولاحِظ أنني لا أقول جسدًا واحدًا، وكانت تلك الحياة الواحدة هي التي تكرَّرَت بعد ذلك ثلاث مرات، ولا أستطيع أن أتصوَّر بعد ذلك كيف تتكلَّم عن الإسلام أو المسيحية!»

وقلتُ في نفسي «ما أشدَّ جُرأتَك يا عبده أفندي!» وظللتُ أقرأ خطاباتٍ تتكرَّر فيها هذه المعاني حتى وصلتُ إلى الخطاب الأخير، وكان الخطُّ رديئًا فالواضح أنه كُتب على عجَلة، ولكنني ثابرت حتى قرأتُ العبارة المذهلة التالية:

«أخبرتُ والدي بأنك مسلم، فلم يعترض، وتساءلَت والدتي: هل هذا معناه أنه ليس كاثوليكيًّا؟ فردَّ عليها قائلًا: «طبعًا يا جاهلة .. المسلمون مهذَّبون.» (decent) وقالت أمي: لا بأس، ما دمتَ متأكدًا أنه ليس كاثوليكيًّا! أبشِر يا حبيبي، لسوف نحقِّق أحلامنا. وأرجوكَ أن تردَّ على خطاباتي.»

وأسرعتُ إلى التليفون، لكنه لم يكن قد وصل بعدُ، ثم فكَّرتُ في الذهاب إليه بنفسي، لكني تساءلتُ ماذا عساي أن أفعل لو كنتُ مكانه؟ ولما لم أجد إجابةً شافية، ضمَمتُ الخطابات بعضها إلى بعض، باستثناء خطاب الغابة، ووضعتُها في الدُّرج، وقرَّرتُ الانتظار إلى الصباح.

الفصل الثالث

الخريف الجميل

١

كانت الخطابات المتبادَلة بيني وبين نهاد خطيبتي شريان حياة، وحبلًا يصلُني بالواقع الذي كنتُ أعرف أنني سأعود إليه، ورباطًا متينًا يشدُّني إلى مصر، حبي الأول والأخير، ولم تكن نهاد تبخل عليَّ بالأخبار، وإن كانت في تلك الأيام تعمل بجد للانتهاء من دراستها الجامعية والمحافظة على الامتياز والتفوُّق ودرجة الشرف، ولم يكن لديَّ من الأنباء ما أنقلُه إليها؛ فحياتي على طرافتها رتيبة، وما إن انتهت الامتحانات حتى اتفقنا على عقد القران بالتوكيل، فأرسلتُ توكيلًا إلى أخي مصطفى (موثَّقًا من القنصلية المصرية) حتى يوقِّع العقد نيابةً عني (وتم ذلك فعلًا يوم ١٧ يوليو ١٩٦٦م) وبدأَت نهاد في القيام بإجراءات السفر، وكانت شاقةً مضنية، وأعلمتُ الجميع بالخبر، وطلبتُ من مديرة بيت الطلاب غرفةً كبيرة استعدادًا لقدوم نهاد، وكانت اللوائح هنا لا تسمح بمكوث الضيف (الطالب) أكثر من عامَين، فعلمتُ أننا لا بد أن ننتقل إلى شقةٍ خاصة بنا مهما بلغ إيجارها.

كنتُ كثيرًا ما أتأمَّل تردُّدي بين العالمين اللذَين أعيش فيهما، وأعجَب للمفارقات التي كُتِبَ عليَّ أن أحيا فيها ليلَ نهار؛ فعملي في مكتب بحوث المستمعين يُتيح لي معرفةً ثمينة بأفكار مُرسِلي الخطابات، ومعظمهم من شمال أفريقيا، وهي أفكار أمةٍ عربية ما تزال تتلمَّس طريق النهضة الذي أتلمَّسه، وتتأرجح مثلما أتأرجح بين الماضي العربي السحيق الذي يعيش في الوجدان حاضرًا ومستقبلًا، وبين الحاضر الغربي الذي نُحاوِل التكيُّف معه دون مساس بذلك الماضي، وكانت تلك الخطابات من النوافذ النادرة على ذلك الفكر، وكنتُ أقرأ هذه الخطابات وأختزنُ في ذاكرتي ما أراه ذا دلالةٍ خاصة، أو

أنقل في كرَّاسة لديَّ بعضَ ما يرِدُ فيها من طرائف، حتى ولو لم تكن من الخطابات التي تُترجَم أو تُلخَّص.

واستطعتُ أن أصنع خطوطًا عامة للفوارق التي بدأَت تتضح بين الدارسين العرب في لندن، وبين البيئة الإنجليزية التي تُعتبَر غريبةً عن تقاليدهم إلى حدِّ التناقُض الصارخ، وقد اصطدمتُ بهذه التقاليد مرتَين في الشهور الأولى من عملي في الكلية؛ إذ كان من بين الذين يتناولون طعامَ العشاء كل يومٍ دارس اسمه بيتر، له لحيةٌ منمَّقة، وأسلوبٌ خاص في تناول الطعام، وكثيرًا ما كنا نتجاذب أطراف الحديث أثناء العشاء، على مدى أربعة أشهرٍ كاملة، حتى أصبحتُ أتصور أننا غدونا أصدقاءَ أو معارفَ على الأقل، وذات يومٍ شاهدتُه في فِناء الكلية مقبلًا نحوي فابتسمتُ له وحيَّيتُه ولكنه لم يردَّ الابتسام ولم يردَّ التحية ومضى في طريقه كأنني غير موجود، وفي المرة الثانية قابلتُ مسز تيلوتسون رئيسة القسم فابتسمتُ لها وحيَّيتُها وكان ردُّ الفعل مثل ردِّ فعل بيتر! تُرى ما عسى أن يقول العربي إذا فعل ذلك عربيٌّ مثله؟ إننا لا نقول إن لهم أعذارهم فهم مشغولون، ولا نقول إن لكل شيءٍ وقتًا مخصَّصًا لا يتعدَّاه، فالعمل لدينا يسير أو يتوقَّف دون أن نحاول وضع نُظُمٍ زمنية تحكمه، وزملائي قد يطرقون بابي في أي لحظة بل ويدخلون (فالباب مفتوح دائمًا) سواء كنت مشغولًا أو غير مشغول! وقد تعلَّمتُ من الإنجليز في تلك الأيام أن أحتفظ بمذكرة (مفكرة يومية Diary) أدوِّن فيها المواعيد مثل أوقات الذهاب للمسرح ومقابلة المشرف ومواعيد العمل في ترجمة الخطابات، وأُسجِّل فيها بعض ملاحظاتي، فكانت خير عونٍ لي على التكيُّف مع حياة العمل الدائب في لندن.

وكان من بين رُوَّاد غرفة الأساتذة في الكلية شابٌّ يبدو في أواخر الثلاثينيات اسمه كونراد رَسِل، كان من أسرة رَسِل الأرستقراطية، وكان مَن حولي يقولون إنه ابن برتراند رسل، ولكنني لم أكن ألتفتُ إلى حسَبه ونسَبه، بل شدَّني إليه أسلوبُه في الحديث وطريقتُه المنطقية في صوغ الحُجَج وبسطها، وكان يتكلَّم بلهجة المثقَّفين الخاصة، ولا غرو فقد كان يعمل أستاذًا للتاريخ الحديث، وكانت له زوجةٌ شابة تأتي مع طفلها الصغير (الذي لم يتجاوز عامه الثاني) لتناوُل الغداء معه في الكلية، وقد وجدتُ نفسي ذات يومٍ طرفًا في مناقشةٍ سياسية لم أكن أتوقَّعها ولم أكن أريدُها، وذلك عندما دخلتُ إلى غرفتنا بعد الغداء فوجدتُ كونراد يُحادِث طالبًا هنديًّا من طائفة السِّيخ اسمه سوخديف (أو سوخديب) حول مشكلات عهد الاستقلال في الدول التي تنتمي إلى

حديقة هايد بارك في الشتاء وقد كساها الثلج شتاء ١٩٦٦م.

ما أطلَق عليه ديجول تعبير العالم الثالث، وكان ديجول قد فاز برئاسة الجمهورية الفرنسية من جديد في ديسمبر ١٩٦٥م، وفاجأنا بعبارة le monde tertieme التي لم تكن ذات معنًى محدَّد آنذاك؛ فنحن في مصر نتحدَّث عن دول عدم الانحياز، باعتبارها تمثل كتلةً لا تنتمي للشرق ولا للغرب، ولكننا لا نعرفُ ما يقصده ديجول بالعالم الثالث، وعندما دخلتُ الغرفة كان النقاش قد تركَّز في مشكلة كشمير، وهي الإقليمُ المتنازَع عليه بين الهند وباكستان خصوصًا بعد الحرب التي اندلعَت بينهما في سبتمبر ١٩٦٥م، وكانت الصين تؤيد باكستان، وأمريكا تؤيِّدها أيضًا! وكان سوخديف مهمومًا بعد زيارة هيوبرت همفري نائب الرئيس الأمريكي في فبراير ١٩٦٦م إلى باكستان لإعلان استئناف مساعدَتها، والآن أصبحَت إنديرا غاندي رئيسة للوزراء في الهند ولم تعُد تتحدث في رأي سوخديف إلا عن السلام!

ولا أدري السبب الذي جعل سوخديف يتصوَّر أنني سوف أؤيِّد موقف الهند من قضية كشمير، والأرجح أنه كان مؤمنًا بعبد الناصر وكان يرى في حركة عدم الانحياز الوليدة حلفًا شرقيًّا بين الهند ومصر وإندونيسيا وبعض الدول الأفريقية، ولم يكن هذا الموضوع يشغلُني البتة؛ فالمعاني المطلَقة التي كنا نؤمن بها في شبابنا سرعان ما تصبح نسبية، ومعنى «الوحدة» مثلًا باعتبارها مثلًا أعلى قد يتغيَّر بتغير الظروف، وكنتُ أسمع عن سقوط زعماء وصعود زعماء (سقوط بن بيلا في الجزائر ونكروما في غانا وصعود

كازافوبو في الكونغو ... إلخ) فأمُرُّ على هذه الأنباء مر الكرام؛ لأن انشغالي بالأدب واللغة أدى إلى انشغالي بالناس — بالبشر الذين يعملون ويتعلَّمون هنا ثم يفصلون تمامًا بين حياتهم وحياة الآخرين، وكان كونراد رَسِل أصدق نموذجٍ لهؤلاء.

وعندما دعاني سوخديف للمشاركة في النقاش اعتذرتُ بأنني لا أعرف شيئًا عن المشكلة، وأن لنا في الشرق الأوسط (أو في الوطن العربي) همومًا من لونٍ آخر، وهنا قال كونراد بلهجة الواثق مما يقول: «ولكن إسرائيل مشكلةٌ مماثلة، وهي مشكلة لا تزول بتجاهُلِها.» وأكَّدتُ له أنني لا أتجاهلُها، ولكنني أومن بأن العرب يسعون لاحتوائها (أي لمنعها من التوسُّع) وأن النهضة العربية كفيلة بأن تُذيبَ الكيان العنصري حتى تصبح فلسطين مكانًا يجمع بين العرب واليهود، مع غلبة الثقافة العربية آخر الأمر؛ فبذا يقضي مسار التاريخ، وقلتُ إنني أتصوَّر عودة الشعب الفلسطيني إلى دياره حين يختفي التعصُّب العِرقي اليهودي، ويتحوَّل المثل الأعلى من الغلبة العسكرية إلى الارتقاء بمستوى معيشة الناس الذين ما يزالون يعانون من الفقر والجهل والمرض.

وقال كونراد: «أنت شاعر! فهذه أحلام الشعراء، والواقع يقول إن القوى المادية هي التي تُسيِّر التاريخ لا الآمال والأحلام.» وانطلَق يضرب الأمثلة لا من الشرق أو العالم العربي بل مما يُسمَّى بالديمقراطية الغربية، وأسهَب في تِبيان سيطرة بعض الطبقات (وصحتها «الفئات») على مسار السياسة البريطانية عَبْر القرون، وكيف أن «العقد الاجتماعي» الجديد وكان هارولد ويلسون يُسمِّيه social compact (لا contract) يعني الاحتفاظ لأصحاب الامتيازات بامتيازاتهم بشرط السماح للآخرين إذا استطاعوا أن يلحَقوا بهم، وقال لي في هدوءٍ شديد: «هل تعتبر أن حزب العمال يمثِّل العمال حقًّا؟ وهل تعتبر أن تأميم صناعة الصلب خطوةٌ في صالح الطبقة العاملة؟» وأجاب على التساؤلَين قائلًا: «انظر إلى عدد النواب اليهود في مجلس العموم، ٧٢ نائبًا يمثِّلون من؟ إنهم قطعًا لا يمثِّلون نصف مليون يهودي، وهم أقل الأقليات العِرقية عددًا في بريطانيا، بل هم يمثِّلون مصالح كبار التجار اليهود، أرباب تجارة الخِرَق مثلًا (The rag trade ومعناها تجارة البلو جينز blue jeans وأمثال تلك الأقمشة مما أصبح الشباب يرتديه باعتباره الموضة الجديدة) ومن وراء هذه التجارة ثقافةٌ كاملة تغتنم غضب الشباب على ويلات الحرب والدمار الذي خلَّفَته في الدعوة إلى التمرُّد الذي لا هدف له، وهي ثقافةٌ يُغذِّيها كبار الكُتَّاب من يهود أمريكا وإنجلترا (أرولد ويسكر، وبيتر شافر، وهارولد بنتر لدينا وعشرات لديهم برئاسة آرثر ميلر، ونورمان ميلار، وهنري ميلر، وصول بيلو،

وجورج سيجال وغيرهم) وعندما أقول «لا هدف له» أقصد أن الشباب لا يعرف له هدفًا؛ فالتمرُّد من سمات الشباب في كل عصر، وقد يكون التمرُّد هو في ذاته الهدف! أما الغاية فهي خدمة مصالح كبار الرأسماليين الجدد!»

ولم أفهم غضب كونراد على الرأسماليين؛ فهو أرستقراطي ومن الطبيعي ألا يؤيد حزب العمال، ولكن هجومه على الرأسماليين بدا محيِّرًا، فعُدتُ أسأل عن صناعة الصلب وكيف لا يرضى عن تأميمها بعد أن دافع هارولد ويلسون دفاعًا مجيدًا عن ذلك أقنع الجميع؟ وهنا قال كونراد وقد بدأ ينظر في ساعته؛ إذ كانت تقترب من الثانية: «إن لعبة الانتخابات التي أتت بهارولد ويلسون إلى الحكم تتضمن مكافأة مَن أنفقوا عليها! لقد تعثَّرَت صناعة الصلب؛ لأن الآلات التي كنا نستخدمها بالية، أو قل إنها لم تعُد قادرةً على المنافسة مع غيرنا من المنتجين وتحديث هذه الصناعة يتطلَّب استخدام آلات جديدة لا قِبل لأرباب أو أباطرة صناعة الصلب (the steel tycoons) بتكاليفها؛ ولذلك رحَّبوا بتدخُّل الدولة لإقالتهم من عثرتهم بأموال دافعي الضرائب.» وقلتُ بصوتٍ حاولتُ أن يجاري صوت كونراد في انخفاضه وبُعده عن الحماس: «ولكن تحديث الصناعة سيعود بالخير على العمال وعلى الدولة.» فأومأ موافقًا وأضاف: «ويتضمن نجاح مرشَّحي حزب العمال في منطقة سالفورد Salford، ولو في المستقبل القريب.» ونهض من مجلسه وهو يقول: «ولكن هارولد ويلسون لن ينجح في أي انتخاباتٍ قادمة، بل ستأتي حركة البندول (the swing of the pendulum) بحزب المحافظين الذي سيُعيد الصناعة إلى أصحابها بعد أن تُصبِح عملًا مربحًا (a going concern) فتذكَّرْ ما أقول عندما يحدُث ذلك!» وخرج باسمًا.

وكانت تلك المناقشة بداية وعيٍ جديد بالحياة العامة، خصوصًا بعد أن تحقَّقَت نبوءة كونراد رَسِل فيما بعدُ وأتى حزب المحافظين إلى الحكم عام ١٩٧١م، وبدأ عهد التوسُّع الاقتصادي expansion وتخفيض سعر الفائدة على القروض من البنوك فيما يُسمَّى بعهد الأموال الرخيصة (cheap money) وكان هدفه المعلَن هو إتاحة النقود لمن يطلبها في عهدٍ أُطلِق عليه عهد تحريك النقود والأسعار (reflation) وإن كان قد أتى بالتضخُّم (inflation) الذي كان حزب العمال يُحارِبه، والغريب أن تكون من أسباب نكسة حزب العمال ما أقدم عليه وزير المالية العمالي جيمس كالاهان James Callaghan عام ١٩٦٩م من تخفيض لسعر صرف الجنيه الإسترليني مقابل العملات الأوروبية، مما دفعه إلى الاستقالة من منصبه، وذلك بعد ضغط الرأي العام؛ إذ قال

بعض الصحفيين إنه نكَث بعهده، وأقول إن ذلك غريب؛ لأن انخفاض سعر الصرف استمر سنواتٍ وسنواتٍ في عهد المحافظين.

٢

كان من أهم ما خرجتُ به من المناقشات الجامعية على مدى عامٍ كامل هو الوعي بأن الأستاذ يتمتَّع بحرية تكاد تكون مطلقةً في تفكيره وبحوثه، وإذا كان ذلك مما لا يدعو للدهشة في العلوم الطبيعية كالكيمياء والفيزياء، فهو يدعو للدهشة حقًّا في العلوم الإنسانية، وكان مما يسَّر لي الوصول إلى هذه النتيجة اختلاطي بنماذجَ متعدِّدة من أفراد الطبقات الأخرى في المجتمع الإنجليزي، فكانت «كارول» السكرتيرة ذات الملامح الشرقية تحدِّثني عن صديقها وكيف حاولَت معه التشبُّه بالطبقات العليا فذهبَت للرقص في فندق هيلتون وكيف مثَّلَت دور إلايزا دوليتل Eliza Doolittle في فيلم سيدتي الجميلة عندما حاولَت التحدُّث بلهجة أبناء الذوات، وكيف انكشَف أمرُهُما حين لعبَت الخمر بالرءوس فانطلقا يتحدَّثان بلهجة أولاد البلد في لندن، وعلمتُ من «سالي» أن صديقها ديفيد يريد أن يذهب معها إلى إيطاليا في أغسطس، وكانت متردِّدة بسبب تحذير ريمون مِكَلِّف لها؛ إذ قال لها إن عليها أن تشترط عليه الزواج أولًا، وهي لا تدري ما تفعل، فهي تخافُ أن يتهمها بعدم الثقة فيه، وتخافُ أن يهجُرَها، ولم تكن أُسرتها تعترض، لكن خوفها من ريمون كان سبب تردُّدها.

وجاء ديفيد ذات يوم إلى المكتب فوجدته شابًّا نحيلًا قصيرًا، غير وسيم، لا تبدو له ملامحُ محدَّدة (nondescript) وكانت «سالي» في رشاقة نجوم السينما، مرحة ضحوكًا، وعندما وجداني أجلس وحدي في ساعة الغداء، عازفًا عن الخروج، أسجِّل بعض الملاحظات في مفكِّرتي التي تضخَّمَت، طرقَا الباب ودخلا، فعرَّفَتني سالي به، وعرَّفَته بي قائلةً إنه مستر عناني الذي أطبع له الرسالة (وكانت تتولى نسخ الفصول بعد تعديلها على آلةٍ كاتبةٍ كهربائية لديها في المنزل). وقال ديفيد ضاحكًا "The one who's swallowed the dictionary?" (أي أهو الذي ابتلَع القاموس؟) وأنكرتُ أنني ابتعلتُ شيئًا، فأردف قائلًا إنه لم يفهم حرفًا واحدًا مما كتبتُ، وضحكنا ثم سألني: «هل ستذهب مع نهاد إلى إيطاليا؟» وعجبتُ من سؤاله وردَدتُ عليه بسؤال: «ألا بد من ذلك؟» فردَّ قائلًا «كنتُ أتصوَّر أن الناس يتزوَّجون في إيطاليا!» وسألتُه بسرعة

كارول زميلتنا في العمل في كوينز هاوس.

«وهل ستتزوج سالي في إيطاليا؟» فقال: «ولِمَ لا؟ ربما فعلَت» (why not? I might, you know) وتطرق الحديث إلى شراء المنزل، فالقاعدة أن يشترك العروسان في شراء منزل الزوجية أولًا، فهما يدفعان مقدارًا من المال أولًا (ألف جنيه على الأقل) ويدفعان الباقي على أقساطٍ شهرية للبنك، فالبنك هو الذي يقدِّم القرض لهما (الثمن الكامل الذي تتقاضاه الشركة العقارية) وكان في هذه الحالة ٣٥٠٠ جنيه، ويُعتبر المنزل مرهونًا للبنك حتى إتمام سداد القرض؛ ولذلك تُعتبَر الدفعات الشهرية (الأقساط) قيمة فك الرهن، ويُشار إليها عادةً باسم الرهن فقط، فيُقال (to pay the mortgage rate) ويُشار إلى الفائدة المفروضة على القرض باسم سعر فائدة الرهن (mortgage rate) واتضح من الحوار أن ديفيد لا يملك إلا ثلاثمائة جنيه، فقالت سالي: «أستطيع أن أُدبِّر المبلغ الباقي (I can manage the rest)» واعتَرَض ديفيد أولًا، ثم قال: «سأردُّ لك المائتين عندما أفتح محل البقالة الخاص بي!» وغنيٌّ عن البيان أن سالي كانت تشعر بسعادةٍ غامرة،

وعندما نهضا التفت إليَّ ديفيد وقال: هل الأستاذ المشرف هو الذي سيمتحنك في الرسالة؟ فأجبت بالإيجاب، فقال ألا يُعتبَر هذا من قبيل الغش (cheating)؟ وعندما رأى الدهشة على وجهي قال: «أعني أنه هو الذي تولَّى تصحيح الرسالة .. فما الذي سيمتحنُكَ فيه؟» وضحكتُ ولم أعلِّق فغادرا المكتب.

سالي زميلتنا في العمل في كوينز هاوس.

كانت أحلام سالي وديفيد أحلام الطبقة الفقيرة، ولم تكن أفكارهما تتجاوز شراء المنزل وتدبير نفقات المعيشة، وكانت قد مضت على صداقتهما سنواتٌ طويلة، يخرجان للنزهة أو يذهبان إلى السينما، على مرأًى ومسمع من الجميع، ولم يكن ديفيد قد حصَل على أي شهادة، فهو school leaver وحسْب؛ أي إنه قضى فترة التعليم الإلزامي في المدرسة حتى سن الخامسة عشرة (رفعها حزب العمال إلى ١٦ بحجة رفع المستوى التعليمي وقال حزب المحافظين إن الهدف من ذلك تخفيضُ عدد تاركي المدرسة المسجَّلين في قوائم العاطلين) ثم عمل صبيًّا في محل بقالة، وكان دخلُه قليلًا وطموحاته أقل، أما سالي فكانت ماهرة في أعمال السكرتارية مثل الاختزال والآلة الكاتبة والأرشفة وما إلى ذلك، وتطمح في أن تصبح سكرتيرةً خاصة لمدير إحدى الشركات، وهذه فئةٌ يُطَلق عليها «مساعدة شخصية» (P. A. Personal Assistant) وتوازي منصب «مدير المكتب» لدينا. وقد كُتب لي أن أزورَها في المنزل وأرى والدَيها، وكانا مثل ديفيد يفتقران إلى الطموح،

وقال والدها لي: I don’t encourage moonlighting أي لا أحبِّذ القيام بعملٍ جانبي إلى جانب العمل الأصلي؛ فالإنسان في رأيه لا بد أن يعيش ويتمتع بحياته، لا أن يكافح في طلب المال، وأكَّد لي أن «سالي» لم تكتب لي الرسالة إلا بسبب دماثة خُلقي، وأنها لا تسعى إلى أي لون من الكسب المادي.

٣

كان الإحساس الذي بدأ يتملَّكُني هو أن الأوروبيين يؤمنون بالنُّظم التي تُعفي الفرد من مكابدة ما يُكابِده الفرد في بلادنا؛ فنحن لم نرِث نظمًا ثابتة بل نُحاوِل وضع نظمٍ جديدة لا نعرف إلى أي حدٍّ يمكن أن تنجح، أما الإنجليز وهم من غلاة المؤمنين بالنُّظُم، ولا يكاد يتفوق عليهم إلا السويسريون فيما أعلم؛ فهم منذ البداية يقبلون ما تسير الدولة عليه، والثورة لديهم ضربٌ من الجنون بالمعنى العلمي (أي الذي يقتضي علاجًا في مصحة)؛ ولذلك فإن أي تغيير في المجتمع يستغرق دهورًا، وقد سبق ابن خلدون علماء الاجتماع المحدَثين في تِبيان أحد أسباب ذلك وهو طبيعة الجو؛ فالإنسان الذي ينشأ في بيئة أو في مُناخٍ يصعب التنبُّؤ به يميل إلى الاحتماء من تقلُّباته، ويسعى في سبيل ذلك إلى وضع نُظمٍ يُدخِل عليها تحسينات قليلة أو كثيرة عامًا بعد عام، حتى تصبح مأمونة، وحتى يجد ما يركن إليه ويثق به. وقد يدهَش من يعلم أن أرقام خطوط الأوتوبيس في لندن لم تتغيَّر على مدى الخمسين عامًا الماضية، وعندما أُشاهِد بعض الأفلام القديمة ألاحظُ تعليقات الإنجليز عليها كأنما لم يمضِ علينا زمن! ومثلما يؤمن الإنجليزي بالثبات، يعرف أن التغيير محتوم وهو يقبلُه على مضض، وكثيرًا ما يتحسَّر على الأيام الخوالي، ويكاد يتمنَّى لو وقف الزمن وظلت حديقته غنَّاء إلى الأبد! وكان صدقُ هذا الحدْس يتأكَّد لي كلَّما التقيتُ بالطاعنين في السن، وأذكُر أنني دخلتُ صيدلية وكانوا يُسمُّونها على أيامنا (Chemist’s) أي دُكَّان كيميائي (ثم تغيَّرَت بعد الوحدة الأوروبية إلى Pharmacy)، وطلَبتُ قطعة من الشَّبَّة لأضعها على جروح ما بعد الحلاقة وكنتُ أعرف أن اسمها alum وأن الاسم العلمي لها هو styptic فطلبتُها بالاسم العلمي، فنظر إليَّ الصيدلي الشاب دَهِشًا، فقلتُ له ألا نكتبها بحرف الواي (Y) وننطقها كالكسرة؟ فسمعتُ من أقصى الصيدلية شيخًا يصيح: «هل تغيَّر هجاءُ هذه الكلمة أيضًا؟ ما الذي يحدُث للعالم؟»

(Have they changed that too? What's the world coming to?)

وطمأنتُ العجوز قائلًا إن الهجاء لم يتغيَّر ولكنني أجنبيٌّ غير واثقٍ من الهجاء الصحيح، فنهَض وجاء إليَّ متكئًا على عصًا غليظة ووقف يقُص عليَّ أحزان المهنة، وما صنعَتْه الكيماويات بصحة الشعب الإنجليزي، واسترسل في الحديث (وأنا به سعيد) عن مغبة الانسياق وراء المواد الصخرية التي تدخُل في صناعة الأدوية، ثم همَس لي قائلًا: سوف أتلقَّى خطابًا من الملكة بعد اثنَي عشر عامًا؛ أي عندما أبلغ المائة! وضحكتُ وقلتُ له: ربما لن أكون هنا لأرى الخطاب! وانصرَفْت. ويجمُل بي أن أُضيف أنني كنتُ أمُرُّ على الصيدلية كلما زرتُ لندن (وكنتُ أقيم خارجها منذ ١٩٦٩م) حتى عام ١٩٧٣م حين لم أجد لها أثَرًا، وسألتُ صاحب الدكان المجاور فقال إن صاحبها تُوفِّي وإن الورَثة باعوها.

راعَني ذلك التمسُّك بالقديم والاستمساك بالتقاليد وأصبحتُ أرى فيه تفسيرًا للكثير مما ينسبُه البعض إلى التعصُّب أو ضيق الأفق narrow-mindedness (والمعنى واحد في التعبير الإنجليزي؛ أي إن narrow-mindednessتوازي تمامًا intolerance وما يجري مجراها مثل bigotry ... إلخ)؛ فالإنجليز لا يكرهون الأجانب بالمعنى المفهوم للكراهية بل هم يستريبون بهم، ويخشَون أن يأتوهم بما يُدخل ولو تعديلًا طفيفًا على أسلوب حياتهم (أي على ثقافتهم) والتعديل قد يعني التغيير، مصدر الخوف من المجهول! وعندما انسحب الإنجليزُ من مستعمراتِهم القديمة، كانوا مُضطَرِّين لأسبابٍ اقتصادية محضة إلى الإبقاء على الوشائج التي كانت تربطُهم بأهلها، وهكذا أنشَئوا الكومنولث commonwealth وهي كلمةٌ أخرى للفظة republic أي الجمهورية (فلفظة res اللاتينية تقابل wealth وكلمة publica تُوازِي common)؛ ومن ثَم فالمصطلح يعني أن دول الكومنولث تشكِّل فيما بينها اتحادًا جمهوريًّا! فهكذا أطلَق أوليفر كروميل تلك الصفة على حكومته في القرن السابع عشر، عندما تحوَّلَت إنجلترا إلى جمهورية للمرة الأولى والأخيرة! ولكن الواقع ينفي ذلك؛ إذ كان الإنجليز في أعماقهم يخشَون هذا الامتزاج بأقوامٍ قد تؤدي معاشرتهم إلى التغيير! إن تقلُّب الجو، وتقلُّب البحر الذي لا بد لسكان الجزيرة أن يركبوه، والخوف من التقلُّب بصفة عامة، من العوامل التي أورثَت الإنجليزي ولَعًا بالثبات يصل إلى حد الولَه!

وقد وجدتُ نفسي في تلك الأيام أعيش في مجتمعٍ يتغير بسرعة لم يشهدها عَبْر تاريخه الطويل، ويُحاوِل التوافق مع حقائق الدنيا الجديدة؛ فلقد أدرك ذلك المجتمع أنه

ينبغي ألا يُصدِّق دعوى التفوُّق العنصري، ويجب أن يقتنع بأن الإمبراطورية القديمة قد زالت وانقضت، فكان التمزُّق بين الوجدان العميق وبين حقائق الدنيا التي يقول بها العقل، والإنجليزي يفخر بأنه «متعقل» وكلمة reason ومشتقاتها تشغل مكانًا لا تشغله كلمةٌ أخرى في اللغة الإنجليزية، وما تزال الصفة reasonable تمثِّل لي مشكلةً في الترجمة القانونية، وأعترف أنني لا أعرف تحديدًا ما يعني تعبير «معقول» في عبارة «قدْر معقول من ...» فأنت تقرأ مثل هذا التعبير في حُكم المحكمة beyond a reasonable doubt «دون قدْرٍ معقولٍ من الشك» وفي الحديث العابر "do be reasonable" «أرجوك تعقَّل!» وشتان بين هذه الصفة وبين العقلانية rationality! أقول إنني كنتُ أشهَد التغيير، وما زلت أحتفظ بصحيفةٍ اشتريتُها أيام إقامتي في بيت الزنوج (أو بقصاصةٍ منها) تحكي عن اعتزام إيان سميث (Ian Smith) إعلان استقلال روديسيا (الجنوبية) من جانب واحد، فيما كان يُسمَّى (Unilateral Declaration of Independence (UDI. لقد كان عصيان إيان سميث لحكومة الملكة بمثابة تغييرٍ لا يمكن قبولُه؛ فبريطانيا «تمنح» الاستقلال، سواء أكان ذلك لأقليةٍ بيضاء أم لأغلبيةٍ سوداء، أما أن تُعلِن دولةٌ استقلالها من طرفٍ واحد عن بريطانيا، ولو كانت الحكومة تتكوَّن من الإنجليز البيض، فهذا ما لا يمكن قَبولُه! ويكفي أن أذكر في آخر هذا القِسمِ التعبيرَ الذي دخل مصطلح الإنجليزية من أوسَع أبوابها وهو «رياح التغيير» (winds of change) الذي ورَدَ في خطبة هارولد ماكميلان في جنوب أفريقيا!

كان المجتمع الإنجليزي يتغيَّر في المدينة، وكنتُ أعيش في المدينة، وكنتُ أذكُر قول أستاذ مجدي وهبة: إذا أردتَ أن تعرف إنجلترا فاذهب إلى الريف! ولكنني كنتُ مرتبطًا بالمسرح وبالحياة الحافلة في المدينة، وأما الريف فكان يكفيني أن أراه في حديقة الكلية والحديقة المجاورة لبيت الطلاب.

٤

كانت أقوالُ أساتذتي مجدي وهبة ورشاد رشدي ولويس عوض تشغل مكانًا ثابتًا في ذهني عن إنجلترا في فتراتٍ مختلفة وأماكنَ مختلفة؛ فمجدي وهبة خريج جامعة أوكسفورد، ورشدي من جامعة ليدز، ولويس عوض من كيمبريدج، أما أنا فكنتُ أنتمي إلى الكلية التي تخرَّج فيها محمد مصطفى بدوي وشفيق مجلي، وكانت رئيسةُ القسم تقول لي إنهم كانوا أفضل سفراء لمصر في إنجلترا، وكنتُ أعيش في لندن، المدينة التي

كان الدكتور صمويل جونسون يعتَز بالحياة فيها، وما يزال المنزل الذي كان يُقيم فيه قائمًا في عطفة من شارع ستراند (وهم يُسمُّونه The Strand فقط) وعليه لافتةٌ تحمل اسم الناقد الكبير ومؤلِّف أول معجمٍ إنجليزي نُسجَت حوله الأقاصيص في القرن الثامن عشر، وكان مجدي وهبة قد ملأ نفسي بحب هذا العملاق، ولم يكن من الممكن أن أنساه وأنا أقرأ أسلوبَه البديع ولغتَه الإنجليزية الصافية، مما أكسبني دون قصدٍ نزعةً كلاسيكية ما لبثَت أن رسخَت وتعمَّقَت، وفي جوهرها يكمنُ ما ذكرته عن العقل والتعقُّل وهو ما يجب عليَّ أن أوضِّحه بعض الشيء.

كانت روح القرن الثامن عشر التي نصفها بالكلاسيكية الجديدة تَرتكِز على الإيمان بأن الإنسان كائنٌ لا يختلف تكوينًا ونفسًا من مكان إلى مكان، ولا من زمان إلى زمان؛ فنوازعه معروفة ومرصودة، وقد أقام أصحاب الفلسفة الإنجليزية الواقعية؛ أي التي تستند إلى معطيات الواقع أُسسًا لدراسة الإنسان انطلاقًا من الحقائق المادية، واستخدموا المنهج التجريبي الذي نشأ في القرن السابع عشر أساسًا لإرساء قواعد العلم الطبيعي، فأقاموا بنيانًا من الأفكار المنطقية المستندة إلى الوقائع والتجارب، فيما أصبح يُسمَّى بالبراجماتية وقد استلزمَت هذه المدرسة الفلسفة مبدأ «الوسطية» في كل شيء؛ أي الابتعاد عن الشطَط واتباع الهوى الذي قد يضُر بالآخرين، وبرزَت في اللغة الإنجليزية صفاتٌ أصبحَت تُعتبَر محمودة مثل البديهة السليمة commonsense وlevel-headedness وعلى رأسها جميعًا كلمة الإنصاف fairness أو even-handedness وكلها تَحمَد العدل والاعتدال moderation باعتبارهما من سمات «التعقُّل». وكان الأجنبي الذي يستطيع استيعاب تلك الروح التقليدية يكتسب رضاء المجتمع الإنجليزي، ويفتح الإنجليزي له الأبواب مثلما يفعل الفرنسيون الذين يَقْبَلون من يُجيد لغتهم بل يعتبرونه واحدًا منهم (citoyen passé). ويكفي أن أختمَ هذه الفِقرة بالإشارة إلى إطلاق لفظ «الطبيعة» على من يتجنَّس بالجنسية الإنجليزية؛ إذ يُسمُّونه naturalized!

وقد ذكَرتُ في الفصل الأول أن الصفات الخُلقية التي ينسبها بعض النقاد إلى تراث النزعة البيوريتانية تُعزى في الحقيقة إلى الممارسات التجارية التي لا تنجحُ إلا بالصدق والأمانة، وقد أُضيفُ هنا أن صفات الوسطية والاعتدال والاتزان (balance) والإنصاف ربما ترجع أيضًا إلى الخبرات التجارية التي اكتسَبها الإنجليز على مَرِّ القرون؛ فهذه جميعًا من صفات التاجر الإنجليزي الناجح، وقَلَّ أن تجد بين الإنجليز من يُكتب له

النجاح إذا لم يتصف (أو لم يُحاوِل الالتزام) بهذه الصفات. أما الاستثناءات فهي نوع من الاستثناء الذي يؤكِّد القاعدة ولا ينفيها.

وقد اضطُررتُ إلى هذا الاستطراد القصير لأنني أجد فيه تفسيرًا لاتجاه العقل الإنجليزي إلى الوضوح في التفكير والتعبير، وتفسيرًا لميل الإنجليز إلى الإقلال من الكلمات، واعتبار الاقتصاد في التعبير أسمى الفضائل وأعلى قِمَم البلاغة؛ فما نظنه من قبيل «البرود» الإنجليزي هو في الحقيقة ضبط للنفس وضبط للِّسان خشيةَ أن ينحرف أو يشتَط، وأحيانًا مخافة أن يقول ما يجب كتمانه، أو ما لا يجوزُ البَوحُ به، فإذا تكلَّم آخر الأمر وجدتَ أنه واضحُ الفكرة والعبارة، لا يخرج عن «المسموح به» اجتماعيًّا أو يجنح إلى «ما لا يُقال» (أي العيب)!

وأنا أذكُر ذلك كلَّه أيضًا لأنه أوضَح لي في سنوات التكوين البعيدة مدى تأثير التراث الإنجليزي في جيلٍ كامل من أساتذتنا، وأنا أعتَز بأنني تتلمذتُ على أيديهم، وإن كانت مبادئ هذا المنهج العلمي الصادق تضرب بجذورها — كما تعلَّمتُ في الكبر — في تُراثنا العربي، ولكننا ننساها أو نتناساها في هذه الأيام، ونطلق ألفاظًا عامةً ظالمة على تراثنا كله، بل لا نفرِّق (أو لا نكاد نفرِّق) بين عصور ازدهار العلم العربي وعصور التخلُّف التي اتسمَت بالنقل والمحاكاة دون تمحيص. ولكم كانت فرحتي حين اكتشفتُ أن الشاعر الذي أدرُسه (وليم وردزورث) إنجليزي الطابع بالمعنى الذي ذكَرتُه، وإن كنتُ هنا أستبق الأحداث؛ لأن ذلك لم يحدُث إلَّا في مرحلة الدكتوراه في مطلع السبعينيات، فلأعُد الآن إلى ما دعاني لهذه التأمُّلات العابرة — ألا وهو عودة «عبده» من العطلة ومعه كاثلين!

كانت المفاجأة مذهلة؛ كنا في شهر أغسطس ١٩٦٦م، وكان صيفًا حارًّا بالمقاييس الإنجليزية، وكان سمير سرحان قد زارني مرتَين في صيف ذلك العام، مرةً وهو في طريقه إلى مصر لحضور مؤتمر المبعوثين الذي تحدَّث فيه جمال عبد الناصر شخصيًّا إلى ممثِّلي الطلبة، وكان من أبرز أحداث ذلك الصيف، ومرةً أخرى وهو عائد إلى أمريكا، ومكث معي في الغرفة وتحادثنا عن أحوالنا باستفاضة، وتنزَّهنا وقَصَّ عليَّ ما يفعل ولكنه اعترض على التحاقي بالعمل المؤقت وطالبني بالانتهاء من الرسالة بأسرعِ ما يمكن حتى نعود لتحقيق أحلامنا في مصر، وبعد رحيله كنتُ أشعر بحزنٍ دفين لم يخفِّف منه سوى توقُّع فرحتي بوصول زوجتي، وكنتُ كل يوم أفعل شيئًا جديدًا استعدادًا لهذه الفرحة،

بل كان لا يكاد يشغلُني بعد رحيل سمير سرحان سوى إرسال الخطابات والبرقيات تلهُّفًا على وصول نهاد.

وذات صباحٍ دافئ، لا سحاب ولا مطر فيه، خرجتُ قاصدًا النزهة، ولكنني لم أكَد أخرج من باب المصعد حتى وجدتُ «عبده» أمامي ومعه فتاةٌ إنجليزية سمينة، ناصعة البياض، قصيرة الشعر، عيناها زرقاوان، باسمة الوجه، فوقفتُ جامدًا لا أستطيع الكلام. وإذا بها تقول ضاحكة: «لا بد أنك محمد!» وقلت نعم. تفضَّلا. وقالت بسرعة: «كنا ... أقصد ...» وأكملتُ لها العبارة التي يستخدمها الإنجليز فكِهين في مثل هذه الظروف: «كنتما في المنطقة فقلتما ...» "you were in the neighborhood and thought ...". فضحكَت وقالت إنها «فكرة عبده!» وقلتُ لها: «لا بأس .. فلنخرج معًا إلى الحديقة (هايد بارك) فالجوُّ رائع!» وخرجنا.

كان عبده قد انقطع عن الاتصال بي فترةً طويلة، ولم أكُن أُتابِع أخباره بعد أن ترجمتُ له ما جاء في خطاب كاثلين الأخير، وكانت حياتي حافلةً بمشاغل الدراسة والعمل، فلم أشغل نفسي كثيرًا بهذه المسألة؛ ولذلك فضَّلتُ الصمت. وبعد أن توغَّلنا في الحديقة ونحن نعلِّق تعليقاتٍ مقتضَبة أو مسهَبة على الزهور، جلسنا جميعًا على مقعدٍ خشبي، وبدأَت كاثلين حديثًا طويلًا سجَّلتُ أهم نقاطه فيما بعدُ في مفكِّرتي، وسوف أُوجِزه هنا، قالت كاثلين:

> «صارحَني عبده بأنه كانت له خطيبةٌ في مصر وأنها سوف تحضُر هنا بعد أن تزوَّجها بالتوكيل، وشرح لي موقف أهله من الموضوع، وتفهَّمتُ الموقف تمامًا، وقرَّرتُ أن الإنصاف يقتضي أن أتركه، وإن كان ذلك يحزُّ في نفسي، وقطعتُ على نفسي عهدًا بألَّا أراه بعد اليوم، وبأن نزورك معًا قبل الافتراق؛ فهو يعتبرك أخلَص أصدقائه، وسوف أرحل إلى الجنوب حيث أعمل مع والدي، ولكنني لن أعطيكما العنوان أو التليفون، حتى نُغلِق الكتاب تمامًا.»

وأدركتُ أن هناك أشياء لا أعرفها، وكان حدْسي يقول لي إن عبده قد كذب من جديدٍ حين زعم أن له خطيبةً وأنه تزوَّجها بالتوكيل، ولكنني قلتُ في نفسي: «لعل أهلَه قد زوَّجوه في غيبته فعلًا.» ولذلك لم أُعلِّق، وسألتُها إن كانت حصلَت على الدكتوراه أم لا، فقالت في غير اكتراث «الدكتوراه ليست عاجلة وأستطيع إكمالها فيما بعدُ.» واعترضتُ على ذلك فقالت بلهجةٍ جادة «ربما لم أُخلق للبحث العلمي. والأفضل لي أن أعمل!»

وذكرتُ المشهد الأخير من مسرحية الخال فانيا لتشيخوف، حيث يُعزِّي فانيا نفسه بالعمل، وتحلُم سونيا بالسعادة في العالم الآخر، وتألَّمْت. وكان أشد ما آلمني هو نبرة الهدوء والثقة التي كانت تتحدَّث بها كاثلين عما تنتوي فعله، ولم أكَد أصدق أن هذه هي الفتاة التي كتبَت تلك الخطابات المُلتهِبة. تُرى هل نقلَت بعض الفقرات من رواياتٍ أخرى لم أقرأها؟ وكنتُ أسترقُ النظر إلى وجه عبده أثناء حواري مع الفتاة فأجده جامدًا لا يُفصِح عن أي انفعال، ولم أشأ أن أُحادِثه خشيةَ أن يقول ما لا يريد، وبعد نحو ساعتَين نهضنا وعُدنا أدراجنا فاقترحتُ عليهما أن يتناولا الغداء معي ولكن كاثلين قالت إنها لا بد أن تُدرِك القطار (وإنها تركَت حقيبتَها في المخزن الخاص بالمحطة) مما زادني دهشة، فعرضتُ الذهاب معهما، ولكنها قالت إنها تُفضِّل أن تذهب وحدها، تاركةً «عبده» في صحبتي! ودون دموعٍ أو انفعالٍ صافحَتْنا ودارت ومضت. وتَسمَّرتُ في مكاني ذاهلًا كأنني أشهَد مشهدًا في روايةٍ خيالية!

٥

رحلَت كاثلين، وسرنا بخطواتٍ ثقيلة نحو المطعم، وبعد أن طلبنا الطعام وجدتُ أن تطلُّعي إلى معرفة ما حدث يكاد يذهب بشهيتي، فقلتُ له بطريقتنا المصرية المباشرة: «ماذا حدث؟» وأجاب وهو يتطلَّع إلى النادلة وهي تُحضِر الأطباق: «سأحكي لك كل شيء فيما بعدُ!» ولكنني ألحَحْت، وتصوَّرتُ أن مشاعره الجياشة سوف تغلبه فيبكي أو أن اللحظة غير مناسبة؛ فهو يُصِر على الصمت وقد خلا وجهه من أي تعبير. كان وجهه مصريًّا أسمر، به قَدْر لا بأس به من الوسامة، وقد زاده النحول جاذبية، وكان بيده منديل ما يفتأ يمسح به عينَيه قبل إحكام وضع النظارة الطبية. ورسم لي خيالي أنه يمسَح الدموع لا حبات العرق، فقرَّرتُ إرجاء الحديث إلى وقتٍ لاحق.

وعندما صَعِدنا إلى الغرفة قمتُ بإعداد الشاي، وفضَّلتُ أن أتيح له مزية المبادأة، لكن صمته طال فلجأتُ إلى الحيلة وقلتُ له: «لماذا لا تستأجر غرفةً كبيرة هنا تقيم فيها مع العروس؟» وضحك فتفاءَلْت؛ ومن ثَم بدأ يحكي في إسهابٍ تفاصيل محاولة هروبه منها (أي كاثلين) وكيف عَثَرَتْ على مسكنه الجديد بعد يوم أو يومَين، وكيف قبلَت في الظاهر جميع الذرائع الواهية التي قدَّمها تبريرًا لمسلكه، ثم أصبحَت تقضي سحابة نهارها معه حتى أنسَتْه العمل ولم يعُد يذهب إلى الكلية، وكانت — كما يقول — «لا تشبع من حُبه» وتُرسِل إليه خطابات تقول له إنه «شمس الفراعنة وسر الحياة»، بل

أَتَتْه من القِسْم المصري بالْمُتحَف البريطاني بمطبوعاتٍ عن اللغة المصرية القديمة وفكِّ رموزها، وبصورةٍ كبيرةٍ لحجر رشيد، ثم قالت له إنها تريد أن تتعلَّم العربية حتى تستطيع التفاهُم مع أهله، وبعد نحو ثلاثة أسابيع قالت له إننا علماءُ وعشَّاق، وإذا كان العلم لا وطن له، فالعشق لا وطن له أيضًا، وفي تلك الليلة «المنشودة» قالت له: «أعرف أن لديك سرًّا يمنعك من مبادلتي عاطفتي القوية.» وأكَّدَت له أنه مهما يكن من أمر هذا السر فهي على استعداد لمواجهته «حتى لو كنتَ متزوجًا!». وقال عبده:

«داهمَني الخوف منها، مثلما داهمَني الخوف على مستقبلي، ولمحتُ طوق النجاة، وكنت كالغريق الذي يتعلَّق بقشَّة، فكرَّرتُ ما قالته «حتى لو كنتُ متزوجًا؟» وقالت: «أنت متزوج ولا شك.» ثم عانقَتْني وقبَّلتني والدموع في عينيها قائلةً: «هذا هو العذر الوحيد الذي يمنعك من الانطلاق، ولطالما أحسستُ به في نظراتك الزائغة وتردُّدِك، فلا تخشَ شيئًا وصارِحني».» وقدَّمَت لعبده كوبًا آخر من الشاي فرشَفَه على مهَل، وبدا عليه الانفعال لأول مرة، ثم أردَفَ يقول إنها أخبرته أنها كانت دائمًا تُحِس أنه لم يكن «خالصًا» لها، وأنها كانت تُغافِل نفسها وتخدع عقلها أملًا في الاستيلاء عليه، وكانت تتصوَّر أن الأيام التي قضَتْها معه أخيرًا سوف تحقِّق غايتها، ولكن ذلك كان وهمًا؛ ومن ثَم رحلَت واتفقَت معه على اللقاء بعد أسبوع.

وعاد «عبده» بعد ذلك إلى الكلية، وقابل الأستاذ المُشرِف، واتفق معه على بعض الخطوات الخاصة بالبحث، وقال إن المشرف أحَس باضطرابه فطلب منه أن يمنَح نفسه عطلةً رسمية؛ فالفصل الدراسي كان قد انتهى يوم الجمعة ٢٢ يوليو، ومن حق كل طالب أن «يعيش»، وسأله «عبده» ماذا عساه يفعل فقال له: «اذهب إلى حي البحيرات في الشمال، وتعلم الاستمتاع بالطبيعة.» وطمأنَه على الدكتوراه قائلًا إنه سوف يسمح له بكتابة الرسالة في أكتوبر؛ فالنتائج التي حقَّقَها في المختبر تكفي، وضحك قائلًا: «نحن لا نتوقع منك بحثًا يأتي بجائزة نوبل!»

وقال عبده إن كاثلين لم تبتعد عنه أسبوعًا كما قالت، بل زارته في اليوم التالي وقالت له إنها عرفَت أن المسلم من حقه الزواج بأكثر من زوجة، وأنه ربما كان يفكِّر في اتخاذها زوجة ثانية، ولكنها لن تقبل ذلك، ولن تقبل أن تكون في المرتبة الثانية (وقد كتب عبده التعبير الذي استعملَتْه حتى يريني إياه وهو second fiddle قائلًا إنه يظُن أنها استخدمت فعل to play أيضًا)؛ ومن ثَم فقد قرَّرَت أن تتركَه لزوجته، وطلبَت منه تفاصيل الزواج، فقال لها إنه تزوَّجها بالتوكيل وإنها سوف تحضُر إليه يوم السبت

٢٧ أغسطس، وقال إنه لا يدري ما الذي جعلَه يحدِّد هذا الموعد؛ إذ كان حائرًا مضطربًا؛ لأنه يخشى أن تكتشف الحقيقة ولذلك فكَّر في أن يسافر إلى مصر وأن يتزوَّج فعلًا ولكن الأحداث لم تُمهِله؛ إذ قالت له برنَّة صدق لم يعهدها في فتاة من قبلُ: «فلنُسافِر معًا إلى حي البُحيرة أسبوعًا أو أسبوعَين، ثم أتركك قبل موعد وصول زوجتك بفترةٍ «معقولة»، على الأقل حتى تعتاد أن تنسى اسمي ولا تخاطبها بما كنت تناديني به (وهو كاثي)» ووافق عبده؛ لأنه كان كما يقول يشعُر بأنه قد وقع في فخ لا فكاك منه، وكان الحل الذي اقترحَتْه «معقولًا» وفعلًا سافرا أسبوعًا وقضيا ساعات جميلة كانت فيها مثال العاشقة المخلصة، تسهر على راحته وتفعل كل ما يتمناه حتى دون أن يطلبه، حتى تساءل ذات يومٍ بينه وبين نفسه لماذا لا يتزوجها؟ وكان يعجَب منها حين تصحو مبكرًا وتكتُب ما يشبه الخطابات الموجَّهة إليه، وكثيرًا ما يلمحُ الدموع في عينَيها خِلْسة، وإذا سألها قالت له: «لا .. لا شيء.»

ماريون زميلتنا في العمل في كوينز هاوس.

وما إن عادا من الرحلة، وكان ذلك يوم الجمعة ١٢ أغسطس حتى اتفقا على زيارتي في اليوم التالي، وكانت قد سمعَت كثيرًا عن محمد الذي يعتبره «عبده» أخًا أكبر يُشتهر «بتعقُّله واتزانه»، واتخذَت جميع إجراءات رحيلها إلى منزل والدها، وجاءا إليَّ وكان ما قصصتُه عند مقابلتهما. وقلتُ لعبده إنها كانت تبذلُ محاولةً أخيرة لإقناعه،

ولكنه قال إنها ذات إرادةٍ حديدية «وكان يمكن أن أتزوجها لولا شخصيتُها المسيطرة» وانطلق يرسمُ في خياله ما كان يمكن أن يحدُث له لو تزوَّجها وعاد بها إلى القاهرة، وقلتُ برنَّة الملاحظة العابرة إنها كانت ستكتشفُ كذبه عليها، فقال دون مبالاة: «لقد حدثْتني كاثلين عن رواية قرأَتها للكاتبة ميوريل سبارك Muriel Spark اسمها بوابة مندلبوم تُصوِّر فيها اليهود والعرب في القدس، وتُصوِّر فيها إحدى الشخصيات (واسمه علي) على أنه كذَّاب بالطبع والسجية، وقالت لي أكثر من مرة إنها تعرف أن العرب كذَّابون!»

وفجَعَني ما أسمع! «هل وطَّنَت نفسها إذن على أنك كذابٌ بطبعك وسجيتك لأنك عربي؟ ولماذا لم تُناقِشها في ذلك؟» وهَزَّ كتفَيه غير مكترثٍ بحماسي ثم غمغم: «كثيرًا ما كنتُ أكذب عليها في أشياءَ صغيرة فتضحك، وكانت دائمًا تقول: «لا يهمُّني ما تكذب عليَّ فيه ما دام حبك صادقًا، ودلائل صدقه واضحةٌ ساطعة!» إنها فتاةٌ عجيبة يا عم عناني! ولو كان الإنجليز جميعًا مثلها لخرب العالم!» ونظر في الساعة ثم نهَض، فنهضتُ وأنا أدرك أنه يريد الخروج لـ «شم الهواء»، وخرجنا وقال لي ونحن في الطريق إلى محطة القطار: «مرت بي لحظات قلقٍ حين كنا نزور الكنائس فأُصلي بالعربية؛ فأنا أصلي كثيرًا، وكنتُ أخشى أن تسأَلَني إذا كان يجوز للمسلم أن يصلي في الكنيسة، ولكنها لم تسأل هذا السؤال أبدًا!»

وعندما وصلنا إلى المحطة قلتُ له: «هل ستحاول الاتصال بها من جديد؟» فردَّ ضاحكًا «وأخون زوجتي معها؟!» فقلتُ بنفس النبرة الضاحكة: «لا بد أن أراها حين تصل يوم ٢٧ منه!» فقال «ضروري .. أُمَّال!» وهمستُ وأنا أصافحه حين وصل القطار: «ولا تنس أن تختار لها اسمًا طريفًا!» ويبدو أن ضجيج القطار طمَس صوتي، فقال وهو يجري للحاقِ به «ماذا؟» فصحتُ «ولا يهمك .. مع السلامة!» ومضى القطار بعبده، وعُدتُ إلى الغرفة، وكانت الساعة قد جاوزَت الخامسة، فوجدتُ أنه قد ترك خطاباتِ كاثلين وبعض أوراقها، ولا أدري إن كانت قد تركَتْها هي معه عامدةً أم سهوًا، فوضعتُها على رفٍّ عالٍ بجوار الكتب، وهبطتُ إلى غرفة التليفزيون لأُتابِع أنباء الثورة الثقافية في الصين.

٦

يوم الخميس ٨ سبتمبر ١٩٦٦م «موعد وصول حبيبتي» كان ذلك ما كتبتُه في المفكرة، وذهبتُ مبكرًا إلى المطار، كان الجو صحوًا، وكان في السماء سحاباتٌ لا تقوى على حجب ضوء الشمس وذهبتُ إلى مكان انتظار القادمين، وظللتُ واقفًا لا أجرؤ على تحويل عينيَّ

عن الباب الذي يخرجون منه، وفي نحو الواحدة ظهرًا رأيتُ نهاد تهبط السلَّم وهي ترتدي نظارة شمس وتحمل العود في يدها، وكنتُ قد أوصيتُها بإحضاره، وكان حمله مُربكًا ولم تكن قد اعتادته، فتعثَّرَت وكُسر كعب الحذاء، وقلتُ للحارس: «هذه زوجتي!» فابتسم وقال: «تفضل.» فهُرعتُ إليها لحمل العود، ولم نلبث أن أخذنا الحقيبة وخرجنا إلى الأتوبيس.

وبعد الدردشة العابرة قالت لي: «أين العمل؟ ألم تعِدني بأنني سأعمل؟» وضحكتُ وقلتُ لها: «ضروري إن شاء الله.» وكان حوارنا يتحول إلى الإنجليزية بسهولة ويسر، وما لبثنا أن وصلنا إلى الغرفة التي كنتُ قد اهتممتُ اهتمامًا بالغًا بتنميقها، وكانت نهاد رغم سهر الليلة السابقة متعطشة لرؤية المنطقة والحديقة وكل ما سمعَت عنه في خطاباتي، فخرجنا للغداء ثم للنزهة، وصحبتُها إلى مكان سوق السبت الذي يبيع المزارعون فيه منتجاتهم بأسعارٍ زهيدة، (قفص الطماطم بخمسة شلنات وكيلو الموز بشلن ... إلخ) ثم سرنا في شارع Bayswater المجاور للهايد بارك، ومَرَرنا بدار سينما ABC (وهي شركة لدور العرض السينمائية) فعرضتُ عليها مشاهدة فيلمٍ فكاهي رأيتُه من قبلُ وضحكتُ فيه «حتى قضقضتُ ضلوع صدري» كما يقول صلاح عبد الصبور، فوافقَت وقطعنا التذاكر ودخلنا، وكانت الساعة قد قاربت السابعة، ولم يكَد الفيلم يبدأ والظلام يسود، حتى خلَدَت نهاد إلى النوم العميق! وبعد انتهاء الفيلم عُدنا لتستأنف النوم الذي لم تكن ذاقَته في الليلة السابقة!

وخرجنا في الصباح إلى وسط لندن، وقضينا اليوم كلَّه ننهل من مباهج الطبيعة في الحديقة المجاورة، ثم سألتني جادةً: «أين الأحياء الفقيرة (slums) التي حدَّثتَني عنها في خطاباتك؟» فذهبتُ بها إلى منطقة المساكن القديمة في حي بادنجتون، وهي المساكن التي تُجاوِر محطة القطار ومخازن السكة الحديدية، وتصلُ في نهايتها إلى طريق إدجوير Edgware Road، ويطلقون عليها اسم المنطقة الغاربة twilight area (حرفيًّا المنطقة الغسَقية) ولكنها لم تَجِد فيها «الفقر» كما نعرفُه في مصر، وقالت لي إنها مساكنُ لا بأس بها، وقرأنا إعلانًا معلَّقًا على أحدها يعرض المنزل للبيع ويصف فيه صاحب المنزل منزلَه بأنه قد تم تحديثه؛ أي أصبح modernized ولم أكن أعرف حينذاك أن التحديث يعني إلحاق المرحاض بالمبنى نفسه؛ فالمنازل القديمة لا مرحاض بها، بل يُوجد المرحاض خارج المنزل في الحديقة الخلفية، ومرَرْنا على بائع السمك المقلي والبطاطس المقلية وهي الوجبة الشعبية التي تقابل الفول والطعمية عندنا، وقرَّرنا

محاكاة الإنجليز في تناول هذه الوجبة، فطلبنا طبقَين صغيرَين two small portions سعر الواحد شلنان، فلفَّهَما البائع في أوراقٍ خاصة مثل ورق الصحف (لكن دون حبر الطباعة) وعُدنا لتناول الغداء في الغرفة.

وذهبنا يوم السبت إلى السوق الشعبية فاشترينا الفاكهة والخضر وحملناها إلى الغرفة، وعشنا أيامًا طويلةً جميلة على ثمار الصيف الإنجليزي، ورحَّبَت نهاد بمسرات المشي مسافاتٍ طويلة في الحديقة المُجاوِرة (الهايد بارك) أو في الشوارع الفسيحة، ونحن نتبادل الأخبار ونخطِّط للمستقبل، وكنتُ أُحِس صادقًا أن غربتي قد انتهت، وأن الله قد منَّ عليَّ بحبيبة ورفيقةٍ رائعةٍ هي نهاد، وكان سَيْرنا معًا مضرب الأمثال في بيت الطلاب، وعندما حل الخريف قرَّرنا أن نفكر جديًّا في مسألة التحاقها بدراسة الماجستير، وكانت المصاريف الدراسية خمسين جنيهًا في العام، ولكن موعد التقديم كان قد فات، فقرَّرَت نهاد أن تلتحق بمعهد لدراسة الآداب واسمه London Literary Institute مصاريفُه ثلاثةُ جنيهاتٍ في الفصل الدراسي، وأنشأه مجلس حي هولبورن في شارع جانبي هو (Stukely Street) بالقرب من مسرح كفنت جاردن، وقريبًا من مكان عملي، وهو معهدٌ أهلي لا يمنح شهاداتٍ رسمية، ولكنه يمنَح الثقافة لمن يطلبُها ويتولَّى التدريس فيه أساتذةٌ جامعيون، ولا يضع أي قيودٍ من أي نوعٍ على التسجيل للدراسة، وعندما ينتهي الطالب (مهما يكن عمره) من دراسة المادة التي يدرُسها يُمنح شهادة بأنه انتهى من دراستها وتفاصيل تلك الدراسة إذا كان يريد ذلك.

وأنا أذكُر الآن تلك الأيام بشوق وحنين، ولربما أضفى خيالي عليها جمالًا زاد من جمالها الفعلي؛ فقد كان كل شيء جديدًا، وأصبحَت رحلة المسرح رحلةً ذات مذاقٍ فريد؛ فكثيرًا ما كنا نقرأ المسرحية قبل مشاهدتها ثم نناقشها بعد المُشاهَدة، واكتسبنا في رحلات المسرح عادة الدقة المتناهية في احترام المواعيد، فمن يتأخر عن موعد رفع الستار مهما كانت منزلته، ولو كان ذلك دقائقَ معدودة، لا يُسمَح له بالدخول، وما تزال نهاد تستمسك بهذه العادة في مصر رغم ما تعرفه عن عدم احترام المواعيد لدينا، وقاعة المسرح مثل قاعة المعبد مقدَّسة، لا يأكُل فيها أحد ولا يدخِّن (طبعًا) ولا يتكلَّم، ولا يُوجَد ما يُسمَّى بالمقاعد الخالية؛ فالمسرح «كامل العدد» دائمًا، وعند الدخول نشتري البرنامج المطبوع بشلنَين، ونرجع إليه في صمتٍ إن توافَر الضوء الكافي، وفي الاستراحة يخرج من يريد إما إلى الكافتيريا لشرب المرطِّبات (الشاي أساسًا) أو للتدخين، أو للحديث في صالة الاستقبال الرحيبة.

وازداد الخريف جمالًا عندما بدأَت الرياح تَعصِف بالأوراق الذابلة، وكنا قد اعتدنا أن نلتقي أنا ونهاد في فترة الغداء إما لديها في كافتيريا المعهد أو في مطعم من سلسلة مطاعم الليونز Lyon's Tea Shops (وأعتقد أنها اختفت الآن) وكان يقدِّم السلاطة بأربعة شلنات ونصف، وللطاعم أن يختار بنفسه ما يريد من الأطباق، فكان أول «بوفيه مفتوح» أراه في حياتي! لكن ألذ مذاقٍ سأظل أذكُره ما عشتُ هو مذاق ساندويتش الجبن الأبيض بالطماطم الذي أتت لي به نهاد ظهر ذات يوم من أكتوبر، وكان صحوًا مشرقًا، وكان من نوع الخبز الفينو الطويل، الذي يصفونه في إنجلترا بأنه «خبزٌ فرنسي»؛ إذ أضافت إليه نهاد قطعًا من الزيتون الأسود، فكنتُ أقضِمُه قضمًا بشهيةٍ لم أعهدها من قبلُ، ولا أظن أنني سأعرفها ما حييت.

إلى اليمين الأصلع ريمون مكلف ود. سامي أبو طالب أصدقاء العمل في كوينز هاوس.

وسرعان ما تعرَّفَت نهاد على الطلاب العرب من نُزلاء بيت الطلاب المذكور، وصرنا نتسامر معهم ومعهن أحيانًا في المساء، وفي نوفمبر حَلَّت طالبةٌ سودانية ظريفة اسمها فهيمة، فكانت تحدِّثنا عن السودان حديثًا يختلف عما كنتُ أسمَعه من أصدقائي السودانيين الآخرين؛ مثل بشير إبراهيم بشير (أستاذ التاريخ الآن) وفاروق اليماني (المتخصِّص في المكتبات) والدكتور حسن شريف (الطبيب النابه) وكنا نستمع إليها في شغف، وذات يومٍ انضم إلى الحلقة ثلاثة من أبناء المغرب، هم فتحية وابنة أختها غيتة،

وكان لغيتة أخٌ يُدعى محمد، وسرعان ما تحوَّلَت دفَّة الحديث إلى الأطعمة الشرقية فذكرتُ للمغاربة البامية المصرية (okra/lady's fingers) فأنكروا معرفتَهم بها، وشَرحَت لهم فهيمة أسلوب «عمل الويكة»، والملوخية البُرَاني، فقالوا إنهم يعرفون الملوخية لكنهم لا يعرفون البامية. وهنا تطوَّعَت نهاد بأن تُعِد لهم وجبةَ بامية مصرية (مع الليمون طبعًا والفلفل الأخضر) واتفقنا على ذلك في عطلة نهاية الأسبوع. وما إن فتحَت نهاد غطاءَ حلة البامية المطبوخة باللحم الضاني حتى صاح الجميع «الله! ملوخية!» واتضح أن ذلك هو اسمها في المغرب. ولن أنسى الحرج الذي أصاب فهيمة حين سألَتها فتحية المغربية: «لماذا لا تغيِّرين اللباس السوداني؟» وكان المقصود هو «التوب» ولكن الكلمة العربية الصحيحة أصبحَت تعني للمصريين والسودانيين شيئًا آخر.

وقرَّرَت إدارة البعثات زيادة مرتبي سبعة جنيهات (علاوة زواج) ولكن ذلك لم يكن كافيًا، فكان عليَّ أن أقضي المزيد من الوقت في العمل، حتى كاد العمل في الرسالة أن يتوقَّف، ولكنني كنتُ أُواصِل قراءاتي المتنوِّعة مع نهاد، وكان لديها من الجَلَد والصبر ما أعجَب له، وذكرتُ ذلك ذات يوم للمشرف فقال لي: «لا تقلَق .. النساء بطبيعتهن صبورات! ألا ترى الدجاجة وهي ترقُد على البيض؟» وكنا نتبادل الكتب فتنتهي هي من الكتاب في يومٍ أو يومَين، ثم لا أنتهي أنا منه في أسبوعٍ كامل! وبدأنا رَصْد التعبيرات الاصطلاحية التي نسمعُها في حياتنا اليومية أو في الراديو أو نقرؤها في الصحف، وخصَّصنا لذلك كشكولًا ضخمًا امتلأ حتى ضاق بما فيه، ولم يكن بردُ الخريف الخفيف يمنعنا من التريُّض، وكانت اهتماماتنا المشتركة تزداد عمقًا واتساعًا كل يوم، وأعتقد أن العالم الجديد الذي كنا نعيش فيه بعيدًا عن الأهل والأصدقاء القُدامى ساعد على هذا التعميق، وتدريجيًّا بدأَت نهاد تتعرف على زملائي في العمل، وكنا نتغلَّب على أي خلافات بالتفاهم الباسم؛ إذ حاولتُ أنا أن أحاكي الإنجليز في نبذ الانفعال، كما كانت تلجأ هي إلى استخدام اللغة الإنجليزية في أي خلافٍ مما كان يكسر من حدة الانفعال لديها، ويُضفِي منطقًا هادئًا على كل شيء.

وما إن علم الإخوان العرب في الإذاعة بأن لديَّ آلة العود الشرقية، حتى قرَّروا قضاء سهرةٍ موسيقية في منزل أحدهم، فزارني أكرم صالح الفلسطيني واصطحَبني بسيارته إلى ذلك المنزل، وبمجرَّد أن بدأتُ العزف، وكان اللحن الذي طلبوه هو «ودَّع هواك وانساه وانساني/ عمر اللي فات ما حيرجع تاني» لمحمد عبد المطلب (تلحين محمود الشريف) حتى وجدتُ الدموع تسيل من عيونهم، فكان معظمهم يُغالِب النهنهات،

خصوصًا «زغلول» وهو مصري فُرضت عليه حياةُ الغُربة فرضًا، فكان مقام الراست الشرقي يهز أعماقه، والإحساس باستحالة «عودة الزمن» يثير مكامنه، وكان الموجودون خليطًا من جميع البلدان العربية، وكلهم يبكي جرحه حتى حل الهزيع الثاني فانفَضَّ السامر، وأدركتُ أن العربي يحمل الوطن في قلبه إلى الأبد، وعندما عُدتُ إلى الغرفة كانت نهاد قد أوَت إلى الرُّقاد، فجلستُ وحدي أفكِّر في شتات اللغة العربية التي كانت تتناثر حولي، وكل كلمة ذاتُ جذورٍ تضرب في أعماق الوجدان وأعماق التاريخ.

٧

وفي ديسمبر فوجئتُ بصوتٍ لا أعرفه يُحادِثني في التليفون. قال إنه مصري انتهى من دراسة الطب وكان يقضي سنة الامتياز، لكنه كان طموحًا ويريد أن يصبح جرَّاحًا شهيرًا؛ ومن ثَم استخرج لنفسه «جواز سفر طالب»؛ لأنه إذا أكمل عام الامتياز وتخرَّج فلا بد أن يُعَيَّن في الأقاليم (أو في القرى والدساكر كما يُسمِّيها) واشترى لنفسه تذكرة طائرة، وأتى بتأشيرة خروجٍ سياحية، ذاق الأَمرَّين في استخراجها، إلى لندن. وأشار عليه أحد معارفه القدامى ممن سبقوه إلى لندن بأن يتصل بـ «عم عناني» حتى يُترجِم له ما يريد. وعندما قابلتُه وجدتُ شابًّا أسمر لوَّحَتْه الشمس، يتميَّز بخفة الظل والألمعية، ولا يتحدَّث إلا في الطب وأطلعَني على أوراقه الرسمية، وقال لي إنه يريد أن يتقدَّم للعمل في مستشفى مارلبون St. Mary Marylebone القريبة من منزل الطلاب، لكنه لا يريد أن يبدأ من الصفر؛ فمن كان طموحًا مثله لا بد أن يبدأ من القمة، وأفهمتُه أن ذلك لا يصلُح مع الإنجليز، أو مع الأوروبيين، وقصصتُ عليه قصة ناجي الحبشي عازف الفيولنسلُّو (الشيلُّو) المشهور، فعندما حصل على بعثة وذهب إلى إيطاليا للدراسة مع أشهر عازف كونشرتو (concertist) في أواخر الخمسينيات قدم نفسه على أنه عازف كونشرتو مصري، وكان ردُّ الأستاذ الإيطالي هو أنه ما دام كذلك فعليه أن يعود إلى مصر، وقال له: «العازفون يأتون إليَّ حتى يصبحوا عازفي كونشرتو! وما دمتَ قد أصبحتَ كذلك فعليك أن تعود إلى بلادك.» وبعد تدخُّل رجال البعثات في روما قَبِلَه الأستاذ ولكنه لقَّنه درسًا في التواضع؛ إذ فَرضَ عليه ألا يعزف شيئًا سوى السلالم الموسيقية وتمارين المبتدئين ثمانية أشهرٍ كاملة! ولكن سمير سيدهم (وكان ذلك اسم الشاب المصري) كان مُصِرًّا على المحاولة، فاقترحتُ حلًّا وسطًا يتمثل في أن يقدِّم «مشروع بحث» في عملية

الغضروف التي يحتاجها الرياضيون في مصر على وجه الخصوص دون أن يلجأ إلى الكذب في شيء، فإذا وافق مجلس أمناء المستشفى Board of Governors على المشروع عيَّنوه باحثًا، فإذا نجح استطاع دخول عالم الجراحة من الباب الصحيح. ووافق سمير وكتبنا المشروع وقدَّمه واختفى أسبوعَين أو ثلاثة، ثم جاءني صوتُه على التليفون مبتهجًا جذلًا؛ إذ وافق مجلس الأمناء، وعيَّن له اثنَين من الأطباء الإنجليز (physicians) يعملان تحت توجيهاته، بحيث يبدأ الفريق عمله على الفَور اعتبارًا من أول يناير ١٩٦٧!

كرستين في معمل الرياضة والفيزياء.

ولن يدهَش القارئ الذي يؤمن بذكاء المصريين إذا علم أنه لم ينقضِ عامان حتى نجح البحث الذي قام به فريق المستر سيدهم (وكانوا ينطقون اسمه سيدَمْ) وتم تعيينه أستاذًا مساعدًا بالمستشفى Senior Registrar وفُتحَت أمامه أبواب الترقي إلى درجة الاستشاري consultant ومن بعدها الأستاذ professor! وظللتُ أُتابِع أخبار المستر سيدَمْ شخصيًّا وفي الصحف طوال إقامتي في إنجلترا، والجرَّاح في إنجلترا لا يقولون له دكتور بل مستر، وكان يستشيرني في عُروض الوظائف التي تنهال عليه، وفهمتُ منه أن الجراحة فن وموهبة، وهي لا تحتاج إلى العلم الكثير بل إلى مهارة الأصابع والبديهة الحاضرة، وأن الجراح لا بد أن يستعين بطبيب يساعده في التشخيص ولا يضنُّ عليه بالمشورة. وقصة نجاح سمير سيدهم مثل قصة نجاح رماح البرعي وهو من أهم

الجرَّاحين في مستشفى وست ميدلسيكس (West Middlesex) ولكن القصة ستأتي في مكانها.

كاد الخريف ينتهي وحلَّت بوادر الشتاء، وفي يوم ١٤ يناير ١٩٦٧م وصل خالي الدكتور مصطفى كمال بدر الدين مع زوجته اعتدال، وبلغَتْنا أنباء رفع المصاريف الدراسية في الجامعات الإنجليزية من ٥٠ إلى ٢٥٠ جنيهًا في العام!

الفصل الرابع

النكسة

١

كانت أغاني أم كلثوم الجديدة بمثابة دقَّات الساعة التي نُحصِي عليها السنوات، وفي يناير ١٩٦٧، ونحن ما نزال نرشف من جمال ألحان عبد الوهاب في أغنيته الأخيرة لأم كلثوم («أمل حياتي») طلَع علينا بليغ حمدي بتُحفةٍ لا مثيلَ لها وهي «فات الميعاد». وشُغِلنا في الغربة بالطرب الحزين، وبدأ العرب من حولي يردِّدون: «ياما كنت أتمنى أقابلك بابتسامة» و«عايزنا نرجع زي زمان/قل للزمان ارجع يا زمان!» وذات صباحٍ بارد كنت في طريقي إلى العمل حين لمحتُ حشدًا من العرب أمام مبنى الإذاعة القريب، فدفعَني الفضول إلى التساؤل عما حدث، فلم أجد من الواقفين إلا إجاباتٍ مقتضبة مفادها أن أحد الزملاء واسمه «قيس» قد تُوفِّي، وأنهم سيتجهون للمشاركة في جنازته؛ فليس له أهل ولا أصحاب سواهم. ومن كان قيس؟

كان قيس الفلسطيني مذيعًا نابهًا «وقع» في حب فتاةٍ إنجليزيةٍ وتزوَّجها، وبدا للجميع أنه يعيش في سعادةٍ غامرة، ولكن الفتاةَ لم تلبَث أن قلبَت له ظهر المِجَن، ويبدو أنها كانت على علاقة مع شخصٍ آخر فطلبَت منه الطلاق فرفض، ولم يكن القانون الإنجليزي يسمح بالطلاق آنذاك إلا في حالةٍ من ثلاث حالات هي ثبوت الخيانة الزوجية (adultery) أو الهجر (desertion) (لمدة عامَين) أو القسوة النفسية (mental cruelty) وكانت أيسر هذه الحالات عمليًّا هي الحالة الأولى إذ يذهب أحدُ الزوجَين إلى فندق مع شخصٍ آخر (co-respondent) ويُسجِّلان اسمَيْهما في دفتر النزلاء، مما يُعتبَر دليلًا على وقوع الخيانة، وجريمة الزنا في ذاتها لا عقابَ عليها، ولكن توابعها المالية

باهظة، فالطلاق معناه اقتسام كل أملاك الزوج من عقارات ومنقولات وأموال سائلة بين المُطلَّقين، إلى جانب تحمُّل مصاريف التقاضي وهي تبلغ آلافًا مؤلَّفة. وقد تغير ذلك القانون عام ١٩٦٩م فأصبح يسمح بالطلاق أو قانونًا بإلغاء الزواج (decree nisi) في حالة انهياره دون أمل في الإصلاح (irreparable breakdown of marriage) ولكن القانون القديم كان ما يزال ساريًا آنذاك، وامرأة قيس تريد التحرُّر، وهو يعارض، وذات صباحٍ دَهمَتْه بسيارتها فأردَتْه قتيلًا.

وقع الحادث أمام منزلهما، تحت سمع الجيران وبصرهم، ولم يكن هناك أدنى شَكٍّ في أن القتل متعمَّد، وكانت جلسة التحقيق الأولى (the coroner's inquest) قد سجَّلَت ذلك، وأصبحَت الزوجة «مشتبهًا فيها» وإن لم تُوجَّه إليها التهمة فأفرجَت الشرطة عنها بكفالة (on bail). ولم تمضِ أيام حتى سمعنا من يقول إنها أتت بشهود يقطعون بأن فرامل السيارة كانت قد تعطَّلَت عن العمل، وأن توصيف الجريمة تحوَّل من القتل العمد (murder) إلى القتل الخطأ (manslaughter) ورغم توجيه التهمة رسميًّا إلى الزوجة، فإن بعض الجيران قد عدَلوا عن أقوالهم، وتناقضَت الأدلة، ولم تلبث أن ضاعت التفاصيل في أروقة المحاكم، ولم يكن لقيسٍ من يرثُه أو يطالب بحقوقه، ولم يكن له من يستطيع توكيل محامٍ للمطالبة بحقوقه أو إثبات الوقائع التي حدثَت، فأصدَرَت المحكمة بعد فترة حكمًا مع وقف التنفيذ، وعادت الزوجة إلى الحياة حرةً طليقة!

كان الوجوم الذي علا الوجوه في ذلك الصباح ذا جذورٍ عميقة، وكان العرب في لندن يشعرون بأنهم لا حَول لهم ولا طَول، وأن دمَ قيس المهدَر رمزٌ لما أهدروه حين اختاروا الحياة في الغربة، وكانت المناقشات تميل أحيانًا إلى العنف، وذات يومٍ كنت في مكتب ترجمة الخطابات، وكنتُ أقنعتُ سامي أبو طالب بأن يتقدَّم للوظيفة الشاغرة فتقدَّم وحصل عليها وكان يجلس مكان إفادات كيبرون، فسألتُه عن رأيه في مقتل قيس فقال بهدوء هزَّني هزًّا: «على من يقبل الحضارة المادية أن يتحمَّل النتائج!» فسكتُّ وعُدتُ إلى العمل، وعندما جاء عزت أبو هندية (وكان من عادته التأخر) وسأل عن سبب وجومنا وقلتُ له السبب قال بلهجته الدمياطية: «الإنجليزيات يدفعن إلى الجنون! وهذا سبب إحجامي عن الزواج!» ثم التفت إليَّ وقال لي: «لقد أحسنتَ بالزواج من مصرية، فسوف تعود معها إلى مصر .. إنها صمام الأمان.» ولم أفهم جميع دلالاتِ قول سامي وقول عزت إلا بعد سنواتٍ طويلة في الغربة.

٢

كان خالي الدكتور كمال (وهذا اسم شهرته) يزورنا كثيرًا في منزل الطلاب مع زوجته وكنا نتردَّد عليه كثيرًا؛ إذ كان يقيم قريبًا منا، وكان يتابع أخبارنا ويخرج معنا في رحلات نادي الطلاب العرب، فزرنا بعض المدن الساحلية والشمالية، وقمنا بنزهاتٍ كثيرة، ولكن رفع المصاريف الدراسية في الجامعات جعل نهاد تُصمِّم على الحصول على عمل؛ فدون الدخل الإضافي لن تتمكَّن من الالتحاق بالجامعة للدراسة (الماجستير مثلًا أو الدكتوراه) وذات يومٍ قادتني خطاي عَبْر الحديقة إلى الجانب الآخر منها، حيث رأيتُ سفارة السودان، وكنتُ أعلم أنهم يحتاجون إلى موظَّف في قسم العلاقات الثقافية الذي كان يرأسه حسن عباس (وقد علمتُ أخيرًا أنه تُوفِّي) فدخلتُ وسلَّمتُ وطرقتُ باب قسم العلاقات الثقافية فوجدتُ اثنتَين إحداهما في مقتبل العمر وسمراء، والأخرى في منتصف العمر وبيضاء تُسمَّى مسز مويلان (وهي أيرلندية) وحادثت الكبيرة عن الوظيفة، وقلت لها إن زوجتي تريد أن تتقدَّم لها وإنها مصرية. فسألَتني سؤالًا واحدًا: هل تعرف الإنجليزية؟ وقلتُ لها بل تعرفها خيرًا مني. فقالت لي أرسلها لي غدًا صباحًا. وفي الصباح ذهبتُ مع نهاد، وبعد دقائقَ معدودة قضتها في مناقشةٍ سريعةٍ خرجَت نهاد لتقول لي: اذهب أنت .. سأبدأ العمل اليوم!

كان الشتاء قد بدأ يطوي صفحتَه ولاحت بشائر الربيع، وكنا نخرج كل صباح فتتجه نهاد إلى الحديقة لتذهب إلى العمل سيرًا على الأقدام، وأركب أنا المترو إلى العمل، ومنه إلى الكلية، وكنتُ قد وضعتُ الجدول الزمني للانتهاء من الرسالة في مايو، حتى أستطيع أن أنتهي من إجراءات المناقشة قبل نهاية العام الدراسي، ولكن مايو أتى بما لم يكن في الحسبان؛ إذ وردَت الأنباء بأن العلاقات قد توتَّرَت بين إسرائيل وسوريا، وأن إسرائيل تحشُد قوَّاتها على حدود سوريا تمهيدًا لغزوها، أو على الأقل لاحتلال هضبة الجولان التي كان الفلسطينيون يستخدمونها في قصف المستوطنات الإسرائيلية. كنا حتى ذلك الحين نُتابِع أنباء الوطن دون حماسٍ كبير؛ فلكلٍّ منا مهمَّة عليه الانتهاء منها، ولا يستطيع طالبُ البعثة أن يَشغَل نفسه بالسياسة كثيرًا، ولكننا لم نستطع أن نتجاهَل أنباء التهديد بالغزو أو الحرب، وكانت الإذاعة والصحف المحلية مشغولة بنقل أنباء حرب فيتنام، وتورُّط أمريكا في تلك الحرب يزداد، والفظائع تهزُّ ضمائر الكُتَّاب والمعلِّقين السياسيين، خصوصًا استخدام النابالم (napalm) وقتل المدنيين العُزْل، وأحاديث الرئيس الأمريكي لندون جونسون مفزعة، والأهوال مخيفةٌ مرعبة، والإنجليز

د. مصطفى كمال بدر الدين وزوجته اعتدال، ود. نهاد صليحة.

ما يزالون يذكُرون أهوال الحرب العالمية الثانية ويعارضون في أعماقهم ذلك التورُّط الأمريكي الذي أصبح يتخذ صورة البطش السافر.

ولذلك فعندما تجمَّعَت سُحب التوتُّر والحرب في سماء الشرق الأوسط وجد فيها الصحفيون فرصة لتحويل الأنظار عن فيتنام، ووجَد فيها رجال الإعلام اليهود بصفةٍ خاصة فرصة لشغل الرأي العام بقضيةٍ أخرى أقرب إلى اهتمامات الإنجليز المباشرة، خصوصًا لأن الكثيرين من كبار السن في بريطانيا كانوا قد شاركوا في الحروب الاستعمارية القديمة، أو هم يذكُرونها بوضوح، وكانت منطقة الشرق الأوسط تمثِّل للكثيرين «مسارح شباب»؛ فالبعض حارب في الحرب العالمية الأولى، والبعض في الثانية، وكانت العراق وبيداء الشام وفلسطين والصحراء الغربية المصرية مناطقَ ذات ذكرياتٍ حية في نفوسهم، وكنتُ ما أزال أذكُر المستر بيفن وهو شيخٌ في أرذل العمر، يعيش في منزلٍ ضخمٍ ذي حديقةٍ فسيحة، وكان سامي أبو طالب قد أخذني لزيارته ذات يوم؛ لأنه كان يقيم في المنزل قبل الانتقال إلى فنزبري بارك، وكان أطرف ما حدَّثني به سامي عنه هو أنه كان يعتمد تمامًا على عجوزٍ ترافقه ليلَ نهار حتى تصوَّر سامي أنها زوجته، وعندما ذكَر سامي ذلك له هالَ المستر بيفن ما يسمع، وقال له ما معناه «حاشا لله أن تكون زوجتي. إنها ترعاني فحسب!» وكنتُ حين زرتُه مع سامي قد أيقظتُ حواسي كلها لالتهام ألفاظ ذلك الهَرِم، وكان يتحدَّث مثل الشخصيات المسرحية التي يصوِّرها

الكتاب (وكان قد ذكَّرني بشخصية سبونر في مسرحية «العزلة» لهارولد بنز) فهو يتكلم في عباراتٍ متوالية مثل طلقات المدفع ثم يردفها بسؤال إلى سامعه، دون أن يتوقع في الواقع إجابةً أو تجاوبًا، وانطلَق في ذلك اليوم يتحدث عن ذكرياته في العراق إبَّان الحرب العالمية الأولى، فأسهَب وأطال، وعندما أتت المرأة بالشاي ونحن نستمتع بدفء ذلك النهار، لاحظَت أن بيفن قد شردَت به الذكريات فقالت له مؤنِّبة: «يكفي ذلك يا كريس! تعلم أن ذلك مُضِر لك.» ولم أفهم ما تعني إلا بعد أن شرحَت لنا العجوز أنه كان ينسى نفسه حين يسترسل في ذكرياته ويتوقَّف عند حادثة أَسْره في شمال العراق، ثم يعاني من الكوابيس التي تأتيه ليلًا فيُصدِر أصواتًا مزعجة ويوقظها بصُراخه وعويله!

تذكَّرتُ تلك الحادثةَ بوضوح، ثم ذكرتُ أن مشرف النظافة في بيت الطلاب نفسه كان دائمًا يقول لي إنه حارب في مصر، وكان يستوقفني بعد عودتي أو إذا صادفَني واقفًا في الرَّدْهة ليُحدِّثني عن قناة السويس، وكذلك كان أحد البوابين — وكان فارعًا ذهب شعر رأسه ويلبس نظارةً طبيةً سميكة — وكان منظره يُوحي بالأستاذية والاحترام، وكان كثيرًا ما يُسِرُّ إليَّ بأخبار الطلاب، ويَهوَى الغمز واللمز، ولم أكن في البداية أفهم كلامه، ثم علمتُ منه فيما بعدُ أنه كان يعمل في سلاح التموين بالجيش البريطاني في فلسطين، وكان يمارس هواية تقديم الخدمات الغرامية للضباط (ويبدو أنه احترفها فيما بعدُ) إذ كان يتحدث بخبرة العارف المحيط ببواطن الأمور عن «الفتيات اليهوديات» ومزاياهن. ويبدو أنه كان حزينًا عندما اضطُر إلى الرحيل بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية ونشوب الحرب بين العرب وإسرائيل في عام ١٩٤٨م، وكنتُ أشعر من حديثه أنه يندم على تحويل الفندق إلى بيتٍ للطلاب؛ إذ كان يستطيع في الأيام الخوالي أن يواصل هوايتَه الخبيثة، وكان أسلوبه في الحديث يؤكِّد إتقانه لهذه الهواية (أو الحرفة) فقد كان يُحب الهمس والحديث الملتوي، ولكن دون حركات الأيدي، وكان ذلك هو أهم ما يفرق بينه وبين الطائفة التي ينتمي إليها أمثالُه في مصر.

هؤلاء الإنجليز الذين يقرءون الصحف يريدون أخبارًا عما يعرفونه، وهذا هو ما انتبه إليه رجال الإعلام فحوَّلوا دفة التركيز من فيتنام إلى الشرق الأوسط، خصوصًا وأنهم لم ينسوا هزيمة «إيدن» في عام ١٩٥٦م، والانتصار المعنوي الكبير الذي حقَّقه العرب على أطراف العدوان الثلاثي (بريطانيا وفرنسا وإسرائيل)، كما استغل الإعلام عداء الحكومة البريطانية لجمال عبد الناصر باعتباره الزعيم الذي ساهم في تقويض الإمبراطورية البريطانية، وكان ما يزال يعمل على مناهضة النفوذ الغربي في الشرق

الأوسط، بل ويحارب ذلك النفوذ عمليًّا في الجزيرة العربية، فكان اسمه رمزًا لما يُحب الإنجليز أن يحاربوه، وكان اسمه هو الراية التي يجتمع العرب في ظلها في كل مكان؛ فلقد كان «المعنى» الجديد والهُوية الجديدة للكيان العربي، وكنا نرفع الرأس في كل مكان فنحن من بلد ناصر، وكان الكثيرون يُحادِثوننا بتعاطُف المؤمن بالوجود العربي، وبالتاريخ العربي، وكانت أنباء التوتُّر في الشرق العربي باختصار موضوعًا حيًّا، يضمن لقُراء الصحف مادةً ساخنة.

وعندما تعالت أصوات بعض العرب تتهم عبد الناصر بأنه سمَح لقوات الأمم المتحدة بالمرابطة في خليج العقبة على أرضٍ مصرية، طلب عبد الناصر من أو ثانت (U Thant) وU (أو) تعني السيد فحسب، الأمين العام للأمم المتحدة سحب تلك القوات في ١٧ مايو، وانصاع «أو ثانت» للطلَب، وخرجَت الصحف البريطانية يوم ١٨ مايو ١٩٦٧م، تحمل أنباء انسحاب القوات الدولية، ونشرَت صحيفة الجارديان الصورة صباح ذلك اليوم (وكان يوم خميس) صورة جمال عبد الناصر بطول الصفحة الأولى، ومعها عنوانٌ مثير هو «عبد الناصر بطل العرب دون منازع». وعلى امتداد أسبوعَين كاملَين سادت أنباء «أزمة الشرق الأوسط» أجهزة الإعلام، وأصبحَت الحديث اليومي للعرب في كل مكان، وعندما قابلَني «سوخديف» الهندي في الكلية وفتح معي الموضوع قلت له: «لقد حان وقتُ محاسبة اليهود على ما فعلوه بأبناء فلسطين.» ولم يكن أحدٌ يدري بما يدور في كواليس السياسة الدولية، ولا داعي للإفاضة فيما أفاض فيه المؤرخون، وما كشف عنه محمد حسنين هيكل النقاب؛ فأنا أروي فقط ما حدَث لي في الغربة، وكيف عشنا تلك الأيام.

وتحوَّل كل اهتمامي باللغة الإنجليزية والأدب الإنجليزي إلى تساؤلات عن مدى الكذب الذي يَعمِد إليه أصحاب الصحف. إنه كذب من نوعٍ غريب؛ فهو لا يقدِّم ما هو «غير حقيقي» بل يَعمِد إلى اختيار عناصرَ بعينها من الصورة فيلقي الضوء عليها، ويُغفِل عامدًا غيرها من العناصر، وبعض الكُتَّاب قد يكون لهم العذر بسبب الجهل مثلًا، وإن كان الجهل عذرًا قبيحًا، ولكن الغالبية لا يعانون من الجهل بل يعملون لما أصبح يُسمَّى «مصلحة البلد» وهو تعبيرٌ خبيث لا يُقصَد به في الحقيقة إلا المصالحُ الماديةُ البحتة لفئة من المنتفعين بالنظام؛ فقد تكون تلك المصالح مصالحَ حزبيةً محضة ومن ثَم فهي مصالح الفئة الحاكمة، وقد تكون مصالحَ اقتصاديةً أساسًا، ولكنها في النهاية تُنسَب في لغة السياسة إلى «البلد». لم أكن مهمومًا بسبب ما تقوله الصحف؛ فأنا واثق

من عدالة قضيتنا ومما أعرف أنه يتفق مع المُثل العليا للأخلاق حتى في بريطانيا (بل وفي كل مكان)، سواء أكان مردُّها إلى البيوريتانية أم إلى النزعة التجارية. كنت ما أزال أثق في الإنصاف وفي الحق، وأثق قبل ذلك كله في نقاء نية زعيمنا، والجميع يشاركُني في ذلك، ولا أستطيع أن أكتُب عما لم أكن أعرفُه من ملابسات وأسرار، فأنا في الغربة أسمع ما يُقال وأقرأ ما يُكتب فحسب، وسموم الدعاية الإنجليزية لا تُقلِق بالي، بل تدفعني إلى التفكير فحسب.

وعندما تصاعدَت الأزمة لجأتُ إلى أحد زملائنا وهو الدكتور مسعد حجازي الذي عمل بعض الوقت ضابطًا وشارك في حرب اليمن، فبَثَّ في نفسي قدْرًا كبيرًا من الاطمئنان، ولكنني كنتُ في حاجة إلى أن أستمع إلى إذاعة القاهرة، فأتى محمد مصطفى رضوان بجهاز الراديو الضخم الذي يملكُه إلى غرفتنا وكان قادرًا على التقاط بث إذاعة مصر، واستمعنا في يوم الأحد ٤ يونيو إلى المؤتمر الصحفي الذي تحدَّث فيه عبد الناصر، وكان شامخًا مهيبًا، وجاءت أنباء الصلح مع الملك حسين، واستعداد الدول العربية الأخرى للوقوف إلى جانب مصر إذا نشبَت الحرب، فازداد اطمئنانُ الجميع، وأوَيْنا إلى مخادعنا هانئين.

وفي صباح الإثنين ٥ يونيو كنتُ قد قرَّرتُ عدمَ الذهاب إلى الجامعة؛ لأن الملكة الأم كانت ستفتح جناحًا جديدًا بالكلية، والأفضل في هذه الحالة هو العمل في قاعة الدرس ببيت الطلاب، وبعد فترة لا أدري كم طالت، وكانت عقارب ساعتي تشير إلى التاسعة، جاءني محمد مصطفى رضوان مهتاجًا؛ ليقول لي: «هل سمعت الإذاعة؟ لقد بدأت الحرب!» وحملتُ كتبي في عجلة وأعدتُها إلى الرفوف، وجلستُ في غرفتي معه (وكانت نهاد قد خرجَت إلى العمل) أستمع إلى صوت جلال معوض وهو يَهدِر، ويُعلِن إسقاط الطائرات الأجنبية، ثم وهو يعلن أن الأردن دخلَت الحرب وتقدَّمَت «واحتلت جبل المكبِّر في القدس.» وقلنا جميعًا الله أكبر! وتوافَد العرب علينا حتى امتلأت الغرفة، ثم جاءنا من يقول: إن الإذاعة البريطانية تزعُم أن الطائرات الإسرائيلية قد دمَّرَت الطائرات المصرية وهي في مرابضها على الأرض! كذبٌ فاضحٌ! وصِحْنا جميعًا هذا ما لا يكون أبدًا؛ فلقد فعلَها الإنجليز والفرنسيون من قبلُ، ولكن إسرائيل لا تستطيع أن تفعلها أبدًا! وخرجتُ إلى الطريق فاشتريت صحيفة المساء The Evening Star التي تصدُر أُولى طبعاتها في العاشرة صباحًا، فوجدتُ التفاصيل المُفزِعة عن ضرب الطيران المصري، وعن القتال الدائر في سيناء وفي هضبة الجولان وفي الضفة الغربية! مُحالٌ مُحالٌ مُحال! وعندما

عادت نهاد في الخامسة من العمل، لم يكن لنا همٌّ إلا متابعة الأنباء، فاجتمعنا في القاعة المخصَّصة للتليفزيون؛ حيث أذاعت الإذاعة جانبًا من الحديث الذي أَدلى به عبد الناصر، ثم تحقيقًا مصوَّرًا عن ضرب الطائرات المصرية، وقال المُعلِّق العسكري في النهاية: «لقد انتهت الحرب فعليًّا على الجبهة المصرية في الساعات الأولى من هذا الصباح، فلن يستطيع الجيش المصري أن يصمُد للقتال في سيناء دون غطاءٍ جوي.»

د. محمد نوح، د. محمد مصطفى رضوان عام ١٩٦٧م.

ويعلم الله كيف قضَينا تلك الليلة، وفي الصباح الباكر خرجَت الصحف جميعًا وعلى صَدْر صفحاتها خرائطُ وصورٌ فوتوغرافية، وتصريحاتٌ لا نهاية لها، وتعليقات، وكنتُ أُترجم ما أقرأ والعرب حولي يستمعون حتى حل المساء فانصرفوا، وفي صبيحة اليوم الثالث (الأربعاء) سمعتُ جلال معوض يقول إن تحوُّلًا قد وقع في سير المعارك؛ إذ تدخَّلَت طائراتٌ أجنبية فتأكدنا أنه يعني الطائرات البريطانية والفرنسية؛ ومن ثم أرسلتُ استقالتي إلى ماري بيرتون فمن المُحال أن أعمل في جهةٍ معادية، ولو كانت رسميًّا مستقلةً عن الحكومة، وانتابني مرضٌ غريبٌ لا أعرف وصفًا له حتى الآن؛ إذ كنتُ في شبه غيبوبة، فاستدعت نهاد الطبيب، وعندما فحصني بدت عليه علامات الحَيرة، وقال إنها إنفلونزا مصحوبةٌ بارتفاعٍ مفاجئ في الضغط، ووصف عدة أدوية خرجَت نهاد فأحضرتها، ومكثتُ في قبضة ذلك المرض أكثر من أربعٍ وعشرين ساعة، ونهاد

يعتصُرها القلَق ولا تُفارِقني، حتى تماثلتُ للشفاء واطمأنَّت، وأعلن الراديو قَبول قرار الأمم المتحدة بوقف إطلاق النار، وقال إن عبد الناصر سوف يوجِّه حديثًا إلى الأمة في المساء.

د. محمد نوح ١٩٦٧م.

واجتمع العرب في نحو الخامسة مساءً في غرفة سيدةٍ أردنية كانت حاملًا ولديها مِذياعٌ ممتاز يمكن الاستماعُ فيه إلى معظم المحطات العربية، وفي نحو الخامسة والنصف بدأ عبد الناصر حديثه فروى الخُدعة التي تعرَّض لها، ويبدو أنني لم أكن منتبهًا لدلالة ما يرمي إليه، ولم أنتبه إلا إلى السيدة وهي تصرُخ وتَلطِم وتقول: «لا لا يا عبد الناصر! لا تتركنا!» وكان لم يُعلِن بعدُ عن القرار الذي قرَّر أن يتخذه ولكنها أحسَّت بفطرتها بما يرمي إليه، فبدأ بكاءٌ وعويلٌ غريب؛ ومن ثم اصطحبتُ نهاد وخرجنا من المبنى وطفِقنا نسير ونسير كأنما لنستوعب ما حدث، هل نصدِّق ما تقوله الصحف البريطانية؟ هل وصل اليهود فعلًا إلى قناة السويس؟ وفي ثلاثة أيام؟ ألم نُحارِب حقًّا؟ هل دُمِّرَ سلاح الطيران المصري؟ وأهم من ذلك كله، هل فقدْنا عبد الناصر؟

ولم نعُد إلا في ساعة متأخرة، ولم نستغرق في النوم إلا همًّا وكمدًا، وفي التاسعة صباحًا طرَق أحدهم على الباب فقلتُ له تفضل فإذا به محمد مصطفى رضوان يقول لي إن الجماهير في القاهرة قد خرجَت في مظاهرات تُطالِب عبد الناصر بالعدول عن قرار

التَّنحي. ولم تغرُب شمسُ يوم الجمعة حتى قَبِل عبد الناصر أن يعود وإن استمرَّت الجماهير في الإعراب عن حبها وتأييدها له في اليوم التالي، وتنفَّسْنا الصعداء، وإن كنا ما نزال نتابع أخبار الحرب على الجبهة السورية، وكانت أنباء ضياع القدس قاتلةً، وضياع الضفة الغربية، وما إن حل الأسبوع الجديد حتى توقَّف إطلاق النار على جميع الجبهات، ستة أيام عصفَت بنا قبل أن تعصف بالجميع؛ فنحن نعيش وسط الأعداء، وكان موقف العرب الذين يعملون في الإذاعة لا يُحسَدون عليه، وكان الهنود يسألونني لماذا لم تُطلِقوا الصواريخ؟ وكان معظم الإنجليز لا يدرون حقيقةَ ما جرى رغم كَم الألفاظ الهائل المنهال عليهم ليلًا ونهارًا، وكان خالي الدكتور كمال يعتصِره القلَق على أسرته في الإسكندرية، فقَّرر الرحيل مع زوجته وقطع فترة عمله في لندن، وظل يتردَّد على شركات الطيران حتى وجد مكانَين على إحدى الطائرات بصعوبةٍ بالغة، وبتنا وحدَنا نُواجه صيف النكسة.

٣

وحاولتُ استعادةَ توازني فذهبتُ إلى الكلية لمقابلة المشرف، فحدَّد لي موعدًا في يوم الإثنين التالي، وعندما قابلَني بدا عليه التعاطُف وقال لي «ماذا كنتَ تفعل؟ الأنباء من مصر لا تساعد على التركيز!» وعجبتُ لتلك «المخافَضة» (understatement) في التعبير، وناقشتُه في مستقبل العمل، واتفقنا على أن نُحاوِل وَضْع الرسالة في صورتها النهائية في سبتمبر، وأن أتقدَّم للامتحان في أكتوبر. وعُدتُ للعمل الدراسي بانتظام، ولكنني لم أكن أستطيع التركيز فيما أقرأ، وكانت ليالي صيف يوليو مشحونةً بالكوابيس، وكنتُ أحلُم وأنا بعدُ يقظٌ أُحاوِل الاستغراق في النوم، كنتُ أحلُم حُلمًا لا يتغير ولا يتبدل، وهو أننا أعددنا الصواريخ سرًّا، وفاجأنا العدو فدمَّرناه تدميرًا، وكنتُ أسرح في تفاصيل الأسلحة التي سنستعمِلُها، ثم أرسم لنفسي صور الأنباء التي ستنقلُها أجهزة الإعلام، وما إن يُشرِق الصباح حتى نعود إلى النقاش فيما حدث، وكيف حدث — ولماذا حدث؟

ووصل إلى لندن بعضُ الضباط الذين أصيبوا في الحرب للعلاج، وكان من بينهم رائدٌ يُدعى حسيب أصيب بقنبلة نابالم في سيناء، وهذا النوع من القنابل المحرَّمة دوليًّا يُشعِل النار التي لا يُطفِئها شيء، ولحسن حظه كان يرتدي بلوفر ذا أكمامٍ طويلة وكان يرسل لحيته فخلع البلوفر المُشتعِل وأكلَت النار لحيتَه، وكنا قد خرجنا في رحلةٍ من رحلات نادي الطلاب العرب، فانطلق يقُصُّ عليَّ ما فعله الإسرائيليون، وكيف حاربوا،

وقال لي تفصيلًا كيف كانوا يُحاصِرون إحدى الكتائب بستٍّ وعشرين بطاريةَ مدفعية ولا يتوقَّفون إلا بعد تدمير الكتيبة، ثم ينتقلون إلى غيرها، ولا منجاةَ لكتيبة في الصحراء لا تملِكُ من سلاح الجو ما يُعوِّضُها عن العَراء المفزع. وتوالت لقاءاتنا مع القادمين من مصر، وتوالت متابعتُنا للصحف المصرية، حتى جاءت سميرة قنديل التي كانت تُعِد رسالةً للدكتوراه في الزراعة بعد أن جمعَت المادة العلمية من مصر وقالت لنا في أَسَى إن أهلها لم يعلموا أن اليهود قد وصلوا إلى القناة إلا في سبتمبر! وفي سبتمبر بدَا أن الجميع قد استعادوا توازُنَهم، وكثُرَت اللقاءات التي كنا نعقدها في نادي الطلاب العرب، ووصلَني خطاب من إدارة البيت يقول إنَّ عليَّ أن أرحل بعد أن انتهى العامان الدراسيان المسموح بهما، وكنتُ شاهدتُ العمل وهو يجري على قدمٍ وساق في بيتٍ قديمٍ قريب من بيت الطلاب في شارع ساسكس جاردينز Sussex Gardens وقد عُلِّقَت عليه لافتةٌ تقول إنه سوف يُصبِح بيتًا جديدًا للطلبة اسمه النادي الدولي للطلاب International Students Club فقدَّمتُ طلبًا وتحدَّد أكتوبر موعدًا للانتقال.

في سبتمبر رنَّ جرس التليفون، وسمعت صوتًا يتحدث بلهجةٍ إسكندرانيةٍ بها مَسْحة لا تكاد تبين من اللهجة غير المصرية، وقال إنه يحمل رسالةً لي من خالي الدكتور كمال، فهبطتُ إليه وقدَّمتُه إلى المديرة فحَجزَت له غرفةً مستقلة، وكان اسمه الدكتور محمد صدِّيق نوح، وكان طبيبًا يدرُس للحصول على الزمالة، وهو مولود في الإسكندرية من أمٍّ سَكندرية، وزوجته «فتان» سَكندرية، ولكن أباه سعودي؛ ولذلك كان يحمل الجنسية السعودية. وسرعان ما توثَّقَت عرى الصداقة بينه وبيني وبين نهاد، وعندما علم أننا نعتزم الانتقال إلى بيت طلابٍ جديد، قرَّر الانتقال معنا، وانتقل محمد مصطفى رضوان إلى غرفة في منزلٍ قريبٍ من المنزل القديم، وكان الأصدقاء السوريون قد رحَلوا بعد أن حصلوا على الدبلوم، وكذلك رحل الليبي عيسى موسى، بعد أن أنجب طفلًا لم يُسمِّه محمدًا، وتفرَّق الشمل، وكثَّر عام النكسة عن أنيابه، ولم تنقطع صلتُنا بالدكتور نوح حتى هذه اللحظة (١٩٩٩م)؛ فهو حتى بعد أن استقر في الرياض يتابع أخبارنا تليفونيًّا ونتابع أخباره ونحضُر أفراح أنجاله. أما محمد مصطفى رضوان فما يزال يتصل بنا تليفونيًّا من هولندا؛ حيث هاجر واستقَر، وأصبح من كبار أساتذة الهندسة الجوية (المساحة الجوية) في العالم، وبعد أن تزوَّج وأنجب ثم انفصل وتزوَّج، لكنه ما إن يشاهد أحدنا (أنا أو نهاد) في التليفزيون مثلًا حتى يتصل تليفونيًّا، وقد قال لي في

العام الماضي على التليفون إنه عندما يسترجع الماضي يجدُ لحظات نورٍ لا تنطفئ أبدًا عرفَها معي ومع نهاد.

كان الانتقال إلى المسكن الجديد يسيرًا؛ إذ استعَرنا عربة يد (wheel-barrow) من بيت الطلاب القديم، ونقلنا متاعنا وكُتبنا في رحلاتٍ متوالية لا أذكُر عددها، ثم استقر بنا المقام في غرفةٍ فسيحة ذات مِدفأةٍ كهربائية تعمل بالعُملات، ولها عدَّاد، وكان للمنزل سُلَّمٌ حلزونيٌّ طريف، وكنا نتلقَّى الخطابات من مصر ونرسل خطاباتٍ كثيرة، ولكن صدمة النكسة كانت تطاردني — في يقظتي ومنامي — ففي الغربة يصبح المصري مصر كلها، وعرفنا أصدقاءَ جددًا حول منضدة تنس الطاولة، وكان من بينهم شابَّان سعوديان مصابان بالصمم ويتعلَّمان النطق في مدرسةٍ خاصة، وكانا يُحادِثاننا بالعربية، وما زلنا نذكُر أنا ونهاد عبارتهما المشهورة «مخ مفيش» عندما يشيران إلى غباء الإنجليز! وكان صاحب المنزل هو القس لانكاستر الذي قضى شطرًا من حياته في مصر مع زوجته وكان يُحدِّثنا بشوقٍ عن أيامه فيها، ويتحدَّث عنها حديثَ المُحِب الوامق.

وفي سبتمبر ١٩٦٧م، هبَّت نسمةٌ منعشةٌ من نسمات مصر فأتت إليَّ في لندن بأستاذ شكري عياد، ولم أكن أتوقَّع مثل هذه المفاجأة الرائعة فاندفَعتُ في شوقٍ للقائه، وانطلَقنا نسير في شوارع لندن، ونستأنف حديثنا في الأدب الذي لم ينقطع من عشر سنوات مضت! كان يسأل وأُجيب، وأسأل ويُجيب، وعلى كَثرة ما سألنا وأجبنا لم نتطرق مطلقًا للسياسة، مما أعاد إليَّ بعض الثقة التي كانت قد اهتزَّت، كانت ثقة في النفس وفي مصر، وتنوَّعَت نُزهاتنا الثقافية فذهبنا إلى المسرح عدة مرات، وإلى السينما حيث شاهدنا فيلم «رجل لكل العصور» المأخوذ عن مسرحية روبرت بولت، وفيلم «ترويض السَّليطة» المبني على مسرحية شيكسبير، وشاهدنا مسرحياتٍ لتشيخوف وبرنارد شو وأوسكار وايلد، وكان دائمًا يتحمَّل تكاليف التذاكر، ويبدأ حديثه التليفوني بعد السلام بقولةٍ شهيرة هي: «أنا أدعوك.» فإذا عارضتُ قال لي «إنها دراهمُ معدودة!» وعندما حان موعدُ رحيله سألني عن موعد انتهائي من الدكتوراه فقلت له إنني ما زلتُ أعمل في الماجستير، فقال لي إنه يبدو من مناقشاتنا أنني أُسرِف في قراءة كُتبٍ خارج الرسالة، وقال لي بلهجة الجِد «كفاية صَرْمَحَة بين الكتب وخلِّص رسالتك!» وحاولتُ أن أعمل بنصيحته بعد رحيله لكنني لم أستطع! كانت زيارتُه كالحُلم، وأفقتُ في أكتوبر على واقعٍ يصعُب الفِرار منه، والكُتب المنوَّعة المتاحة بقروشٍ زهيدة لا يمكن مقاومة إغرائها.

كان أهم تأثير تركَه شكري عياد في نفسي هو السؤال المحيِّر «وبعدين؟» أي وماذا بعد أن ندرُس الأدب واللغة؟ وماذا بعد أن نقرأ إبداعاتِ الخيال وتصاويرَ الواقع؟ كان شكري عياد يطرح الأسئلة التي أُثيرَت بعد ذلك بعشرين عامًا في مؤتمر كيمبريدج عام ١٩٨٧م، حين انهمكَ فريقُ الأساتذة الإنجليز في تحليل معنى «الأدب الإنجليزي» أو ما يمكن تسميتُه بـ «فكرة الأدب الإنجليزي»؛ إذ اكتشفتُ آنذاك صِدقَ ما دعا إليه شكري عياد من إعادة النظر فيما يُسمَّى بـ «أدبية الأدب» وهي التي كان أصحاب البنيوية يَدْعُون إليها بل ويكادون يفرضونها فرضًا في فرنسا، وكنتُ مؤمنًا بها بحكم دراستي للنقد الجديد، وهو ما أتت به المدرسة الأنجلوأمريكية، وكان الإنجليز يُبْدون تحفظاتهم على كل جديد، ويستريبون بكلِّ ما من شأنه التشكيك فيما درجوا على اعتباره «صُلب» المنهج الأدبي، ولم أكتشِف إلا بعد عشرين عامًا ما وراء ذلك كلِّه، ولكنني لن أستبِق الأحداث فأعود إلى أكتوبر ١٩٦٧م.

كنتُ ولا شك أعيشُ في دوامةٍ يومية؛ فأنا في الكلية أقرأ كتبًا في غير الأدب، وفي المنزل أُحاوِل الكتابة فلا أستطيع، وكنتُ في كل يومٍ أتخذ قرارًا بالتركيز على الرسالة، ثم أعجَز عن تنفيذه، وبدأتُ أتساءل ولو تساؤلاتٍ عابرة عن دلالة ما يُقال وما يُكتب، ثم بدأتُ أستمع إلى القس لانكاستر وهو يتحدَّث إلينا في نبراتٍ واثقة حديث رجل الدين الذي يدعو للسِّلم بالمعنى النفسي والاجتماعي معًا، وتفتَّق ذهنُ إحدى الراهبات السابقات (بعد أن تحوَّلَت إلى موظَّفةٍ مدنيةٍ في المنزل) عن عقد ندواتٍ يناقش الطلاب فيها أمور الحياة، وكان الموعد في عطلة نهاية الأسبوع — يوم الأحد ٢٢ أكتوبر — وعندما اجتمعنا كنتُ أشعر بفرحٍ لم أعرفه من شهور؛ إذ قام رجال البحرية المصرية في اليوم السابق بإغراق المدمرة الإسرائيلية «إيلات»، وكان الجميع يقرءون صحف الأحد بحماسٍ شديد، وعندما بدأ النقاش وكان حول الحرب التي تدور في نيجيريا منذ فترة لإنهاء انفصال بيافرا (الإقليم الجنوبي المتمرِّد) قام أحد أبناء نيجيريا وهو مسلم من الشمال فتحدَّث بطلاقةِ لسان وفصاحةٍ يحسُده عليها أبناء اللغة، وأسهَب في الحديث عن دَورِ الغرب المشبوه في الدول الحديثة الاستقلال، وتحدَّث عن فظائع زعيم الانفصال، وفوجئتُ بأن الراهبة السابقة تكاد تعلم كل شيء عن ذلك، وتتحدَّث حديث الخبير عن الثروة النفطية في الجنوب، وعن دَورِ الشركات الأجنبية في الإيعاز للعقيد أوجوكو بمحاولة الاستقلال بها، وأن المطامع المادية هي التي كانت وراء محاولة الانفصال، وكنتُ أسمع لأول مرة تعبير «الشركات المتعددة الجنسية»؛ أي transnational corporations إذ قالت إن

شركة «شل» مثلًا هولندية وبريطانية معًا، وإن مبيعاتها السنوية تزيد على عشرة آلاف مليون جنيهٍ استرليني، وهالَني الرقم وكتبتُه في مذكِّرتي، وعندما انتهت سألتُها إن كان الرقم صحيحًا فأشارت إلى صحيفةٍ في يدها تضع هذه الشركة بين أغنى عشر شركات في العالم، وجاء دَورِي للحديث عن الشرق الأوسط.

كنتُ أشعر أن السياسة قد فُرِضَت عليَّ فرضًا، وأن اهتماماتي اللغوية والأدبية لن تنفصل بعد اليوم عما يجري في العالم، وأن قدَري في الغربة أن أعيش — كما يقول التعبير الإنجليزي — «فوق قمة الأحداث» لا داخلها؛ فالذي يعيش في بلده يعرف أنه واحد من ملايين، وأنه لا طاقةَ له على تغيير مسارها، أما في الغربة فالمرء يتصوَّر أنه يعرف أكثر من أهل البلد، ويتحدَّث في الشئون العامة حديث من يُعتد برأيه حتى ولو لم يملك القدرة على تغييرها، وكنتُ قد استمعتُ إلى خطاب ألقاه عبد الناصر قبل عشرة أيام تقريبًا يوجِّه فيه أصابع الاتهام إلى وكالة المخابرات المركزية الأمريكية، ويؤكِّد دورها في الحرب، ولا شك أن أحاديث الرئيس الأمريكي جونسون آنذاك كانت تشي بمعرفة ما لا يعرفه إلا أهل الاستخبارات، وكانت الصحف الإنجليزية تنقلُ عن الصحف الأمريكية بعض المعلومات التي تُعَد في مصر من الأسرار العسكرية، فعرضتُ على المجتمعين وجهة نظري وهي أن الهجوم الإسرائيلي على مصر وسوريا والأردن يمثِّل محاولةً من الغرب لإيقاف مسيرة النهضة، وأن له أبعادَه الثقافية التي لا تنفصل عن الأبعاد الاقتصادية والسياسية، ودفعَني الحماس إلى أن أقول إن أمام العرب حربَ بقاء، وإن بذل الروح في سبيلها يَهُون، ويبدو أنني انفعلتُ وتهدَّج صوتي فأشرتُ إلى أحد الأنباء الصحفية التي تقول إن رونالد ريجان حاكم كاليفورنيا آنذاك نصح جونسون بالتلويح باستخدام القنبلة الذرية في فيتنام، وقلتُ للحاضرين كيف تقبلون الحديث عما تُسمُّونه «محرقة» اليهود في ألمانيا النازية وتَنسَون محرقة الفيتناميين؟

ولم ينقضِ يومان حتى هاجم الإسرائيليون مصنع تكرير البترول بالسويس، وبدءوا حملةً لمهاجمة مدن القناة، وبقية الأحداث معروفة، ولكن كل نبأٍ يأتي من الوطن كان يعتصر النفس اعتصارًا، وكنتُ أتطلَّع في بطاقات «الصور الشعرية» التي أعكُف على تحليلها في الرسالة فلا أجد فيها إلا الخَوَاء! ولم أعُد أُطيق المناقشات، وكنتُ أسير في الشارع فأجد الفتيات يُعلِّقن صورة موشى ديان ذي العصابة حول إحدى العينَين، بل وجدتُ بعض الإنجليزيات ممن كنتُ أعرف إخلاصهن المسيحي قد اشتَرَين نجمة داود وصِرنَ يتباهَين بها! ودخلتُ مكتبةً ذات يوم بالقرب من المبنى الرئيسي للجامعة، وجعلتُ

أتصفَّح الكتب، ثم لمَحَتْني إحدى البائعات فجاءت تسألني إن كنتُ من مصر، ولم أكَد أُومئ حتى قالت: «كيف تسمحون لليهود بذلك؟ إنهم كلاب الأرض!» ولم أجد ما أردُّ به عليها، وسرعان ما جاءت فتاةٌ أخرى وجعلَت تحكي كيف يتآمر اليهود لإغلاق محل C &A الهولندي الأصل متَّهمين أصحابَه بأنهم يُعادون اليهود (معاداة السامية)، بل وأسهبَت في عتابي كأنما كنتُ المسئول عن الهزيمة! ولم أشتَرِ كُتبًا بل خرجتُ مهمومًا، وعلِمتُ عند عودتي أنني أستطيع الابتعاد عن ذلك كلِّه إذا انتقلتُ إلى شقةٍ مستقلَّة، وخصوصًا بعد أن قدَّمَت نهاد طبًا لدراسة «الماجستير» في جامعة Sussex في جامعة جنوب إنجلترا، ولم يعُد عليها أن تعمل، وخصوصًا بعد أن تعثَّر عملي في الرسالة شهورًا طويلة. وكانت الشقة في منزلٍ مجاور لمنزل أسقف سابق هو Bishop Creighton ولذلك أسمَوه منزل الأسقف كرايتون تيمنًا به، وكان إيجارُ الشقة المستقلة ثمانيةً وعشرين جنيهًا، فقدَّمت طلبًا، وفي نوفمبر جاءني الرد، وكان بالقَبول.

وفي أكتوبر أيضًا تلقَّى الدكتور نوح برقية تقول: «وصلتُ اليوم. توقيع خالد.» وحملتُها إليه فطار فرحًا، كان خالد هو ابنه الجديد، وقد رُزق به بعد رانده ورحاب، فأرسل يستدعي أُسرتَه إلى لندن، ولم تمضِ شهور حتى حضَرَت الأسرة، وأقامت في شقة في وسط لندن في شارعٍ اسمه إيفلين جاردنز، وصرنا نتزاوَر وتوثَّقَت العلاقة الأُسرية، كما انتقل محمد مصطفى رضوان إلى غرفةٍ مستقلةٍ مع زوجته هدى نصر، ورُزِقا في العام التالي بفتاةٍ أسمياها داليا، وما إن حل عام ١٩٦٨م حتى كانت كُل أُسرة قد استقلَّت واستقرَّت، وانتقلنا نحن إلى شقة في المنزل الذي كان يُشار إليه أيضًا باسم The Garden House في شارع بوثويل Bothweel، في حي فولام Fulham.

٤

كان المشرف دائم السؤال عن الرسالة، ولم يستطع أن يُدرك أبدًا أن النكسة السياسية قد تسبَّبَت في نكسةٍ عامة أصابت المصريين جميعًا، وكنا نُتابِع أخبار الوطن على البُعد، ونُحاوِل أن نعزل أنفسنا فلا نستطيع، لكننا بذلنا جهدًا كبيرًا في سبيل ذلك؛ إذ تركَت نهاد العمل، وعُدتُ للرسالة أُحاوِل تعويضَ ما فات، لكن التغيُّر في موقفي من الحياة الإنجليزية — خصوصًا على المستوى العام — كان قد بدأ يتضِح في سلوكي وفي قراءاتي، فأصبحتُ لا أصدق كل ما أقرأ، وتحديدًا في أجهزة الإعلام، وأصبحتُ أومن بضرورة

إعادة النظر في كل ما كنتُ قد بُهِرتُ به في عامي الأول، وكانت تلك عمليةَ مراجعةٍ مستمرة لم تتوقَّف حتى الآن، وقد مر بي حادثٌ تركَ أثَره العميق في نفسي، وأكد على ضرورة التريُّث والتمهُّل قبل تصديق أي شيء، ولو كان ذلك يتخذ صورة «نتائج علمية» وبخاصة في العلوم الإنسانية.

بدأ الحادث باعتراف أحد أساتذة علم النفس الاجتماعي بأنه زوَّر المادة الإحصائية التي استند إليها في إصدار أحكامه على المستويات الذهنية والنفسية لفئاتٍ مختلفة من سكان بريطانيا (وقد روى الحادثةَ الدكتور زكي نجيب محمود تفصيلًا فيما بعدُ في مقالٍ نشَره بالأهرام)؛ ومن ثَم اشتَعل الجدل حول مصداقية منهج الإحصاء، وامتد إلى صحة وموثوقية (validity and reliability) الاختبارات النفسية واختبارات معدلات الذكاء (Intelligence Quotient) وأسهبَت الصحف، وبخاصة صحف الأحد، في تحليل دلالة ذلك التزوير ومدى تدخُّل التحيزات السياسية والدينية والعرقية في الأحكام التي يُصدِرها «العلماء» على الزنوج مثلًا أو على الأيرلنديين.

وتوالت الأصداء حتى اكتسبَت أبعاد الأزمة حين طالب بعض الصحفيين بعزل ذلك الأستاذ وإدانته علنًا، وإذا بمجلس أمناء الجامعة يُصدِر حكمًا بتبرئته من كل شيء، وقال في حكمه: «إنه إذا كانت بعض الأرقام التي وضَعَها الأستاذ غير مستقاة من الواقع، فهي لا تتنافى مع الواقع، وهي منطقيةٌ وتتفق في مجملها مع ما توصَّل إليه غيره من الباحثين وما توصل هو إليه نفسه من استقراء الوقائع الثابتة.» ومن ثَم قرَّر مجلس الجامعة تثبيته في منصبه، واعتبار اعترافه بمثابة أداةِ غفران، وصكِّ اعتذار عن ذلك البحث، مما يؤكِّد أن سائر بحوثه صادقة وهي تؤهِّله لشَغْل منصب الأستاذية.

أي إن منطق المجلس كان يقول إن ضمير الأستاذ الذي استيقظ قد نجَّاه، وإن له ضميرًا قادرًا على الاستيقاظ دائمًا، ولكن المعترضين شكَّكوا في الفرضية، وكان من أشد المعترضين الأستاذ المشهور «هانز أيزينك» وهو يهودي من أصلٍ ألماني، كان ينادي مثلَ الأستاذ المتهم (والمعترِف) بالتزوير، بتفوُّقِ الجنس الأبيض، بل إن التشكيك في بحث ذلك الأستاذ جعلَه يعمل على امتداد أربعة أعوامٍ في تأليف كتاب أسماه تفاوت البشر The Inequality of Man نشَره فيما بعدُ، بعدَ أن وضع فيه أدلةً إحصائية لا يتصور أن أحدًا يستطيع أن يدحضها، وقد يبدو أن تلك مفارقة، وقدم لها الكُتَّاب تفسيرَين، كان الأول كما يلي:

يسود الاعتقاد في الأوساط العلمية الأوروبية أن التعميم خطأ، وأن القاعدة ذات الصحة المطلقة لا تَصدُق إلا على الجوامد، أما في العلوم الإنسانية فلكل قاعدةٍ شواذ، وعلى

كل مؤسسة (مجموعة من العلماء) أن تقدِّم من حينٍ إلى آخر كبشَ فِداء (a scapegoat) يُعتبر الحالة الشاذة التي تؤكِّد صحة مناهج سائر العاملين في كل مجالٍ على حدَة، وهكذا أراد أيزينك أن يكون ذلك «العالِم» هو كبش الفداء، وأن يُلفظ من مجتمع العلماء حتى تتوافر للآخرين المصداقية والموثوقية. وأما التفسير الثاني فكان كما يلي:

كان أيزينك قلقًا؛ لأن العالم المتَّهَم قد أدرج معايير «تاريخية» و«دينية» تتضمَّن إدانةً للجنس اليهودي؛ ولذلك فإن استبعادَه بسب «تزوير الإحصاءات» سوف يضمَن عدم المساس باليهود وإنكار القول بأنهم طائفةٌ تتسم بصفاتٍ نفسيةٍ معيَّنة مما قد يلقي بالشك على أبحاث أيزينك نفسه! ونادى أصحاب هذا التفسير بنشر بحث الأستاذ المتَّهَم (ولم يكن قد نشَره إلا في مجلةٍ متخصصة لم تُطبع منها سوى مائةِ نُسخة) وتوزيعه على نطاقٍ واسع حتى يستطيع العلماء أن يستبعدوا الإحصاءات المزوَّرة ويدرُسوا المنهج «التاريخي» و«الديني» الذي اتَّبَعه في التحليل.

وفي خِضمِّ المناقشات نشرت الصحف حادثة الدكتور أشرفي، وهو رجل من أفغانستان، وصَفُوه بأنه شعلة من ذكاء، جاء قبل عشر سنوات بشهادةٍ مزوَّرة من جامعة كابول تقول بأنه حصل على البكالوريوس في الطب النفسي، وسمَحَت له السلطات الطبية بممارسة المهنة، فبزغ نجمُه فيها وذاع صيتُه، واغتَنى وفتح لنفسه عيادةً كبيرة يعمل فيها كثيرٌ من الأطباء الإنجليز، وتزخر بالمرضات والأثاث الفاخر والأدوية والكُتب، ولم يعُد أحدٌ يتساءل عن تخصُّصه، لا سيما بعد أن أصبحَت عيادته كعبةً يحجُّ إليها أبناء الطبقة الراقية، بل وأصبح الأجانب يَؤُمُّونه، وخصوصًا ذوات الثراء الفاحش من الأمريكيات اللائي عَجزنَ عن شفاء أنفسهن في أمريكا!

كان المجلس الطبي البريطاني في حَيرة من أمره؛ فقد حكَم بشطب اسمه من سجل الأطباء بسبب عدم حصوله على درجةٍ علميةٍ تؤهِّله للعمل، وطالَب بترحيله إلى بلاده، ولكن وزارة الداخلية ترفُض ذلك لأنه تزوَّج من إنجليزية، وتجنَّس بالجنسية الإنجليزية، ولم يعُد لها سلطانٌ عليه! ومما زاد الطين بِلَّةً أن الأطباء الذين يعملون معه شَهِدوا له بمهارة لا تتوفَّر في كبار الأساتذة، وكتَبوا عريضةً ضمُّوها إلى طلب استئناف الحُكْم الذي أصدَره المجلس، وانقسَم الصحفيون ما بين مؤيد ومعارض للترحيل، وظهر أيزينك في التليفزيون البريطاني ليُعلِن إدانتَه الشديدة لذلك المزوِّر، وليشرح أسباب اعتقاده باستحالة نبوغ رجلٍ من أفغانستان، حتى من باب الاستثناء، مما أثار كثيرًا من المشاهدين.

وفي غضون ذلك تُوفِّي الأستاذ الذي كان قد اعتَرف بالتزوير، وفجأةً توقَّفَت أنباء المنافسات العلمية، وحلَّ في الصحف محلَّها نبأ هجوم رأس السنة الذي شنَّته قوات الفيت كونج على الأمريكيين، وإصدار الرئيس جونسون أمرًا بتكليف قرابة خمسة عشر ألفًا بالذهاب إلى فيتنام، ولم نعُد نعرف ماذا حدث للدكتور أشرفي، ولا ما انتهت إليه قضيةُ ترحيله، وكأنما الأرض ابتلعَتْه!

وفي غِمار ذلك كله، وكنا في يناير ١٩٦٨م، قمتُ مع الدكتور نوح بزيارة رماح البرعي! كان رماح — وهو سَكندريٌّ سمينٌ ضَحوك — طالبًا مُجدًّا في كلية الطب، ثم اكتشف بعد تخرُّجه أن فرصة عمله بالجراحة محدودة، وهي عِشقُه الأول والأخير، وكان قد خطب فتاةً صغيرة (بطريقة الخاطبة) لكنه شعر بأنه لن يستطيع تحقيق حُلمِه إلا إذا سافر، فقبل وظيفة جرَّاحٍ مبتدئ بإحدى مستشفيات الكويت، ودأَب على الدراسة استعدادًا لدخول امتحان الزمالة، ونجح في الجزء الأول، لكنه ظل يرسل المال إلى أهله والهدايا إلى خطيبته في مصر، وتصادف أن مرض أحد أمراء البحرين فجاء إلى العلاج في الكويت، وأجرى له رماح عمليةً ناجحة، فما كان من الأمير إلا أن بنى له مستشفًى خاصًّا، وفتح له أبواب الممارسة الجراحية على مِصراعَيها، وتمكَّن في أثناء ذلك من اجتياز الجزء الثاني من امتحان الزمالة في إنجلترا، فعرضَت المستشفى عليه وظيفةَ استشاري! وكان على رماح أن يقرِّر ما يفعل؛ إذ ارتبط قلبُه في الغربة بحب فتاةٍ كويتية، وخطيبتُه في مصر قد بلغَت الخامسة والعشرين وما تزال تنتظره، ولم يتردَّد رماح طويلًا بل ذهب إلى الإسكندرية، وزار أهل خطيبته وصارحَهم بالموقف، وعرض عليهم أي تعويضٍ ماليٍّ يطلبونه، وطلبوا ثلاثين ألف جنيه فلم يعترض، وأودَع لهم المال في البنك، وعندما أحسَّ بالرضا عاد إلى الكويت. وهنا عرض على حبيبته الزواج بشرط الإقامة الدائمة معه في لندن، فوافقَت وسافر العروسان!

وعندما زرناه حانت فسحة القهوة، فإذا به يُخرِج من درج مكتبه رغيفًا ضخمًا (فينو) وشرع يأكل بعد أن دعانا إلى مشاركته، وكلانا مثله نُحب الطعام، ولكننا اعتذرنا، فقال شارحًا: «أصل مراتي ما تحبنيش أجوع.» وأظن ظنًّا أن الساندويتش كان يتضمن لحمًا وبعض شرائح الطماطم والخيار، وكان رماح قد انتهى لتوِّه من عدة عملياتٍ جراحية ناجحة، وانطلق يحدِّث الدكتور نوح عنها، وكنتُ أُتابع مناقشتَهما بدهشة وإعجاب!

٥

كان اللقاء مع رماح البرعي، على طرافته، بالغ الأثَر في نفسي، فإذا كان قد أعاد لي بعض الطمأنينة بتأكيد ذكاء العربي ومهارته، فلقد أكَّد لي أيضًا أهميةَ ما قاله شكري عياد عن «الدلالة»؛ فالمادة الإنسانية التي يشكِّلها الأديب لا تقلُّ دلالتُها عن الصور والأبنية الجمالية التي يُنشئها أو يُحاكيها أو يقتبِسها ويُعِدُّ لها. وسواء قصَصتُ قصة رماح ببراعة القاصِّ المحترف أم رويتُها عاريةً عن الأشكال الأدبية التقليدية أو المُبتكَرة، فسوف تظل المادة الإنسانية زاخرة بالدلالات، وسوف يكون تجاوبُ القارئ العربي معها بمثابة الإجابة على سؤال شكري عياد «وبعدين؟» نعم نحن نحتاج إلى الأدب لأننا نحتاج إلى أن نعرف رماحًا، ونحتاج إلى أن نزيد وعيَنا بالحياة! وعندما ركبنا الأتوبيس الذي سوف ينقلنا إلى أقرب محطة للمترو، لاحظ الدكتور نوح أنني كنتُ شاردَ اللُّب، فسألَني عن سبب شرودي فقلتُ له: «أبدًا .. بس مستغرب شوية.» فأدرك أنني أفكِّر في قصة رماح، فقال بلهجة ابن البلد الصادقة: «أُمَّال لو شفت الأجهزة اللي عندهم!» ولكنني لم أكن مبهورًا بنظافة المستشفى ونظامها، بل كان ما يشغلُني هو ذلك الهمُّ الذي كُتب عليَّ أن أحملَه مدى الحياة — ألا وهو التساؤل مع شكري عياد عن الدلالة!

وعُدتُ إلى الرسالة أتأمل ما قطعتُ فيها من أشواط، وما بقي من جهد لا أقوى على بذله، وتساءلتُ من جديد: تُرى أستطيع أن أُقلع عن «الصَّرمحة» بين الكتب، وأنتهي من الرسالة عملًا بنصيحة شكري عياد؟! وقرَّرتُ أن أُحاوِل من جديد، وإن كانت الضائقة المالية تتطلَّب البحث عن عمل، وكنتُ أرجو أن يكون هذا العمل ذا طابعٍ مُنتظِم حتى لا أُكابِد هذا العَناء، ولجأتُ من جديدٍ إلى أصدقائي في الإذاعة، فوجدتُ أن الجميع يؤكِّدون أن بريطانيا لم تشارك إسرائيل في العدوان على مصر، وقال بعضهم إنني أخطأتُ حين استقَلْت، وإنهم سوف يرحِّبون بعودتي، ولكنني لم أتحمَّس لموضوع الخطابات!

وجاء نهاد خطابٌ من جامعة ساسيكس Sussex يقول لها إن الجامعة قد وافقَت على تسجيلها اعتبارًا من خريف ٦٨ بشرط اجتياز المقابلة الشخصية، وكانت عندما تقدَّمَت بطلبها أول الأمر طلبوا منها إرسالَ نموذجٍ من كتاباتها، فكتبَت بحثًا عن الروائي جوزيف كونراد عنوانه «ازدواج الوعي عند كونراد» ولاقى القبول، وتحدَّد لها موعدٌ للمقابلة، وذهبنا بالقطار إلى مدينة برايتون Brighton الساحلية، واتجهنا إلى الجامعة، وبعد المقابلة (وكانت مع الأستاذ ليرنر مؤلِّف كتاب كوميديات شيكسبير) قيل لها إنها

يجب أن تقيم في مكانٍ لا يبعُد أكثر من ١١ ميلًا عن الحرم الجامعي، ولما كان ذلك عسيرًا، فقد قدَّمنا طلبًا لالتحاقها بالمدينة الجامعية، وعدنا إلى لندن.

وعندما عُدتُ من الكلية في اليوم التالي وجدتُ خطابًا من منير عبد النور رئيس وحدة بحوث المستمعين يُخبِرني فيه أن قسم الاستماع بالإذاعة قد أعلَن عن مسابقةٍ للتعيين في وظيفة مُترجِمٍ للمواد الإذاعية التي تبثُّها المحطَّات العربية، خصوصًا نشرات الأخبار والتعليقات السياسية، وأنني يجب أن أُقدِّم طلبًا على وجه السرعة إن كنتُ أُحب هذا اللونَ من الترجمة! واتصلتُ تليفونيًّا بمنير عبد النور أسأَله عن التفاصيل فقال لي إنني أستطيع أن أعمل في عطلة نهاية الأسبوع وأتفرَّغ باقي الأيام للدراسة، وفرحتُ بذلك وقدَّمتُ الطلب، وتحدَّد يوم الامتحان، وذهبتُ إلى مبنى الإذاعة الرئيسي في لندن وكان الامتحان يستغرق ثلاثة أيام؛ الأول للترجمة التحريرية من العربية إلى الإنجليزية، والثاني للاستماع؛ نشرات عربية يستمع المتقدِّم إليها ويُترجِمها كتابةً فور سماعها، والثالث للمعلومات العامة بالإنجليزية. وكان عدد المتقدمين نحو عشرين من مختلف الأعمار والجنسيات، وكنتُ واثقًا من نجاحي.

وبعد نحو أسبوعَين جاءني خطاب يُحدِّد لي موعدًا للمقابلة الشخصية، فأدركتُ أن إجاباتي لاقت القبول، وكان مكان المقابلة خارج لندن، في مكانٍ يُدعى كافرشام Caversham وهي قرية على مشارف بلدة ريدنج Reading (تُنطق ردنج reding) التي تبعُد عن لندن نحو ٣٥ ميلًا يقطعها القطار في نحو نصف ساعة، وهي في منتصف المسافة بين لندن وأوكسفورد. وعندما ذهبتُ للمقابلة وجدتُ لجنةً من خمسة أشخاص، وتلفَّتُّ حولي أنظُر باقي المتقدِّمين فلم أجد أحدًا، فتفاءَلْت. ورأيتُ بين أعضاء اللجنة رجلًا قصيرًا أصلع الرأس، أسمر الوجه وعيناه خضراوان، كان يتكلَّم الإنجليزية بلكنةٍ أجنبية، وعرفتُ فيما بعدُ أنه مصري، واسمه حمدي الجمل، وكان رئيسًا لقسم الترجمة العربية. وكان من أعضاء اللجنة رجلٌ أحمر الوجه شعره أبيض ويتكلم الإنجليزية بلهجةٍ تشبه لهجة أبناء وسط أوروبا، عرفتُ فيما بعدُ أنه ألماني الأصل يُدعَى بريم Brehm ويعمل مراقبًا للإنتاج، أما رئيس اللجنة فكان مستر شرينجهام، الذي كان يعرف العربية وكانت زوجته مصرية! واقتصرتُ في حديثي على الإجابة على الأسئلة، وكنتُ صريحًا في كل ما قلتُه حتى لو أدى ذلك إلى ضياع الوظيفة، فقلتُ لهم إنني طالب، وإنني لا أنتوي العمل بالترجمة مدى الحياة، وإن هدفي الأوحد هو كسب المال، وإن زوجتي مصرية تعيش معي في لندن، وإنني لا أعتزمُ تركَ الشقة، فقال أحدهم:

ولكنك ستُضطَر أحيانًا إلى العمل مساءً وقضاء الليل هنا. فأسرع شخصٌ آخر وقال: يمكننا أن نهيِّئ لك سكنًا مؤقتًا ليلةً أو ليلتَين في الأسبوع. ثم انصرَفْت.

وبعد نحو أسبوعَين وصلني خطابٌ يقول كلامًا غريبًا: «إننا مهتمون بالطلب الذي تقدَّمتَ به، وسوف نُعلِمُك بالنتيجة قريبًا، ونرجو أن تُخطِرنا إذا التحقت بعملٍ آخر في هذه الأثناء.» كنا في مارس وكنتُ قد بدأتُ العمل من جديد في الرسالة، ووصل نهاد خطابُ القَبول النهائي من جامعة ساسكس، وكان ما لدينا من المال لا يكفي للمصاريف الدراسية، ناهيكَ بمصاريف المواصلات وإيجار الشقة! ولم ينقضِ أسبوعٌ آخر حتى جاء خطاب القَبول من الإذاعة، ويتضمَّن سؤالًا عن الموعد الذي أُحب أن أبدأ العمل فيه. وذهبتُ إلى المشرف أسألُه ما أفعل، فقال إن كنت ستنتهي من الرسالة في مايو فابدأ العمل في يونيو. واتفقتُ مع نهاد على أن تكون لندن هي قاعدتنا التي ننطلق منها إلى برايتون وردنج، ومن ثم كتبتُ الرد المطلوب.

وكان «بيت الحديقة» يتكون من أربعِ شقق، نسكُن في إحداها وتتكوَّن من صالةٍ كبيرة وغرفة نوم وحمَّام ومطبخ، ولكنها كانت تتسم بالرطوبة مما كان يصيبني بالكحَّة كثيرًا دون أن أُدرِك السبب، وإلى جوارها على الطابق الأرضي أيضًا شقة مماثلة يقيم فيها سوداني يُدعى عبد الحليم عباس وزوجته نجاة نجار، وفي الطابق العلوي (الأول عندنا في مصر) شقتان يقيم في إحداهما سودانيٌّ آخر هو الطبيب الجزولي دفع الله العاقب وأُسرته، وفي الأخرى نيجيريٌّ عملاق وزوجته الأجنبية (الألمانية) ويصل بين الطابقَين درَج تتوسَّطه بسطةٌ فيها تليفون مشترك لجميع السكان. ورغم الشهور القليلة التي قضيناها في ذلك المنزل فقد كنا نشعُر أنه بيت الأُسرة حقًّا، وسرعان ما توطَّدَت العلاقة بيننا وبين جيران الطابق الأرضي، فكنا نتزاور، خصوصًا لأن عبد الحليم كان شقيق حسن عباس (المستشار الثقافي بالسفارة السودانية) وكانت زوجتُه تعمل فيها، ولم يكن عبد الحليم قد انتقل إلى المنزل عندما انتقلنا إليه، بل كان يقيم في الشقة دارس للعلوم يُسمَّى محمد علي، وسرعان ما رحل مع زوجته والرضيع الذي وُلد في لندن.

وكان أمام البيت حديقةٌ فسيحة، وطريقٌ تقوم الأشجار على جانبَيه يؤدي إلى كوبري بتني Putny Bridge، وكثيرًا ما كنا نسير في الحديقة أنا ونهاد ونعبُر الكوبري، وكانت مناقشاتنا في الأدب والحياة لا تنتهي، وكانت «صداقتُنا» قد بدأت تتخذ طابعًا عميقًا جعل الجميع يَعجَبون ولا يصدِّقون أنه لم يمضِ على زواجنا عامان كاملان، وكانت تُحب القراءة مثلي وتُحب المسرح أكثر مني، فكانت تحفزُني إلى حجز التذاكر

بانتظام، ثم استأجرنا جهاز تليفزيون (إذ لم نستطع شراء جهازٍ لضيق ذات اليد) فكنا نشاهد البرامج الثقافية والدرامية، والأفلام أحيانًا، وأتقنَت نهاد فنَّ الطبخ، ولم تكن تهتمُّ به إلا قليلًا من قبلُ، وكانت لدينا في الشقة مِدفأةٌ عجيبة تتكوَّن من أحجارٍ بالغة الثقل؛ فهي قطعٌ مكعَّبة من الصخور الطبيعية ولها خاصية الاحتفاظ بالحرارة ساعاتٍ طويلةً وحولها مِلفٌّ كهربائي يعمل ليلًا حين يكون التيار الكهربائي رخيصًا ثم تحتفظ بالدفء طُول اليوم، ثم تعلَّمَت نهاد بنفسها الكتابة على الآلة الكاتبة، وعلى مدى شهور شُغل كلٌّ منا بالاستعداد لمرحلةٍ جديدةٍ في حياته — الدراسة لها والعمل لي والسفر لكلَينا!

نجاة النجار من السودان وجريس الهندية ١٩٦٨م.

وفي يوم ٢٩ مايو ١٩٦٨م (يوم الأربعاء) وصلَتْني برقيةٌ من كافرشام تقول إنني يجب أن أذهب في الغد لتوقيع العقد والشروع في العمل، ورافقَتني نهاد في تلك الرحلة، فسَعِدَت أيَّما سعادةٍ بجو الريف، ودخلَت معي مبنى العمل، ولم يستغرق توقيعُ العقد دقائق، ثم تجوَّلنا في الريف المحيط بالمبنى، وعُدنا أدراجنا إلى المنزل في لندن، وقد توارت أحزانُ الصيف الأليم في العام السابق تمامًا، وبدأنا نُحِس أننا على أعتاب حياةٍ جديدة. كنا قد اتفَقنا على أن أعود للدراسة (الدكتوراه) بعد أن تنتهي هي من الماجستير، ومَن

يدري؟ لعلنا ندرس معًا للدكتوراه! كان الأمل الذي يحملُه العمل هو وجود المال، وكان الافتقار إليه هو مصدر المتاعب الأول في حياتنا.

وبدأتُ العمل يوم الجمعة وكانت النوبة مسائيةً فقضيتُ الليل لأول مرة خارج المنزل في بيت ضيافةٍ مُلحَقٍ بالعمل يسمُّونه Sanatorium أي المصحة؛ لأنه كان يُستخدم مصحةً يومًا ما، وفيه تعرَّفت على بعض الضيوف الأجانب وقابلتُ — بعد أكثر من عامَين — عبد اللطيف الجمَّال! كان قد قضى العامَين في ألمانيا، ولا همَّ له إلا تعلُّم الألمانية، حتى حدثَت النكسة فعاد إلى لندن، وقد أفلس إفلاسًا تامًّا، حتى لم يكن في جيبه ثمن تذكرة المترو، وكان المتقدِّمون لامتحان الترجمة في ذلك العام قد رسَبوا جميعًا فتقدَّم هو ونجح، وبدأ العمل في يناير ١٩٦٨م، واستقر به المقام في بيت الضيافة ولم يكن يريد أن يغادره أبدًا! وعملتُ السبت والأحد وعُدتُ إلى لندن يوم الإثنين، ولولا صحبة الجيران الجميلة لما تمكَّنَت نهاد من تحمُّل الوحدة والوحشة!

كان عملي في أول أسبوعَين هو التدريب فقط، فكنتُ أُترَك وحدي في غرفةٍ صغيرة يُسمُّونها cubicle (أي المكعَّب) وأُترجِم ما أسمع بالعربية إلى الإنجليزية على الآلة الكاتبة، وكان من شروط التعيين القدرة على استعمالها بسرعةٍ «معقولة» هي ٣٥ كلمة في الدقيقة، وكانت سرعتي ٤٠، وإن كنتُ أذكُر أن زملائي في الإذاعة المصرية كانت تصل سرعتُهم إلى ٦٥ كلمة (مثل قريصاتي ونابليون طانوس) ولكن الترجمة عملٌ لا يأتي بالملال أبدًا؛ فالأساليب متفاوتة، والموضوعات منوَّعة، والصياغة تتطلَّب جهدًا خلَّاقًا، وعندما اطمأنَّ قلبي إلى سير التدريب، عُدتُ إلى الرسالة، وذهبتُ إلى الكلية في يوم الثلاثاء لمقابلة المشرف.

وعلمتُ منه أن موعد التقدُّم لامتحان هذا الفصل الدراسي قد فات، وأنه من الأفضل أن أنتظر إلى سبتمبر، خصوصًا حتى أستعدَّ للامتحان التحريري! ودهِشْت. أي امتحان؟! لم أكن أعلم أن هناك امتحانًا تحريريًّا في خلفية البحث (أي في القرن التاسع عشر كله) وأنني يجب أن أستعد له فلا يدري أحد من سيكون المصحِّح! وسألتُه عن الكتب التي يوصيني بقراءتها فوعدَني بإعداد قائمة، وفعلًا أرسل لي القائمة بالبريد، وكانت تزيد على ثلاثين كتابًا!

وخرجتُ أنا ونهاد فاشترينا بعض الكتب، وكنا نقرؤها معًا وتمتحنُني فيها، فكانت أيامًا حافلةً بالعمل المُمتِع، وأذكُر أنني جعلتُ أقرأ لها أشعار (بايرون Byron) وهي نصف مهتمة، ثم دارت الأيام وتخصَّصَت هي (في الدكتوراه) في مسرح بايرون! وفي

أوائل يوليو وصلني خطابٌ غريب من سمير سرحان يقول فيه إنه يكتب لي من نيويورك بعد زيارة واشنطن للاستعداد للسفر (بالحرف الواحد «للسفر! أي والله للسفر! فلقد حصَلتُ على الحبيبة وسوف نسافر أنا ونهاد في منتصف الشهر القادم») ويقصد بالحبيبة الدكتوراه، أما نهاد الأخرى فهي نهاد جاد زوجتُه (رحمها الله).

وفرحتُ فرحًا شديدًا إذ قال إنه سوف يتوقف في لندن ليراني وحتى نصل ما انقطع ولكنني أستبقُ الأحداث هنا؛ فلم يكن صيف ١٩٦٨م بأهدأ من صيف ١٩٦٧م، وإن كان في جبهاتٍ مختلفة، فلأعُدْ إلى أوائل يونيو وما كنا بصدَده في ذلك الشهر، بعد أن سمعنا عن احتكاك الاتحاد السوفيتي بالنظام في تشيكوسلوفاكيا بعد تولِّي دوبتشيك الذي كان يدعو للإصلاح السياسي مقاليدَ الحُكم في ذلك البلد، وبعد أن سمعنا إدوارد هيث، زعيم حزب المحافظين الذي كان يمهِّد لتولِّي السلطة في المستقبل بعد حزب العمال، وهو يتفاخر بأن القوات الأمريكية قتلَت عشرة آلاف فيتنامي في حملةٍ واحدة! كان العالم يتغير بسرعةٍ أكبرَ مما توقعت!

الفصل الخامس

النهر والروافد

١

إذا كانت الكتُب التي عكفنا عليها أنا ونهاد في ذلك الصيف هي التيار الرئيسي لما نكتسبُه من معرفة، فلقد كانت لمجرى النهر روافدُه وهي دفقاتُ الوعي التي تصُب فيه وتختلط به، فتُكسِب المياه ألوانها الخاصة ومذاقها المتميز، وأعني بدفقات الوعي إدراكَ كلٍّ منا لما يجري من حوله في العالم، وقد تلتقي هذه الروافد وقد تتعارضُ ولكنها تمتزج في التيار الرئيسي آخر الأمر، وكانت الصحفُ اليومية وصحفُ نهاية الأسبوع هي المصدر الرئيسي لوعي كلٍّ منا، وكلما أضيف رافدٌ جديد إلى تيار الماء تغيَّر لونُه واتسع مجرى النهر، وكان من هذه الروافد في صيف ١٩٦٨م أنباء ثورة الطلاب في فرنسا، وكان يُقال إنهم يثورون على البِنيوية باعتبارها مذهبًا فلسفيًّا ونقديًّا لغويًّا، وراعتنا ردودُ الفعل الإنجليزية إزاءها؛ فرئيس الجمهورية شارل ديجول رجلٌ شامخ وشخصيةٌ ساحرة ولكن الإنجليز يقولون إنه يفكِّر بعقلية القائد العسكري الذي يعتبر الثورة تمردًا والتمرد خيانة، وزعيم الحزب الاشتراكي فرانسوا ميتران، الذي كان في الثانية والخمسين تقريبًا، يتحدَّث بتؤدةٍ وبمنطق الخبير، فيكتسب الأنصار من الشباب، ويتوسَّل في ذلك برأس حربة (على حد تعبير الصحف الإنجليزية آنذاك) تتمثَّل في كوهين بنديت، الذي كان يُطلَق عليه زعيم اليسار الجديد، وكان عالي النبرة حادَّ التعبير، فاتَّبَعه ملايين الطلاب، وأغلَقَت جامعة السوربون أبوابها للمرة الأولى منذ إنشائها قبل ٧٠٠ سنة، وامتد الإضراب ليشمل العمال والموظَّفين وكادت فرنسا أن تواجه الشلل الكامل في الحياة العامة، ولم تكن الصحف البريطانية تُبدِي التعاطُف مع أيٍّ من الطرفَين؛ فبريطانيا تنفر من «شخصية» ديجول لأنه يمثِّل الوطنية المتطرفة، ولأنه كان يُذكِي في النفوس الكبار نار المنافسة القديمة بين إنجلترا وفرنسا على سيادة «ما وراء البحار»

إبَّان عصر الاستعمار القديم، وبريطانيا تخاف اليسار الجديد؛ لأنه يذكِّرها بالثورة الفرنسية ويهدِّد بنشر أفكار التغيير في بلدٍ أشَد ما يُقضُّ مضجعه هو التغيير الثوري؛ ولذلك لم نجد في الصحف التي نقرؤها تحليلًا لجذور الإضراب والاضطراب بل أنباء «الفوضى وغياب النظام الذي يُنذِر بالخراب».

ولما كنتُ قد أصبحت شكَّاكًا أومن بالتريُّث وبعدم التسليم بصحة أي شيء قبل التحقُّق منه، فقد لجأتُ إلى المستر ويلكينز (Wilkins) أستاذ اللغويات (علم اللغة) الذي كان متخصصًا في اللغة الفرنسية، والذي كان كثيرًا ما يُحدِّثنا عن المناهج النقدية واللغوية الجديدة، ومنها البِنيوية، وكانت له زوجةٌ فرنسية، وكانت تربطه علاقةٌ حميمة بكلية بدفورد وكان يزورها بانتظام قبل الانتقال (وهذه من المصادفات العجيبة) إلى جامعة ردنج التي انتقلتُ إليها فيما بعدُ. وكان ويلكينز دائم التردُّد على غرفة الأساتذة (استراحة الأساتذة والدراسات العليا) وكنا يوم الثلاثاء ٤ يونيو ١٩٦٨م حين قصدتُ إلى الاستراحة المذكورة فلم يَخِب ظني؛ إذ كان واقفًا وحده بجانب الباب الزجاجي المفضي إلى الحديقة (French window)، وعندما شاهدَني حيَّاني وقال لي: «الكلية مهجورة هذا الصباح.» وفهمت أنه يستفسر عن سبب غياب الأساتذة دون مُبرِّرٍ ظاهر، رغم أن يوم الثلاثاء يوم عملٍ مهم، فذكَرتُ له أن الجميع يتناولون مأدبةَ غداءٍ رسمية أقامتها الكلية للمديرة (Principal) التي تقاعدَت (وهذه هي الوظيفة الإدارية التي تتضمن مهامَّ العميد لدينا ولكنها ليست وظيفةً أكاديمية).

وبعد الكلمات التقليدية عن جوِّ يونيو، وهم يُسمُّونه يونيو الملتهب (flaming June) (وتستخدم هذه الصفة على مستوى اللغة الدارجة باعتبارها من ألفاظ السِّباب، ربما بسبب إشارتها إلى الجحيم) سألتُ الأستاذ عن سر استمرار هياج الطلبة بعد أن وافقَت الحكومة الفرنسية على رفع المرتَّبات بنسبة «غير معقولة» هي ٣٥٪، فكنتُ كمن ألقى بحجر في الماء، فانداحت الدوائر التي تتسع باطراد؛ إذ شرح بإيجاز أن نظام التعليم الفرنسي يقوم على التلقين (instruction) لا على التربية (education) وأسهَب في تِبيان الفرق، وهو ما كنتُ أعرفه خير المعرفة، ثم قال ما لم أكن أعرفُه وهو أن اعتراض الطلاب على ما تُسمِّيه الصحافة البريطانية بالمناهج أو بالمقرَّرات المعتمدة قديم، وثورتهم عليها «موثَّقة» (أي مسجلة) في العديد من مطبوعاتهم ونشراتهم التي ازداد عددها زيادةً مذهلة في الخمسينيات، وكان من دوافعها الباطنة تيار التمرد الذي اجتاح العالم الغربي كله بعد الحرب العالمية الثانية، فالكل يثور على تُراث الحرب؛ لأن الحرب كانت تمثِّل لهم

قمة العبث (the absurd) أو البلاهة (العبط!) لأنها دمَّرَت وأهلَكَت دون معنًى ودون دلالة.

وفي نبرة حماسٍ نادرة قال ويلكينز: «ولكن المِرجَل الذي يغلي سنواتٍ طويلة لا بد أن ينفجر يومًا، وهو يثور على رموز القديم، رموز الحرب، والألفاظ الطنَّانة المرتبطة بذلك كله، والتي تتدفَّق من رمز الحرب الأول ديجول!» فقلتُ له وما شأن البِنيوية باعتبارها مذهبًا في اللغة وفي التحليل النقدي بديجول؟ فابتسم وقال: «هذه هي القضية! ينبغي ألا يكون لها شأن! ولكن القنبلة كان لا بد لها من فتيلٍ يفجِّرها، وكانت الثورة على البِنيوية هي هذا الفتيل!» وابتسمتُ وقلتُ له مداعبًا: كان أولًا مِرجَلًا caulderon ثم أصبح قنبلة؟ فضحك وقال أنت لا تقبل خلط الاستعارات مثل البِنيويين! وأحسستُ أن الجو قد هدأ فاستزدتُه فقال: «يتفاخر الفرنسيون بأنهم ملوك تحليل النصوص، وهم يعتَزُّون كلَّ الاعتزاز بطاقة «العقل الفرنسي» الإبداعية على الغوص وراء العلاقات المتداخلة بين المعاني والأبنية، ويرون أن آفاق التحليل «لا محدودة» بل و«لا نهائية» فإذا ببعض الأساتذة يَدْعون إلى اتباع أساليبَ شكليةٍ محضة، بل ويقطعون بأنها صادقة دائمًا؛ لأنها مثلُ نُظُم الأبنية النحوية في اللغة، ذات جذورٍ عميقة في نفس الإنسان بل وفي حياته البيولوجية، وإذا بهم يُحاوِلون تلقينها للطلاب!» وقلتُ له إن لهذه الأبنية جاذبيتها ودلالتها، والدراسة الأدبية تؤكِّد فائدتَها في التحليل، وقبل أن أسترسل قاطعَني قائلًا: «أنا لا أنكر ذلك، ولكن الطلاب كانوا يريدون أن يثوروا، وبدءوا بالثورة على من يفرض عليهم منهجًا، خصوصًا إذا كان المنهج «مستوردًا» من الشرق ومن الغرب!» وفهمتُ أنه يشير إلى ياكوبسون (جاكوبسون) الروسي وتشومسكي الأمريكي، فقلتُ له إن المعرفة عالمية، وإن الأدب هو الأدب، فأومأ وعلَت وجهَه سحابةُ تأمُّلٍ عميق، ثم قال: «للأسف! لم ينظر أحد إلى البِنيوية باعتبارها منهجًا قابلًا للنقض، بل اتخذها الطلاب ذريعةً لتفريغ شحنة غضبهم من نظام التعليم الفرنسي، ومن ورائه نظام الحياة برمَّته وقالوا إنه كان يجب بعد الحرب أن يتغير فإذا به يتحجَّر! إن ديجول ما يزال يُعلِن عظمة فرنسا، وبالأمس زار مقاطعة كيبيك في كندا وقال إنها فرنسية، ورغم استقلال الجزائر فما يزال يشير إليها باعتبارها أرضًا فرنسية!»

ونهض ويلكينز ثم نظر في ساعته فعلمتُ أن الموضوع أكبر من أن يُحسَم في ساعة الغداء، فنهضتُ أنا أيضًا وسِرتُ معه ونحن نستكمل الحوار في الطريق إلى سيارته، وعندما فتح باب السيارة قال لي: هل قرأتَ دريدا (Derrida) فأجبتُ بالنفي، فقال سوف

تسمع عنه كثيرًا وتقرأ له، وسوف يُهلِّل الفرنسيون له ويكبِّرون لأنه فرنسي وإن كان جزائري المولد! وهو لا يبني بل يهدم! إنه روح هؤلاء الشباب! وانطلَق بسيارته باسمًا.

وعدت إلى المكتبة حيث كان عليَّ أن أَفرغَ من تنظيم قائمة المراجع التي ستُوضع في ذيل الرسالة، وكانت المكتبة شبه خالية؛ فالشمس ساطعة والحديقة تُغرِي الجميع بالتنزُّه، ولكنني كنتُ راضيًا بالنظر من الشُّباك الكبير بين الفَينة والفَيْنة إلى النباتات اليانعة بلونها الأخضر الزاهي، وأحواض الزهور المتناثرة هنا وهناك، ثم العودة إلى أوراقي. وفي الخامسة مساءً خرجتُ أسير وحدي وأنا أفكِّر فيما قاله أستاذ علم اللغة، وعندما وصلتُ إلى المنزل وجدتُ نهاد تتحدَّث بحماسٍ عن ثورة الطلاب في فرنسا، وشاهدنا أخبار الساعة السادسة في التليفزيون، وكان أهم ما فيها قرار العمال الفرنسيين بالإضراب يومَي ١١ و١٥ يونيو، وبعدها تناولنا العشاء وعُدنا للقراءة.

في الحديقة عام ١٩٧١م.

وذهبتُ إلى كافرشام يوم الخميس مساءً وقضيتُ الليلة في بيت الضيافة وفي الصباح زرتُ عبد اللطيف الجمَّال في غرفته فوجدتُه يقرأ رواية بالألمانية لتوماس مان، وجعل يحدِّثني عن ذلك الكاتب حديثًا مسهبًا، واقترح ألا أعود إلى لندن وأن أقضي اليوم معه، فأخبرت نهاد تليفونيًّا، ثم خرجتُ معه إلى وسط البلد (ردنج) سيرًا على الأقدام وهو يحدِّثني عن توقُّف عمله في الرسالة، واهتمامه برصد تأثير نيتشه على أ. أ. ريتشاردز، وكان يُقرأ نيتشه بالألمانية، وقلتُ له إن شكري عياد نصحَني بأن أنتهي من الرسالة

وأعود، فقال عبد اللطيف دون اكتراث: تعود؟ وماذا في مصر يمكن أن تعود إليه؟ وأجبتُه إجابة كنت أظُنها مُقنِعة، ولكنه قال إن مصر تمُرُّ بمرحلة انكسار، والأفضل لمن جعل القراءة عمل حياته أن يعيش خارجها، وكان ردِّي على ذلك «معقولًا» أيضًا، ولكنه كان يُبدِي من اللامبالاة ما أقنعَني بعدم الرد، وذهبتُ إلى العمل في المساء، وفي الصباح سمعنا نبأ اغتيال بوبي (روبرت) كينيدي، شقيق جون كينيدي الذي كان قد اغتيل أيضًا قبل خمس سنوات! وقلِقْت؛ لأن القاتل كان اسمه سرحان بشارة سرحان! فماذا سيكونُ تأثيرُ ذلك في موقف أمريكا من العرب؟ ولم يكن قد مضى على اغتيال مارتن لوثر كنج إلا نحو شهرَين، وكنا ما نزال نتابع مسيرات الزنوج والفقراء في أمريكا، وعُدتُ إلى لندن وقد بدأَت هموم الأنباء تُثقِل فكري، وقضيتُ مع نهاد الأربعة الأيام التالية ونحن نُتابِع تلك الأحداث، وإذا بأحد الأصدقاء يُحادِثني تليفونيًّا ويقول لي إن الطلاب في مصرَ قاموا بمظاهراتٍ صاخبة وإن جمال عبد الناصر ألقى فيهم خطابًا مهمًّا، وأبديتُ الرغبة في أن أستمعَ إليه فأتى لي الصديق بالشريط (وما زلتُ أحتفظ به) وسمعناه مراتٍ عديدة، حتى فيما بين فترات القراءة والاستذكار!

٢

لم يحدث في يوليو (شهر الثورات) شيءٌ مثير أو ثوري، سوى وصول خطاب سمير سرحان، وتوقَّع وصوله في أغسطس، وكان قد أرسل شريطًا صوتيًّا به معظم الأغاني الجديدة، وكانت الشرائط آنذاك بكراتٍ مستديرة تتراوح مدتها الزمنية بين ساعة وأربع ساعات، وفقًا لطول الشريط وإمكانيات الجهاز وسرعة التسجيل، فإذا استخدمتَ التراكات tracks (أي المجاري المغنطة) الأربعة والسرعات البطيئة فقد يستغرق الشريط ١٦ ساعة! وكانت رسائلنا سِجلًّا حافلًا لكل ما يدور في حياتنا الخاصة والعامة، وما أزال أعودُ إليها كلما ضاقت بي الدنيا لأستروح نسماتِ الماضي. وفي يوم ٢٠ أغسطس وصل سمير سرحان مع نهاد جاد (زوجته) إلى محطة فكتوريا بالقطار من ساوثهامتون Southampton؛ حيث رست السفينة التي ركباها في نيويورك، وقابلتُهما في المحطة وعُدنا إلى المنزل، وسَهِرنا نحن الأربعة، ولم ننَم إلا بسبب الإرهاق، وفي الصباح، وكان يوم الأربعاء ٢١ أغسطس، فتحتُ الراديو لأسمع أنباء الغزو السوفييتي لتشيكوسلوفاكيا (الذي شاركَت فيه قوات حلف وارسو)، وتركتُ الجميع نائمين وخرجتُ لشراء الإفطار والبحث عن صُحف المساء (وأولاها كان يصدر في العاشرة)؛ إذ لم تكن

أنباء الغزو قد نُشرَت في صحف الصباح؛ لأن القوات تحرَّكَت ليلًا ودخلَت براغ في الرابعة صباحًا، فوعدَني بائع الصحف بإرسال النُّسَخ إلى المنزل حالما تظهر. وما إن استيقظ الجميع حتى كانت الصحف بين أيديهم.

وقرأ سمير الصحف باهتمام، فهو قارئٌ نهِم، وقال بسرعة حين لاحَظ انزعاجي «يعني كنت عايزهم يسيبوا ألكسندر أفندي يفركش العملية؟!» وضحكتُ من أعماقي، وكانت ضحكةً صادقة لم أضحك مثلها منذ يونيو ١٩٦٧م؛ فهو يتمتَّع بقدْرٍ كبير من اللماحية الفَكِهة، ورغم ما شاع عن مَيْله لكتابة التراجيديا ومَيْلي لكتابة الكوميديا، فنحن نشترك في الإيمان بضرورة رؤية كل شيء من مختلف زواياه، وتعدُّد الزوايا يكفُل اكتمال الرؤية، كما أنه يُتيح النظر من زاوية الفكاهة، وهي الزاوية التي ينظُر منها الكاتب الساخر، والتي لا غنى عنها لأي كاتب. وبعد المناقشات المحتومة انطلقنا إلى محطة فكتوريا أولًا للسؤال عن مِعطَفٍ كان سمير سرحان قد نَسِيَه في القطار، وما إن سألنا عنه حتى أتى به الموظَّف فحملَه سمير على ذراعه وخرجنا لقضاء اليوم في ربوع لندن.

كانت كل زيارة يقوم بها سمير سرحان إليَّ في لندن تملؤني بالثقة في المستقبل، وتؤكِّد لي أن مشاغل الحياة العامة التي بدأتُ أهتم بها يجب أن تحتل المرتبة الثانية أو الثالثة بعد الدراسة والحصول على الشهادة، وروى لي تفصيلًا كيف فرض على نفسه العمل يوميًّا في الرسالة، وكان يكتب «صفحةً واحدةً على الأقل» كل يومٍ حتى يضمن انشغاله بالموضوع وعدم انصراف ذهنه إلى أي شيءٍ آخر، وتمنَّيتُ في أعماقي أن أستطيع ذلك، ولكن ولعي المشبوب بالقراءة «خارج الرسالة» وبالناس ولغتهم ولهجاتهم كان كثيرًا ما يشغلُني عن التخصص، وكان عملي الجديد بالترجمة، على ما فيه من جاذبية وسحر، مرهِقًا، فإذا قام المراجع الإنجليزي بتعديلِ عبارة كتبتُها أو تصحيحِ خطأٍ وقعتُ فيه، جعلتُ همِّي أن أدرُس السبب، خصوصًا بعد أن قرأتُ كتابًا عن الأساليب، وأصبحتُ مشغوفًا بفنون صنعة الكتابة، وقد انتهى بي ذلك الشغَف إلى أن سجَّلتُ موضوع الدكتوراه فيما بعدُ في «الأساليب الشعرية» وكيف تطوَّرَت من الكلاسيكية الجديدة إلى الرومانسية.

ورحل سمير ونهاد جاد بعد يومَين، وبدأَت زهور الصيف تذوي، وعندما حل الخريف اصطحبتُ نهاد إلى المدينة الجامعية في جامعة ساسكس، وقضيتُ ليلتَين وحدي، وفي السادسة صباحًا في اليوم الثالث أيقظَني رنين التليفون من تلك الجامعة، وكانت المتحدثة هي المشرفة على بيت الطلاب، وأمرَتْني بالحضور فورًا. وعندما ذهبتُ بعد نحو

ساعتَين قالت لي المشرفة إن نهاد لا تستطيع تحمُّل الحياة وحدها هناك، وإنها (أي المشرفة) قد استصدَرَت لها استثناءً بأن تقيم في لندن، وتأتي مرةً في الأسبوع لمقابلة الأستاذ، وكان الأستاذ هو العلامة الأسكتلندي ديفيد ديتشيز Daiches.

وبدأَت نهاد دراستَها الجادة للماجستير، وكان النظام أمريكيًّا مُستحدَثًا يتطلب الجهد المستمر طيلة العام الدراسي ثم كتابة بحثَين في تخصُّصَين متكاملَين، واختارت نهاد تخصُّص الرواية وتخصُّص الدراما، وكانت تسافر وحدها مرةً في الأسبوع، وكنت أسافر أنا إلى كافرشام فأقضي ليلةً أو ليلتَين خارج لندن، وبدأَت اهتماماتي بالترجمة واللغة تستغرق كثيرًا من الوقت الذي كنتُ خصَّصتُه للرسالة، حتى كِدتُ أيأس، ولكنني عقدتُ العزم على الانتهاء منها في نوفمبر، واجتزتُ الامتحان التحريري بنجاح، وإن لم أجرؤ على تقديم الرسالة، فقال لي المشرف إنه يفضل نقل الإشراف إلى أستاذةٍ أخرى تحتمل تلكُّؤي وتباطُؤي، فقابلت رئيسة القسم وهمسَت لي إن المشرف مريض والأفضل أن أعمل مع الأستاذة أجنيس ليثام Agnes Latham فقابلتُها وطلبَت مني أن تقرأ ما كتبتُ حتى الآن، ولم يمضِ أسبوع حتى استدعَتْني وقالت لي: «كيف تبذل كل هذا الجهد وتقيم كل هذا الصرح من الدراسة لدرجة M. A فحسب؟ لسوف أطلُب من الجامعة تحويلها إلى M. Phil — إلا إذا كنتَ تريد تحويلَها إلى دكتوراه.» وفزعتُ لما تقول وأكَّدتُ لها أنني أريد أن أبدأ بدايةً جديدة وأن أغيِّر الموضوع في الدكتوراه، فقالت لا بأس، ثم اقترحَت بعض التعديلات في الفصول وطلبَت مني الاستعداد للامتحان المقبل؛ أي في فصل الربيع، حتى تكون موافقة الجامعة على التحويل قد وردَت.

واطمأن قلبي لِما قالته المشرفة، وراجعتُ نفسي فوجدتُ أن كلامها صحيح، وأن الخطَّة كانت تتميَّز بالطموح بأكثر مما ينبغي على نحو ما حذَّرني منه المشرف، وقد علمتُ أنه كان يعاني من مرضٍ عُضال لم يُمهِله؛ إذ توفي مع البروفسور جيفري تيلوتسون زوج رئيسة القسم في مطلع عام ١٩٦٩م، وكان عليَّ أن أُعيد تقسيم الفصول، فعملتُ جادًّا في إصلاح ما يحتاج إلى إصلاح، وقد اكتشفتُ أن عيوب الصورة الأولى للرسالة (والتي ما زلتُ أحتفظ بها) كانت تتلخَّص في عدد من الملامح التي ترجع إلى طريقتي الخاصة في التفكير ومن ثَم في الكتابة، ألا وهي الاستطراد digression — العدو الأول للبحث العلمي وللكتابة العلمية. وكان أهم شاهدٍ على ذلك وجود حواشٍ مطوَّلة في الكثير من صفحات الرسالة؛ إذ كان يعنُّ لي خاطرٌ أثناء متابعة الحُجة التي أقيمها في متن الرسالة فأُدرِجه في الهامش، وربما تفرَّع الخاطر فولَّد فكرة أراها مهمةً

فأتوسَّع فيها مما يحوِّل الإشارة الهامشية إلى حاشية، وقالت لي المشرفة إن كثيرًا من هذه الأفكار يجدُر إدراجه في المتن، أو إرجاؤه إلى حواشٍ منفصلةٍ في ذيل الرسالة، وقد فعلتُ ذلك في الصورة المعدَّلة، وأجد من الطريف أن الكثير من الكتَّاب الأمريكيين يفعلون ذلك الآن في كتبهم — والمثال الحاضر على الاستطراد في ثنايا المتن نفسه هو ستانلي فيش Fish (خصوصًا في كتابٍ أصدَره عام ١٩٨٩م بعنوان «التصرف الطبيعي» Doing What Comes Naturally وجون إليس الذي يؤجِّل الحواشي في كتابه (اللغة والمنطق والفكر) Language, Logic and Thought (١٩٩٣م) إلى مكانها في آخر الكتاب مثلما فعل في كتابه (مناهضة التفكيكية) Against Deconstruction (١٩٨٩م)، ولقد تطوَّر نظام وضع الهوامش marginalia والحواشي endnotes فلم تعُد الهوامش (الإشارات إلى الكتب والمؤلِّفين) تُوضَع في الهامش بل في غضون المتن نفسه، وأصبحَت الحواشي تُلحَق بالكتاب أي تُوضَع في ذيله، أما الاستطراد في تضاعيف الحديث نفسه فقد أصبح السمة الغالبة على كتابة الكثيرين من كتَّاب الثمانينيات والتسعينيات، وأقول بالمناسبة إن ذلك مما يُرهِق المتخصِّص الذي قد يبدأ قراءة كتاب عنوانه «النقد التفكيكي» مثل كتاب فنسنت ليتش بهذا العنوان المنشور عام ١٨٨٣ Vincent Leich فيتَوقَّع أن يقدِّم له المؤلف فصولًا في النقد التفكيكي ولكنه يجد شطحاتٍ والتواءاتٍ يتوه فيها بين الفكرة ونقيضها، فيَضِلُّ ولا يهتدي، فإذا كان ذلك حال المتخصِّص فما بالك بغير المتخصص؟ وذلك هو، بالمناسبة، السر في عدم نجاح ترجمة الكثير من أمثال هذه الكتب إلى العربية، ولكن الدفاع التقليدي عن مثل هذا المنهج هو أنه كتابٌ لا رسالةٌ جامعية؛ أي إنه مجموعة من الأفكار وثمار القراءات المنوَّعة في موضوعٍ واحدٍ يجمع بينها، ولكن الرسالة هي تسجيلٌ لنتائجِ بحثٍ علمي، وينبغي فيه التركيز والضغط حتى لا يتشتَّت القارئ.

ولقد توقَّفتُ بعضَ الشيء عند «عيب» الاستطراد؛ لأنني تعلَّمتُ من ممارسة الكتابة النقدية (بل والإبداعية) على مدى الأعوام الثلاثين الماضية أن القارئ بصفةٍ عامة، ومهما بُلِغ من تفصيل القول في «أنواعه» (على نحوِ ما يفعل إيزر Iser) يبحث عن فكرةٍ واحدة أو فكرةٍ رئيسية، ويتوقَّع من الكاتب الإيضاح والشرح والتبسيط، وكم من كتابٍ قرأتُه في غِمار جمعي للمادة فعانيتُ في فهمه الأمرَّين! وجهدتُ حتى أصل إلى مقصد صاحبه، فإذا بالنتيجة لا تُساوي ما بُذل في سبيلها من عناء!! ولكنني لم أكن تعلَّمتُ الدرس بعدُ، وكانت معاناة كتابة الرسالة أو إعادة تنظيم مادتها هي أول خطوةٍ في هذا السبيل.

لقد أكسبَني هذا الجهد خبرةً لا تُقدر بمال، وتعلَّمتُ في خِضَم «التعامل» مع الكلمات ومع أبنية العبارات كيف أهيئ القارئ لتلقي النتيجة التي أُريد أن أصل إليها، بالتلميح إلى آراء الثقات أحيانًا، وبضرب الأمثلة أحيانًا أخرى، ثم أتدرَّج في بناء الحُجة حتى إذا وصلتُ إلى المرحلة التي يطمئن قلبي فيها إلى أن طرح مقولتي أصبح يستند إلى دعائمَ صُلبة ومقنِعة، صُغْتُها في ألفاظٍ واضحة وموجزة. وآتت جهودي أُكُلها، فما إن قرأَت المشرفة الفصل الأول حتى أرسلَت لي بطاقة بريدية (ما زلتُ أحتفظ بها) تقول فيها حرفيًّا "Congratulations! What depth, what lucidity!"؛ أي إنني أُهنِّئك على العُمق والوضوح، ولقد فرحتُ بما قالته، ووجدتُ فيه عزاءً عن التأخير؛ إذ انقضَت السنة الثالثة وأنا ما زلت أصُوغ وأتأمَّل، وقد يكون من المناسبة أن أذكُر أن تخفيف النَّبرة كان من عوامل إحكام حرفة الكتابة، إلى جانب تخفيف النبرة بإدراج عبارات الاحتراز، واللجوء في ذلك إلى تغيير أنماط أَبنية العبارات، وأذكر أنني عدَّلتُ عبارة في الصورة الأولى للرسالة كنتُ أقول فيها إن الشاعر رغم إنكاره للإيمان بتناسُخ الأرواح أو بنظرية أفلاطون عن عالم المُثل (ideas لا ideals) فإنه يوحي بذلك إيحاءً صريحًا، وهذه عبارة قد يقبلُها القارئ من شاعرٍ كبير مثل سيسيل داي لويس Cecil Day-Lewis أو أستاذٍ ضليع مثل إرنست دي سلينكورت (Ernest de Selincourt) أو حتى هيلين داربيشر Helen Darbishire (تلميذة الأخير) ولكنه لن يقبلها من دارسٍ مبتدئ، وقد عدَّلتُها إلى «إن المقولات (statements) الواردة في قصيدة «مشاعر الخلود» والتي قد تُفهَم حرفيًّا على أنها تعبيرٌ عن إيمان بفكرةٍ فلسفيةٍ أو دينية، قد تكون أسلوبًا جديدًا في بناء الصورة الشعرية دون استعمال المجال اللغوي المباشر، على نحو ما بيَّنَته فلورنس مارش في كتابها الذي سبقَت الإشارة إليه، وإذا كان الشاعر قد أنكر في شيخوخته (عام ١٨٤٧م) في الحواشي التي أملاها على الآنسة إيزابيلا فنيك Fenwick أنه كان يؤمن بتناسُخ الأرواح أو بأفلاطون، فربما كان ذلك لأنه تحوَّل إلى العقيدة المسيحية التقليدية، وإن كان ذلك لا ينفي أن القارئ الذي اطَّلع على هذه القصيدة عندما نُشرَت أول مرة عام ١٨٠٧م، قد رأى فيها ما يُوحِي بالإيمان بتناسُخ الأرواح أو بالفكر الأفلاطوني.»

الفارق بين التعبيرَين شاسع؛ فالعبارة الثانية تنتفع بالمقالات والتبريرات المستندة إلى آراء الثقات، وهي وإن كانت تخلُص إلى النتيجة نفسها، فإنها تنسبُ تلك النتيجة إلى «قارئ» القصيدة في زمنٍ محدَّد، وهو تحرُّزٌ شائع في الأسلوب الإنجليزي، لكنه لا يمنع

من التعميم؛ فليس معنى إحساس القارئ بذلك الإيحاء عام ١٨٠٧م هو أن القارئ لن يشعر به في عام ١٩٦٨م، وإن كان التعبير يُوحي بالتحرُّز، وغني عن البيان أن جميع العبارات التي سبقَت هذه النتيجة تتضمن أساليب الاحتمال والشك مثل «قد تُفهم حرفيًّا» و«قد تكون أسلوبًا جديدًا» و«إذا كان .. فربما كان ذلك لأنه» وهو مما يوحي بأن الكاتب يتوخَّى الحذَر، ولا يريد إطلاق الأحكام، وإن كان في النهاية يقول ما يريد أن يقوله!

وإلى جانب ذلك كان أسلوب التعديل ينتفع كما قلتُ بتعديل الأبنية واستخدام تفاوت النبرة عن طريق بناء العبارات التي تُوحِي بأنها ذاتُ أهميةٍ ثانوية (subordination) وهو ما لا يظهر في الترجمة العربية لعدم ولوعنا بهذا اللون من الأبنية، وقد ناقشتُ ذلك فيما بعدُ في كتبي عن الترجمة، ولا أظُن أن المجال يتسع هنا للإفاضة في هذه الأساليب الإنجليزية المتخصِّصة.

استغرق العمل في رسالة الماجستير فترةً أطول مما قدَّرتُ لها، وفرحتُ أنها تحوَّلَت من M. A. إلى M. Phil. فالدرجة الأخيرة «درجةٌ بحثية» research degree ولكنها ما تزال تُسمَّى الماجستير بالعربية، ولا تعترف الجامعات العربية بالفرق بين الأُولى التي يمكنُ الحصول عليها بكورسات وامتحان وبين الأخيرة، فكان لا بد من التسجيل للدكتوراه. وكنتُ في مطلع عام ١٩٦٩م قد أحكمتُ صنعة الترجمة إحكامًا، ولم يعُد العمل في كافرشام يستغرق إلا وقتًا محدودًا، وكنتُ أقضي عطلة نهاية الأسبوع فيها خارج لندن، ونهاد تُجهِد نفسها كل الإجهاد لإعداد الأبحاث المطلوبة منها، وكان أساتذتُها سُعداءَ بها كل السعادة.

وكنتُ عندما أعود إلى المنزل يوم الإثنين، أحاول تعويض غيابي بالخروج مع نهاد، وكثيرًا ما كانت مناقشاتنا تدور حول بحوثها، وقراءاتها، وأحيانًا كنتُ أصحبها في القطار إلى الجامعة، ونخرج بعد مقابلة الأستاذ للنزهة قبل العودة إلى لندن، ولكن يوم الأربعاء كان يوم المسرح، وكنا نخرج في الواحدة ظهرًا فنركب المترو حتى محطة هولبورن ثم نسير حتى مسرح أولدويتش مثلًا، أو إلى محطة واترلو (Waterloo) ثم نسير إلى المسرح القومي (في الأولد فيك) (Old Vic)، ولن أنسى يوم أن تأخَّرنا أو تأخَّر بنا القطار دقائقَ معدودةً فأخذنا نجري جريًا حتى وصلنا في الموعد (الثانية والنصف ظهرًا) ونحن نلهثُ ولم نكَد نجلسُ حتى بدأ العَرْض!

٣

وفي يوم السبت ١٩ يوليو عام ١٩٦٩م جاء الدكتور رشاد رشدي لزيارة لندن، وكان قد حصل على منحة من المجلس البريطاني لزيارة بعض المعالم الثقافية في إنجلترا، فقابلناه أنا ونهاد وفرحنا به، كما قابلَه عبد اللطيف الجمَّال، واستأجر غرفةً في منطقة جلوستر رود Gloucester Road في وسط البلد، ثم لحق به عبد المنعم سليم الكاتب المشهور، وكنا نتجول أنا ورشدي في أرجاء لندن وهو يقُص علينا طرفًا من ذكرياته، وكان يدهَش من اختفائي في عطلة نهاية الأسبوع في كافرشام، وعندما علم أنني سوف أسجِّل للدكتوراه في مطلع العام الجديد عرض عليَّ العودة إلى مصر، ووعَد بأن يساعدني في الحصول عليها بسرعة، ولكنني رفَضْت؛ فالحياة في إنجلترا لم تكن مجرَّد تمهيدٍ لشغل منصبٍ ما في مصر (علمي أو ثقافي)، بل وسيلة للنهل من معينٍ لغوي وثقافي لا ينضب.

وذات يومٍ صحبتُه لشراء زوجٍ من الأحذية، فقابلنا فتاةً من كُليتنا تُدعى جون مالوي Joan Malloy، وكان اسمها الأصلي كورديليا مثل اسم ابنة الملك لير في مسرحية شيكسبير الشهيرة، وعرَّفتُه بها وعرَّفتُها به، ولم أكن قابلتُها منذ سنواتٍ طويلة، وتحديدًا منذ يوليو ١٩٦٦م؛ إذ كان من عادتنا أن نتناقش في الفكر الاجتماعي ربما لأنها تدرُس علم النفس وتُجري تجارب بحثها على الكهَنة، وكانت تتردَّد بانتظام على الكنائس لإجراء المقابلات معهم، وتمكَّنَت من تسجيل شرائطَ صوتيةٍ طويلة لأحاديثهم، وكانت تستعين بالكمبيوتر — الذي كان في مهده — في تحليل نتائجها، وكانت تُحدِّثني كثيرًا عن شابٍّ يُدعى ألكسندر يدين بالكاثوليكية؛ ومن ثَم فقد أقسَم قَسَم الامتناع عن الزواج طيلةَ حياته، وبألا يقرب المرأة، ولكنه كان يبدو لها «مادة» صالحة للتجارب، فهو قوي البنية فارع الطول، وشعره أحمر وعيناه سوداوان ثاقبتان، مما جعلها تَحدُس أنه من أصلٍ أيرلندي، وكانت كثيرًا ما تتحدث عن قوة نفاذ عينَيه، وتسردُ التفاصيل الدقيقة عن صوته الدافئ، وكان يبدو أنها كانت مُولعةً به، وهي بيضاءُ عيونها سوداء، وذات طولٍ غير عادي، وكانت تقول إن شكلها يختلف عن الشكل الإنجليزي التقليدي الذي يُوصَف بأنه مثل ثمرة الكُمَّثرى؛ فهي ضخمةُ الصدر نحيلةُ العجز، وكان الزملاء يضحكون منها، وكانت سوزان الأمريكية تقول لها إن هذا هُراء؛ فالإنجليز في رأيها شعبٌ هجين hybrid (ولو أنها استعمَلَت كلمةً يقتصر الإنجليز على استعمالها في وصف الكلاب mongrel مما أغضب جون).

وخرجنا أنا ورشاد رشدي وجون إلى الطريق دون أن يشتري أحدٌ شيئًا، وفجأةً قال رشدي بلهجةٍ إنجليزية تُحاكي لهجة أبناء الذوات: «دعيني أدعوك إلى العَشاء.»

ورحَّبَت جون فورًا، ولم أدهَش لذلك؛ فالإنجليز يُرحِّبون بكل ما من شأنه توفير النقود، وقد يكون التعبير: «دعني أشترِ لك عَشاء.» ولو قالها رشدي للاقَت القبول، وشعرتُ أن وجودي قد يُفسِد خطط «أبو الرشد»، فتذرَّعتُ بحُجةٍ واهية ولكنه أصَر على أن أصحبهما، وما إن جلسنا في المطعم الإيطالي الذي اختارته حتى تفرَّع الحديث وتشعَّب، ولم أشأ أن أترك رشدي يحكي عن أمجاده في مصر؛ فهذا مما لا يُقال على مائدة العَشاء، فسألتُها عن أخبار ألكسندر، فانطلقَت تحكي أخبار السنوات الماضية.

قالت جون: «كانت علاقتي به محكومًا عليها بالفشل منذ البداية (doomed) ويبدو أنني أسرفتُ في لقاءاتي معه، وفي طرح أسئلتي والاستماع إلى إجاباته، ويبدو أنني كنت مدفوعةً بدافعٍ لم أستطع حتى الآن تحديد كنهه، فأبحتُ له أن يعرف عني ما يزيد على ما يطلُبه كاهن الاعتراف، وربما تماديتُ في ذلك جسديًّا (ماديًّا؟ physically) فأفصَح لي عن حقائقَ لم تكن تخطر ببالي، وبدأ يتصرَّف بتصرُّفاتٍ غريبة، أو قل إنني وجدتُها غريبة من كاهنٍ نذَر على نفسه البعد عن المرأة، فسألتُه سؤالًا مباشرًا عن علاقته بالشماس (deacon) الذي كنتُ كثيرًا أراه يُحوِّم حولنا أثناء حديثنا في الخلوة، فقال لي إنكِ فتاةٌ بارعة الذكاء .. كيف عرفتِ وجود علاقة؟ ونحَّيتُ المسألة بلا اكتراثٍ حتى لا أقطع سيل حديثه فجعل يُقسِم أغلظ الأيمان أنه وإن كان يُعينه في قضاء وطَره إلا أنه لم يعشَق سواي، وأنه منذ أن عرفَني قد نبذ صغار الشمامسة (sextons and sacristans) من ذوي الجمال الأخَّاذ، وسألتُه صادقةً: هل لي أن أسجِّل ذلك في المذكِّرات الخاصة ببحثي؟ فتَلعثَم وقال إنه حائرٌ لا يدري ما يصنع، وقرَّرتُ آنذاك أن أمتنع عن زيارته خوفًا عليه.»

وتمهَّلَت جون وهي ترشُف قدح النبيذ الإيطالي الأحمر، ونظَرَت إلى الشجرة التي تتدلَّى أغصانُها فوق الشرفة التي نجلسُ فيها كأنما تبحث عن الكلمات الصحيحة، ثم قالت في تُؤَدة: «أظنها قصةً معروفة لكم أيها الأدباء، ولكنها كانت جديدةً عليَّ كل الجِدَّة؛ إذ أخذ ألكسندر يتردَّد عليَّ بانتظام، وأستطيع الآن بما تُتيحه القدرة على التذكُّر من إصدار الأحكام الصائبة (with the benefit of hindsight) أن أقول إنني كنتُ أُحبه ولم أكن أريد له ذلك المصير المؤلم.» وصمتَت فقلتُ لها أستحثُّها: «هل ترك الكنيسة؟» فقالت «بل أُصيب بصدمةٍ عصبية أدت إلى انهياره النفسي، ونقلوه بعد شهورٍ معدودة إلى مستشفى الأمراض النفسية؛ حيث كان يُصاب أحيانًا بوجومٍ واكتئابٍ يمنعه من الكلام أيامًا، وأحيانًا بهياجٍ يستلزم استخدام القوة للسيطرة عليه.»

وكان رشدي صامتًا طوال الوقت، ثم نطَق أخيرًا فسألها: «أما يزال هناك؟» فردَّت على الفور: «لا، بل انتحر المسكين! وكان من الحالات التي سجَّلتُها في الرسالة، فكانت من دراسات الحالة (case studies) التي أعجَبَت المشرف، بل إنه طلبَ إدراجَ صورة ألكسندر في الرسالة، ووافَقْت، وسوف تُطبع الرسالة قريبًا.»

ونظرتُ في ساعتي حتى أُنبِّه الحضور إلى أن الوقتَ قد تأخر، وأن عليَّ أن أعود إلى نهاد، فسمحا لي بالانصراف، وعندما قابلتُ رشدي بعد ذلك كان يتحاشى ذكر جون مالوي تحاشيًا مطلقًا، ولم أشأ أن أسألَه عما حدَث بعد رحيلي، احترامًا لصمته.

ولم يكن لي أن أقابل جون مالوي بعد ذلك مطلقًا، خصوصًا بعد انتقالنا إلى ردنج، ولكن قصَّتها ظلَّت مخطوطةً في المفكرة، وكنتُ كلما قرأتُها أتساءل عما تُراه قد حدث لها مع آخرين، وكنتُ كثيرًا ما أتطلع إلى الكتب الجديدة لعلي أرى رسالتَها المطبوعة، ولكنني لم أوفَّق في ذلك أيضًا، وعندما قصصتُ القصة على نهاد قالت لي: «إنها عقدةٌ نفسيةٌ متحركة!» وعندما عُدت إلى مصر بعد سنواتٍ وتعمَّدتُ ذكر اسمها في سياقِ حديثٍ عابرٍ لرشاد رشدي لم يعلِّق، وحوَّل وجهه عني (عامدًا؟) كأنما ليتحاشى الإشارة إليها.

وكانت نهاد مشغولةً آنذاك بكتابة بحثٍ عن كوميديا المسرح الإنجليزي، بعد نجاحها في كتابة بحثٍ مطوَّل عن جوزيف كونراد، وكانت تتردَّد أثناء الصيف على رودني هيلمان، الذي كان يتولَّى الإشراف على هذا البحث، وكانت تقُص عليَّ أنباء زميلاتها مثل «نولا» الكندية، وبداية انشغالها بالبحث في المسرح، وأعتقد أن تلك هي بداية غرامها بالمسرح الذي يزداد اشتعالًا على مرِّ الأيام.

وفي أكتوبر حصلَت نهاد على الدرجة، وإن كان موعد حفل تسليم الشهادة هو ديسمبر ١٩٦٩م، وكنتُ أنا قد اتفقتُ مع كريستوفر سالفسن Salvessen وهو مدرِّس (محاضر) في جامعة ردنج ومؤلِّف كتابٍ شهير عن وردزورث هو The Landscape of Memory على تسجيل الدكتوراه اعتبارًا من يناير ١٩٧٠م؛ أي بعد انتهاء نهاد من الماجستير، وحتى أكون قريبًا من محل العمل، واتفقتُ أنا ونهاد على الانتقال إلى ردنج؛ فلقد أحبَّت الريف وأصبحَت تكره الزحام في المدينة، كما كانت تتطلَّع إلى العودة إلى العمل بعد الانتهاء من الدراسة. وكان سالفسن اسكتلنديًّا لطيف المعشر، وافق على الموضوع والعنوان، ووافق رئيس القسم جوردون المتخصِّص في ييتس (W. B. Yeats الشاعر الأيرلندي المشهور) ولم يعُد أمامنا في أكتوبر سوى البحث عن مكانٍ للإقامة في أحضان الطبيعة خارج لندن.

٤

ووجدنا شقةً خالية وغير مؤثَّثة للإيجار في مجموعة من المساكن الجديدة التي أقامتها إحدى الشركات العقارية في شارع داربي Darby Road الذي لا يبعُد عن محل العمل إلا ميلًا واحدًا، ولا عن وسط قرية كافرشام إلا بضعَ مئاتٍ من الأمتار، ولكن المساكن كلها مقامة وسط الطبيعة الخلابة، وتحيط بها مساحاتٌ خضراء شاسعة، ويصطَف الدَّوْح على جنَباتها، وكانت الطرق إما مرصوفةً أو معبَّدة بالزلط، وعلى الجوانب مجارٍ لمياه الأمطار تؤدي إلى خزاناتٍ أرضية حتى لا تتجمَّع في برك أو تنصرف إلى مجرى نهر التيمز Thames القريب من القرية، وكان هناك كل ما نحتاجه من الأثاث؛ مِنضَدة تصلُح مكتبًا، وسرير، وبعض الكراسي، إلى جانب أدوات المطبخ (التي نقلناها معنا من لندن) واشترينا ثلاجةً جديدة بنحو خمسين جنيهًا ما تزال تعمل عند أحد معارفنا (منذ نوفمبر عام ١٩٦٩م) وكانت إيطالية الصنع ماركة إنديسيت (Indesit)، كما ذهبتُ إلى أحد المزادات فاشتريتُ جهاز طَهوٍ (موقد وفرن) يعمل بالغاز الطبيعي بجنيهَين وكان في حالةٍ ممتازة، وقد أعطيتُه عند رحيلي لصديقٍ فلسطيني يدعى دهَّام العطاونة، وما يزال يعمل، كما اشتريتُ من المزاد خزانةً ذاتَ أدراجٍ بجنيهَين، ومرآةً كبيرة بجنيهَين (تركناهما) ومرآةً مستطيلة لا تزال لدينا بخمسة جنيهات، وباعني زميلٌ عراقي درسوار (Dressoir) Sideboard ومنضدةً وكرسيَّين وسجَّادة (كلها بأربعة عشر جنيهًا) وما يزال الدرسوار لدينا، وكانت الشقة لا تحتاج إلى تدفئةٍ خاصة؛ فبالمنزل تدفئةٌ مركزية، وكان الإيجار الشهري ٢٦ جنيهًا.

واستقر بنا المقام في جوٍّ هادئ بل وشاعري، وسجَّلنا اسمَينا عند أقرب طبيبةٍ تابعة لهيئة الصحة الوطنية National Health Service (مثل التأمين الصحي لدينا) واسمها مونيكا لاتو Monica Latto وكانت من اسكتلندا هي وزوجها، (وفي أوائل السبعينيات أهداها زوجُها سيارةً حمراء بمناسبة العيد الخمسيني لزواجهما، وفي عام ١٩٩٧م قامت نهاد وابنتي سارة بزيارتها وكانت ما تزال في قَيد الحياة) وكان خريف عام ١٩٦٩م ذا جمالٍ مذهل، وكانت نزهاتنا أنا ونهاد بمثابة نزهاتٍ في الحدائق؛ فحيثما يمَّمْت أشجار وبساتين، ولكل منزل حديقةٌ أمامية وأخرى خلفية، وكانت زيارتنا للندن تقتصر على الذهاب إلى المسرح، ولم تلبث مكتبتُنا الخاصة أن امتلأَت بالكتب، واشتريتُ جهاز تسجيلٍ ضخمًا بالتقسيط، وجهاز تليفزيون أبيض وأسود؛ فالألوان لم تأتِ إلى التليفزيون إلا عام ١٩٧٠م، وقَنعْنا به، وكنا نسعَد بالبرامج الوثائقية في القناة الثانية للـ B B C وبالأفلام

التي تعلَّمنا منها الكثير، ولم يعُد كشكول مصطلحات اللغة الإنجليزية يكفي التعبيرات الجديدة، فاشتَرينا كشكولًا جديدًا، وأهم شيء هو أننا لم يكن لدينا تليفون!

وبدأتُ أتردَّد على الكلية لمقابلة المشرف على الدكتوراه، وكان على النقيض من المشرف القديم تمامًا، كان شابًّا وكان الأول هَرِمًا، وكان بشوشًا متواضعًا وكان الأول يتصنَّع الابتسام فحسب، ولم أكن أتصوَّر أن الطابع الاسكتلندي يختلف عن الطابع الإنجليزي إلى هذا الحد، وكان وجودي في بلدة الجامعة يتيحُ لي أن أمكث طُول اليوم في المكتبة حتى يحين موعد العمل في المساء فأذهب وأُترجِم ما قُدِّر لي أن أُترجِم ثم أعود، وقد أقُص على نهاد طرفًا مما ترجمتُه أو أُناقشها في دلالة بعض الأحداث، وأذكُر أننا كنا، ذات يومٍ من أيام رمضان، قد اتفقنا على إعداد طعامِ إفطارٍ خاص، وبينما أنا أستعد للذهاب إلى المنزل، إذ جاء المشرف ليُخبِرني أن الرئيس بومدين قد ألقى خطابًا ويُريدُني أن أُترجِمه، فقلتُ له إنني على موعدٍ للإفطار مع زوجتي، فقال لي: «تفضل .. مع السلامة!» همس: «هل تُحب أن تسهر سهرةً رمضانية في ترجمة الخطاب؟» وضحكتُ وانصرَفْت. كان اسمه محمود سامي، وكان تركيًّا من قبرص يحسُده الإنجليزي على نقاء لغته وجمال نطقه، وهو يكتب اسمه «ميموت» لا «محمود»، ولكن سامي لا خلاف عليها!

كان العمل بالترجمة — كما سبق أن قلت — بالغَ التنوُّع؛ فقد يُطلَب من المترجِم ترجمةٌ نصية كاملة لخطابٍ سياسي؛ فالإنجليز لا يقتنعون بالترجمات المحلية التي تنقلُها وكالات أنباء الشرق الأوسط مثلًا، أو إعداد مقتطفاتٍ من حديثٍ مُطوَّل، أو تلخيص تعليقٍ أذاعته إحدى الإذاعات العربية، وكانت معظم المحطَّات العربية تُسمَع بوضوح في إنجلترا، كما كان الإنجليز يهتمُّون بما تذيعه إذاعة موسكو العربية، ويدخُل ذلك في باب دراسة الرأي العام وتأثير الإذاعة فيه، وهو لا شك نشاطٌ إعلامي وكل نشاطٍ إعلامي له جانبه السياسي، ولكن جانب السرية منفيٌّ تمامًا عنه؛ فما تذيعه إذاعةٌ ما، هو ما تريد له أن يُعلَن لا أن يُخفى، وهي تريد للأخبار التي تذيعها أن تُعرف وتُعلن لا أن تُكتم وتُخفى؛ ومن ثَم لم أكن أرى في عملي إلا مساهمةً في ترجمة المادة المذاعة بالصورة التي أُحب أن تصل بها إلى الأجانب، وكان البرنامج العام من إذاعة القاهرة لا يصل بوضوحٍ إلى لندن، بخلاف صوت العرب، وكانت الأخبار متشابهة، بل إن صوت العرب سبق البرنامج العام يوم ٧ أكتوبر ١٩٧٣م في إذاعة البلاغ العسكري الذي يُلخِّص نتائج العبور العظيم في اليوم السابق في الخامسة والنصف صباحًا بتوقيت لندن، وحين

ترجمتُه وأذاعته الـ B B C نقلًا عن راديو القاهرة — وقالت ذلك — كان سبقًا إذاعيًّا؛ أي إن للمسألة جانبًا إخباريًّا محضًا كان يقنعني بسلامة الغَرض من هذه الترجمة.

ولكن — إلى جانب الفائدة اللغوية — كان هناك جانبٌ مهم هو الوعي بما يدور في العالم العربي، خصوصًا في الجناح الغربي من الوطن العربي، وهي المحطَّات التي لا نكاد نتابعها في مصر، فازداد وعيي بقضايا دول المغرب العربي، وأذكُر أننا يوم أول سبتمبر عام ١٩٦٩م، وكان يوم الإثنين، ويوم عُطلة تُسمَّى عُطلة البنوك Bank Holiday كنا في رحلةٍ تابعةٍ لنادي الطلاب العرب خارج لندن، فوجدنا صُحف المساء تقول إن انقلابًا حدث في ليبيا، وعندما عدنا إلى لندن سمعنا أنباء الثورة وسمعنا عن قائدها الأول سعد الدين أبو شويرب، قبل أن نسمع عن معمر القذافي، وفي آخر الأسبوع عندما ذهبتُ للعمل وجدتُ أوراقًا ملفوفة، قيل لي إنها وكالة الأنباء الليبية باللغة العربية، وانهمكتُ في ترجمةِ ما بها فأحطتُ بمعلوماتٍ تزيد ألف مرة عما نقلَته الصحف الإنجليزية. وتغيَّر اسم الوكالة فيما بعدُ إلى وكالة أنباء الثورة العربية وتغيَّر اختصار اسمها بالإنجليزية من LNA إلى ARNA وكان أهم «زبون» لما أُترجمه هو مكتب الأخبار News Bureau الذي كان يرسل ما أُترجمه بالتلكس إلى غرفة الأخبار الرئيسية في لندن لإذاعته مع ذِكر مصدره.

إحدى رحلات نادي الطلبة العربي إلى الريف، ويبدو في الصورة إبراهيم فوزي ومحمد مصطفى رضوان وصلاح الغباشي وشاهيناز ونهاد ونجاة وسامي أبو طالب ومحمد نوح.

كما كنتُ أستفيد من الاطِّلاع على أخبار العالم؛ إذ كان يُطلب من العاملين بالترجمة وبالتحرير أن يقرءوا أنباء اليوم والأمس حتى يعرفوا ما هو جديد، وحتى لا يُترجِموا «أخبارًا» قديمةً ظانين أنها جديدة؛ فالصحف لا تنشر كل شيء، وقد مكَّنَني ذلك من متابعة وجهة النظر العربية والمصرية خصوصًا عندما بدأَت حرب الاستنزاف في صيف ١٩٦٩م وبدأ المصريون يثبتون صلابتهم في التصدي للغطرسة الإسرائيلية، وكان الارتباط بإذاعة الوطن بمثابة الإبقاء على الحبل السُّري الذي انقطَع لدى الكثيرين؛ فمعظم المصريين والعرب في الغربة لا يقرءون ولا يسمعون إلا ما تنقله وسائل الإعلام الغربية، وفي يونيو ١٩٦٩م كنتُ قد أتممتُ عام التدريب وأصبحَت تَرجماتي موثوقًا بها، ومنحوني ما يُسمَّى «التثبيت» في الوظيفة establishment فانتقلتُ إلى مكتب الأخبار، وصرتُ المرجع في الأخبار المصرية، وكثيرًا ما كنتُ أرفض الأنباء التي قد تسيء إلينا، مهما يكن من صحتها الظاهرية، محتجًّا بعدم دقتها، وأصبح رئيس قسم الأخبار الإنجليزي يثق بي، ورغم وجود مصريٍّ آخر معي هو عبد اللطيف الجمَّال في قسم الترجمة فعندما كان يقول «المصري» كان الجميع يعرفون أنه يعنيني. وكان في القسم بعض العرب من الأقطار الأخرى، وكثيرًا ما كان النقاش الذي يصل إلى درجة الخلاف يدبُّ بيننا باعتباري ممثلًا للموقف المصري والمؤمن بمشروعية كفاحنا، وكان الإنجليز يحترمون ذلك، ولا يتعدَّون حدود العمل المهني والرسمي في معاملاتهم معي؛ فالآخرون متزوجون من أجنبيات وتحوَّلوا على مرِّ الأيام إلى صورٍ باهتة (شاحبة؟)؛ لا هي عربية ولا إنجليزية، وكان شرينجهام — رئيس قسم الإنتاج — ذو الزوجة المصرية يعرف ذلك، وكان يعرفه رئيس الأخبار كلها!

وما إن حلَّ عام ١٩٧٠م حتى كانت نهاد قد نجحَت في اختبار أمناء المكتبة — وهي مكتبة الأخبار بنفس المبنى — وبدأَت العمل معي، غير أنها كانت تعمل في المواعيد العادية، وأنا أعمل وفقًا لمتطلبات الأخبار في ورديات بعضها مسائي وبعضها صباحي، فكنا نذهب أحيانًا إلى العمل معًا ونعود معًا، وأحيانًا لم نكن نلتقي إلا في فترات الغداء في المبنى نفسه، وأحيانًا كنت أُصادِفها عائدة إلى المنزل وأنا على وشك بداية الوَرْدِيَّة.

٥

وكان عام ١٩٧٠م عام الصداقة الجديدة التي نشأَت بيني وبين توم هيتون، وهو إنجليزي نشأ وترعرع في اليمن أثناء وجود والده مع القوات البريطانية في عدن، وكان

يعرف اللغة العربية ويفهمها قراءةً وكتابة، ولكنه لا يتحدَّث بها بطلاقة، وعندما تخرَّج في كلية المعلِّمين انتدب مفتشًا (موجهًا) للغة الإنجليزية في اليمن أيضًا، وكان ما يزال في مقتبل العمر، فنشأَت بينه وبين رجال التعليم فيما كان يُسمَّى باليمن الجنوبي أو جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية صداقةٌ عميقة، رغم أنه كان يحمل جنسية رجال الاحتلال ويمثِّل الاستعمار ويرمُز له في أعينهم، وكان نموذجًا للتناقُض بين مُثُلِ الإمبراطورية القديمة ونظرة «بريطانيا الجزيرة» (الدولة الأوروبية ذات السلطة المحدودة) منذ عام ١٩٥٦م، وكان من الطبيعي أن نختلف حول كل شيء، سياسيًّا لما ذكرتُه من أسباب، واجتماعيًّا لأنه طلَّقَ زوجته الإيرانية وأرسل ابنه منها معها للتعلُّم في أمريكا، وأصبح يعيش مع امرأة تُدعى جاكلين (وندعوها نحن جاكي) دون زواج، كان يتخبَّط في حياته بين الغرب والشرق، فهو لا يؤمن بالزواج؛ لأنه يرى فيه «مؤسسة اجتماعية» فاشلة، تتطلب من المشاركين فيها تنازلاتٍ متوالية دون أن تقدِّم لهم أية مزايا في مقابلها، وكان يردِّد دائمًا ما يعتبره مَثَلَه الأعلى وهو أن يعيش الإنسان لذاته لا لشخصٍ آخر، فإذا لجأتُ أنا إلى طرح الحُجج المعارضة قال لي “appease appease and you’re crushed!” أي الإنسان يُسعِد غيره حتى يتحطم، ويبدو — والله أعلم — أن زوجته الإيرانية كانت ذات شخصيةٍ قوية فكان يُضطَر إلى إرضائها على حساب رغباته حتى انفصلا وأخذَت الغلام وسافرَت إلى أمريكا. أما علاقته بجاكي فتُسمَّى cohabitation أي الحياة معًا دون زواج، وكان يفضِّل ذلك النظام على الزواج؛ لأن الزوج أو الزوجة فيه لا يتعرضان لضغط «المؤسسة» وتبعاتها المالية، ويتوهَّمان (في رأيي) أنهما أحرار. ولا داعي للإفاضة في رأيي هنا، فقد قلتُه ذات مرة لعلي النشار، المهندس العبقري الذي تزوَّج إنجليزية وهاجر معها إلى أمريكا؛ إذ قلتُ له: «إنني أدعو لكل من أُحبه أن يرزقه الله زوجةً مثل نهاد.» وكان ردُّه أن الاستثناءات لا يُقاس عليها!

عندما التحق توم هيتون بقسم الترجمة كان يواجه صعابًا كثيرة في فهم اللغة العربية، وكان يلجأ إليَّ حتى أشرح له، كما كان يكتُب إنجليزيةً غير نقية، وغير سلِسَلة، وكان مردُّ ذلك في رأيي إلى طول عمله بالتعليم؛ فتعليم اللغة الإنجليزية يُورِث المرء قدْرًا كبيرًا من التزمُّت فيما يتصوَّر أنه صحيح أو خطأ، بل ويحدُّ من النماذج اللغوية التي يتصوَّر فيها الصحة، مما يقطع الأسباب بينه وبين اللغة الحية على ألسنة الناس وفي الصحف، وكان يدهَش للسلاسة التي أكتُب بها تلك اللغة، خصوصًا حين اطَّلع على الفصل الأول من رسالة الدكتوراه وحديثي عن تنوُّع الأساليب الشعرية بتنوُّع

الأنواع الشعرية في أواخر القرن الثامن عشر. وكانت هيلاري وايز المتخصِّصة في علم اللغة ومؤلِّفة كتاب «النحو التحويلي للعربية المصرية» ما تزال تجمع المادة عن العامية، وتتصل بي أنا ونهاد حتى نزوِّدها بالمعلومات التي تريدها عن تلك «اللغة» (أو عن ذلك المستوى اللغوي) وأذكُر أنها زارتنا ذات يومٍ في المنزل، فاطَّلعَت على تحليلي للأساليب المذكورة وعجبَت كيف يتسنَّى لي أن أُقيم تلك الفروق بين أسلوب السرد مثلًا وأسلوب الوصف وأسلوب التأمل، واقترحَت عليَّ أن أستعين بالكمبيوتر في الإحصاءات فقلتُ لها إنني أتصدَّى للنصوص الحية، لا لعدد من الكلمات التي تُحصى وتُعَد، فقالت ولكنك تُحصي الصفات وتصنِّفها وتُحصي الأفعال والتراكيب وتصنِّفها، فجعلتُ أشرح لها كيف أفعل ذلك من داخل النص لا من خارجه، ولكنها أصرَّت على أهمية الكمبيوتر في ذلك الجهد، وهو ما لا أُسيغُه حتى الآن.

وفي يونيو كنتُ قد كتبتُ الفصل الثاني في صورته الأولى، وكنتُ كشأني دائمًا طموحًا لا أُغفِل أدق التفاصيل (وكان أستاذي السابق رحمه الله يقول لي إنك تبغي الكمال فيما لا كمال فيه) وما إن حلَّ أول يوليو حتى وصلَنا خطابٌ من الدكتور نوح الذي كان قد انتقل إلى إدنبره مع أُسرته يدعونا إلى زيارته، وكانت فرصةً ذهبية لقضاء أيام عطلة في شمال إنجلترا وفي اسكتلندا، فأخذنا الأتوبيس السياحي أنا ونهاد الذي يغادر محطة فكتوريا في الثامنة مساءً ويصل إلى إدنبره في الفجر، وغلب النُّعاس نهاد في أول الطريق، ثم استيقظَت في نحو الثالثة وهي تقول لي (وقد غفوتُ من اهتزاز الأتوبيس): انظُر الجبال وألوان الشفَق في حي البحيرات! كان مشهدًا يخلبُ اللُّب، وأفاق معظم الركاب وأخذوا يشهَقون للجَمال المذهل، وبعد ساعة تقريبًا وصلنا إلى إدنبره، وضوء الصباح يتسلَّل من وراء الجبال، ولم تلبث الشمس أن طلعَت، فذهبنا إلى منزل الدكتور نوح، وكان قد استأجر منزلًا كاملًا، فأيقَظْنا أهل الدار، وأوصلَتنا «فتان» زوجته إلى غرفتنا (إذ أصرُّوا على استضافتنا لديهم) فنمنا ساعة أو ساعتَين، ثم صحَونا في نحو التاسعة لنبدأ اليوم الجديد!

وسمعنا ونحن نشرب الشاي الدكتور نوح يقول لزوجته هل أتى الدكتور حامد باللحم؟ وردت عليه ردًّا لم أسمعه، ثم جاءت الفتاتان راندا ورحاب مع خالد الصغير ليُسلِّموا علينا، وطبعًا سألتُه عن موضوع حامد! كان حامد يدرُس الطب في إدنبره، وينطبق عليه تمامًا قول طه حسين في الأيام: «قضى عشرين سنة لم يظفر بالدرجة ولم يستيئس من الظفر بها.» وكان قد اكتشف أن العرب والمصريين يُحبون الكوارع

في رحلة إلى الجنوب عام ١٩٧٣م.

و«لحمة الرأس» والسَّقط، فصار يعمِد في الصباح الباكر إلى السلخانة؛ حيث يقابل صديقًا باكستانيًّا يذبَح الحيوانات بالطريقة الإسلامية، فيزوِّده بهذه الأشياء مقابل قروشٍ زهيدة، ثم يمُرُّ بها على بيوت العرب والمصريين لتوزيعها عليهم، بأسعارٍ «معقولة»، وتدريجيًّا أصبح يأتيهم باللحم كذلك مُقطعًا بالطريقة الشرقية، فراجت تجارتُه، واشترى منزلًا، لكنه لم ينسَ أبدًا دراسة الطب، فإذا قال له أحدهم: «عد إلى مصر.» غَضِبَ غضبًا شديدًا وقال: كيف أعود دون الدكتوراه؟

وبعد نزهة في ربوع إدنبره عُدنا إلى المنزل لنستمع إلى أخبار حرب الاستنزاف، وكانت تلك أيام إسقاط الطائرات الفانتوم الإسرائيلية، وكان الدكتور نوح لديه راديو رائع نسمع فيه مصر بوضوح، وكانت أجهزة الإعلام البريطانية تُشير إلى إسقاط هذه الطائرات بنسبة الفضل لا إلى مهارة المصريين بل إلى عظمة الأسلحة السوفيتية، وكنا نغتاظ مما يقوله المذيع مثلًا من أن «الصواريخ السوفيتية أسقطَت الطائرات الإسرائيلية» وهو لا يقول «السوفيتية الصنع» ولا «الطائرات الأمريكية» كأنما كان الاتحاد السوفيتي هو الذي يتصدى لإسرائيل! ومع ذلك فقد كان العرب جميعًا جذلين مستبشرين، وبعد السياحة في اسكتلندا بدأنا جولة في حي البحيرات، وزرنا كوكرماوث Cockermouth مسقط رأس وردزورث، وكنت أنطق اسم البلدة النطق الشائع في جنوب إنجلترا؛ أي بإدغام الميم والثاء، ولكن أهل البلدة كانوا ينطقون الاسم «ماوث» (بمعنى مَصَب، وهي

اللاحقة التي تدخل على أسماء الأنهار) فعجبتُ لذلك، ثم ذهبنا إلى كيزيك Keswick وسِرنا على الأقدام (مثل الشاعر) حول بحيرةٍ صغيرة محيطها ١١ ميلًا قطعناها في ثلاث ساعات، ثم زرنا بحيرة وندرمير Windermere، ووقفنا تحت جبل سكيدو Skiddow الذي يذكُره الشاعر كثيرًا، وأخيرًا ركبنا الحافلة وعُدنا إلى لندن، متوقِّفين بكبرى المدن الإنجليزية في طريقنا.

وفي أواخر يوليو توقَّفَت حرب الاستنزاف، بعد أن أعلن عبد الناصر في خطاب عيد الثورة قبول مصر لمبادرة روجرز وزير الخارجية الأمريكي، الذي كان يتوسَّط لعقد اتفاق سلام بين العرب وإسرائيل؛ بحيث يسري وقف إطلاق النار اعتبارًا من ٧ أغسطس، وكان السد العالي قد اكتمل قبل عيد الثورة بيومَين، فتفاءلنا بهذه الأنباء الطيبة، ولكن الصراع بين الفلسطينيين وحكومة الأردن تصاعَد بعد ذلك، بعد أن رفض المجلس الوطني الفلسطيني مبادرة السلام، يوم ٢٨ أغسطس، وبدأ القتال بين الفلسطينيين والأردنيين يوم ٧ سبتمبر (أيلول الأسود) وقام الفلسطينيون باختطاف طائرتَين؛ إحداهما بريطانية وكانت متجهة إلى نيويورك، وأطلقوا سراح الرهائن ثم فجَّروا الطائرة، مما جعل أجهزة الإعلام البريطانية لا تتحدَّث إلا عن «الإرهاب» بتحيُّزٍ واضحٍ ومزعج، ولما اشتدَّت حدة القتال أمر الملك حسين الدبابات بالنزول إلى شوارع عمان، فانسحب رجال منظمة التحرير الفلسطينية وبسَطوا سيطرتهم على المدن الواقعة في شمال الأردن، وكانت الأنباء تقُضُّ مضاجعَ العرب في كل مكان، فتدخَّل عبد الناصر في أواخر سبتمبر، ودعا إلى عقد مؤتمر قمةٍ عربية في القاهرة، وتُوِّجَت جهودُه بإحلال السِّلم بين الجانبين يوم ٢٦ سبتمبر، وبدأ رحيل الزعماء العرب، وبعد توديع أمير الكويت يوم ٢٨، أُصيب بنوبةٍ قلبية لم تمهله.

كان ذلك يوم الإثنين، وكنتُ أغفو دقائق قبل استئناف القراءة، وكانت نهاد تسمع أخبار التليفزيون حين صاحت صيحةً ارتجَّت لها أرجاءُ المنزل، فهبَبتُ من غَفْوتي أسألها ما الخبر، وعندما علمتُ لم يكن في أيدينا سوى البكاء. وقالت نهاد: «لا بد أن أعود إلى مصر، ما الذي سيحدُث الآن؟» وقامت فارتدَت ملابس الخروج وارتديتُ ملابسي وخرجنا نسير في الطرقات، كمن يهيم على وجهه حائرًا لا يدري أين تقودُه قدماه، لم نكن نتوقَّف ولا ننظر إلى ما حولنا، ولم نكن نتبادل أي كلماتٍ مهما تكن؛ فالحزن العظيم لا يُعبِّر عنه سوى الصمت، وكان الليل قد حَطَّ وأظلمَت الحوانيت وأُغلقَت الأبواب، ومرَرْنا بحانةٍ كان عهدي بها صاخبةً متلألئة فخُيِّل إليَّ أن الحزن يَرينُ بأثقاله عليها، وعبَرنا النهر

ووصلنا إلى محطة القطار، وكانت الساعة قد جاوزَت العاشرة مساء، وعندما سمِعنا هدير القطار وقفَت نهاد وقالت: «لو كان يستطيع أن يحملني الآن إلى مصر!» ثم قفلنا راجعين فلم ندخُل إلى المنزل إلا بعد منتصف الليل وقد بلغ بنا الإرهاق مبلغه.

كان موعدي يوم الثلاثاء ٢٩ / ٩ مع المشرف لأسمع رأيه في الفصل الثاني، فذهبتُ متثاقلًا لا أكاد أُحِس بالرغبة في لقائه، وعندما دخلتُ غرفتَه في الثانية تمامًا رحَّب بي وكان قد فتح الفصل أمامه، ثم قال: «أراكَ اشتقْتَ لنفسك منهجًا خاصًّا في تناول الأسلوب.» وكان مثل هذا التعليق يُوحِي بالاعتراض ولكنني قبل أن أفتح فمي قال: «ولكنكَ أحسنتَ استخدامه.» ثم تصفَّح الفصل وتوقَّف عند كلمةٍ مركَّبة كتبتُها وهي highly-rated وقال: «هل تعرف أن هذا التعبير أمريكي؟» وكانت لهجتُه حادة، فأنكرتُ أنني كنتُ أعلم ذلك، فأشار إلى معجمٍ ضخم مفتوح أمامه وقال لي: «تفضَّل! اقرأ هذا الباب!» وقلتُ له إن تغييرها ممكن فقال ببسمةٍ صافية: حذَارِ من هذه «المطبَّات»! ولم يلبث أن قال: ولماذا تستخدم تعبيرًا مثل severe objurgations والبدائل السهلة متوافرة؟ فاعتذرتُ من جديد، وفجأةً قال لي: يبدو أن العرب قد صُدموا لوفاة عبد الناصر! وشرحتُ له الموقف فأبدَى تفهُّمه، وسلَّمني الفصل وقال لي: هل ستسافر إذن إلى مصر؟ فقلتُ له لا ولكن زوجتي ستُسافر، وانصرَفْت.

٦

وفي يوم الخميس الأول من أكتوبر سافرَت نهاد إلى لندن لحضور الجنازة الرمزية التي صاحبَت جنازة عبد الناصر في القاهرة، وكانت ترتدي ثياب الحِداد وتلبس نظارةً سوداء حتى لا يرى أحدٌ آثار البكاء، وقصَّت عليَّ قصصَ الأحزانِ الرهيبةِ التي أعرَبَ عنها العرب وغير العرب من المتعاطِفِين معنا وكان من بينهم فتاةٌ إنجليزية متزوجة من عراقي، وكانت تبكي عبد الناصر بكاء الحبيبة لحبيبها، وكان طابور الناعين غير مسبوق، فكأنما كانت مظاهرة إيمان بما كان الراحل يرمز له، لا مجرَّد تعبيرٍ عن الحب والصدمة. وبدأَت نهاد في اتخاذ إجراءات العودة إلى مصر لرؤية ما جرى لها بعد رحيل القائد والأب الروحي، فذهبنا إلى المكتب الثقافي يوم الجمعة للحصول على خطابٍ إلى شركة مصر للطيران حتى يمنحنا تخفيضًا، ولكن الزحام على الشركة كان غريبًا، ولم تكن هناك أي أماكنَ خاليةٍ قبل ديسمبر، فقَنعْنا بذلك، وحجَزنا التذكرة وعُدنا.

وعندما عُدتُ وجدتُ خطابًا من خالي عبد الحليم (التاجر) يقول لي فيه إنه في لندن وإن معه ضيفًا هو رئيس مجلس إدارة الشركة التي أصبح خالي مستشارًا فنيًّا فيها بعد «تأميم» تجارته، وإنه يتوقَّع أن يراني، فذهبتُ إليه صباح السبت، وبادرَني قائلًا: من تُرى سيخلُف عبد الناصر؟ وقلتُ إن نائب رئيس الجمهورية هو أنور السادات، فقال: «لا لا .. السادات ما ينفعش.» ولم أشأ أن أُناقِشَه في السياسة؛ فالواضح أنه كان يُريدُني في «مأمورية» خاصة، واتضح أنها كانت تتعلَّق بالترجمة بين رئيس الشركة وبين بعض الشركات الإنجليزية التي كان يريد شراء بعض المستلزمات منها (الكيمياويات وأدوات المعامل)، وأكَّد لي خالي رحمه الله ألَّا أُفصِح عن تفاصيل المفاوضات، وأن أكتُم الأمر؛ فذلك الشخص مهمٌّ وعلى علاقة خاصة بالكثيرين من «الكبار»، وفعلًا لم أفتح فمي بكلمةٍ عما دار حتى هذه اللحظة، وسوف أُبقي اسمه سِرًّا حتى بعد ثلاثين عامًا، وبعد أن تُوفِي، رحمه الله.

عندما اصطحبتُ الزائر الكبير يوم الثلاثاء التالي (٦/١٠) إلى أول شركةٍ قال لي بلهجةِ مَن اعتاد الأمر والنهي: «سوف أُكافِئك ماليًّا على عَملِك، ولكن لا تقُل لخالك.» ولم أعقِّب. وفي مكتب رئيس الشركة الإنجليزي دارت أُولى المفاوضات التي لم تَستغرِق إلا ساعةً أو بعض ساعة، وكانت تتلخَّص في أن تقوم الشركة الإنجليزية بتوريد كمياتٍ كبيرة من مادةٍ كيميائية معيَّنة إلى الشركة المصرية بسعرٍ سبق الاتفاق عليه، وأن تُحوِّل الشركة المصرية الثمن إلى البنك الذي حدَّدَته الشركة الأجنبية حالما يتأكد الخبراء من مطابقة الشحنة للمواصفات المطلوبة، على أن تُحوِّل الشركة الإنجليزية العمولة الخاصة برئيس مجلس الإدارة إلى بنك حدَّده الزائر الكبير في ألمانيا. لم تكن هناك أي صعوبةٍ في الترجمة، وكان الحوار سهلًا ومُيسَّرًا، وعجبتُ من ضرورة الزيارة إذا كان الاتفاقُ قد تم سلفًا عن طريق الخطابات، وكنتُ أُترجِم ما يُسمَّى بالترجمة التتبُّعية consecutive أي إنني كنتُ أدوِّن ما يقال باختصار، ثم أترجمه ترجمةً دقيقة، وسرعان ما اتضَح لي السبب الحقيقي للزيارة؛ إذ إن الزائر الكبير كان يريد أن يرفع نسبة العمولة من ٥٪ إلى ١٠٪، وعندما ترجمتُ هذا الجزء من الحوار اعترض التاجر البريطاني وقال: ولكننا اعتدنا دفع ٥٪ فقط إلى جميع زملائك، فردَّ الزائر الكبير قائلًا: وهل كانوا يمنحونك التسهيلات التي سوف أمنحُها لك؟ وتساءل التاجر الإنجليزي عن نوع هذه التسهيلات، فأخرج الزائر الكبير ورقةً من جيبه وقال لي: تَرجِم! وكانت الورقة تقول (وهي مكتوبة بخط اليد): إن الشركة المصرية تقبل أن يكون تركيز المحلول الكيماوي

أقل من التركيز المعتاد، وهو مما لا يُدرَج في قائمة المواصفات، مما يوفِّر للشركة نسبةً كبيرة من التكاليف، كما أن ذلك سوف يسمَح بتعبئة المحاليل في زجاجات بلاستيك وهي أرخص كثيرًا من العبوات الزجاجية المعهودة. وبدَت الدهشة على وجه التاجر وبدا عليه التردُّد، وراجعَني فيما قُلتُ علَّني أكونُ قد أخطَأْت، ولكنني أكَّدتُ له ما ورَد في الورقة، فقال لي: آسف! لا بد أن أتكلَّم في التليفون. واختفى.

ومكثنا صامتين ننتظر والزائر الكبير يؤكِّد ضرورة عدم الإفصاح لخالي عما دار في هذه الجلسة، وقد أجبتُه إلى ما طلب، وعندما عاد التاجر الإنجليزي قال: لا بأس! ولكن أرجو المرور غدًا لتوقيع عقدٍ جديد بحضور المحامي، فابتسم الزائر الكبير وقال فليكن. ونهَضنا فقال الآن نذهب إلى شركةٍ أخرى.

وتكرَّر ما حدث مع التاجر الإنجليزي الأول غير أن الزائر الكبير طلب رفع النسبة إلى ٧٪ فقط، وعجبتُ في نفسي، واتضَح من الحوار أنه قد دبَّر ما يلي: الصفقة كانت توريد ميكروسكوبات، وهذه تُصنَّع وفقًا للطلب by order وقد يستغرق تصنيعها شهورًا أو عامًا كاملًا، وقد اتفق رئيس مجلس الإدارة (الزائر الكبير) مع أعضاء المجلس على صرف الثمن كله (full disbursement) حالما تصل أول دفعة من الصفقة، مما يتيح للمال أن يُوضعَ في البنك ويُدِرَّ أرباحًا قدْرُها نسبة ٦٪، تذهَب نسبة ٣٪ منها إلى التاجر، مطروحًا منها ١٪ لقاء الدفعة الأولى، و٢٪ تُضاف إلى عمولة رئيس مجلس الإدارة، ومثلما فعل الأول قام التاجرُ بإجراء اتصالٍ تليفوني (لعله بالمحامي) ثم عاد ليعلن موافقتَه. وخرجنا على أن نمُرَّ في اليوم التالي لتوقيع عقدٍ جديد.

وسألتُه ونحن في الطريق إن كان تخفيض نسبة التركيز في المحلول سوف يؤثِّر على فاعليته فضحك وقال: «إطلاقًا! لا تكن ساذجًا مثل خالك! هذه المحاليل لا تُستخدَم في الصناعة، ولكنها تستخدم في المُختبَرات المدرسية، ونحن نورِّدها للمدارس والجامعات فقط! فهل تتصور أن المدرسة سوف تعرف قوة تركيز المحلول؟ ولو عرفَت فهل يؤثِّر ذلك في شيء؟ لسوف يُذيب الحامض ما يوضع فيه مهما كان تركيزه! لا تكن حنبليًّا!» وضحكتُ حتى أُخفِّف من توتُّر الموقف، ثم عُدتُ أقول ضاحكًا حتى لا أغضبه: «كان عندنا مدرس اسمه شكري ديمتري يستطيع معرفة قوة تركيز المحلول!» وأطلق ضحكةً مجلجلة ونحن في قطار المترو، ثم قال: «وفيه كام شكري ديمتري في مصر؟» ثم همس لي: «وحتى لو عَرفَ المدرس ذلك، فسوف نُناقِشه ونشكِّك في نتائجه، فإذا أصَرَّ أرسلنا له زجاجةً أخرى من زجاجات ألمانيا الشرقية!»

وعندما قابلتُ خالي سألَني عن المفاوضات وهل كُلِّلت بالنجاح فأكَّدتُ له أن الزائر الكبير قد أبرم اتفاقياته بنجاح وربما لن يحتاج إليَّ في اليوم التالي، ولكنه اتصل به تليفونيًّا فقال له إنه يريدني لمهمةٍ أخرى، فذهبت إليه يوم الأربعاء، فقدَّم لي ورقة مالية بخمسة جنيهات، فقلتُ له إنني لا أتقاضى أجرًا على ذلك، وإن شئتَ فإن أجري اليومي في الترجمة ١٨ جنيهًا! فضحك وقال: «أنت لا تعرف مدى نفوذي وسلطتي في مصر.» فأسرعتُ أقول: فاعتبِر خدماتي هديةً مني إليك! وقال في اللحظة نفسها: «هدية مقبولة!» ثم تواعدنا على اللقاء في اليوم التالي، وقابلني هاشًّا باشًّا وقال: «أنتم ناس طيبون، وأنا أساعد خالك؛ لأنه بـ «يعرف ربنا» رغم ما أعلمُه عنه من علاقةٍ مع التجار الألمان، ولكنني ساندته وحميتُه من بطش عامر.» وانطلقنا فوقَّعنا العقدَين، ثم رحل الزائر الكبير مع خالي إلى ألمانيا أولًا ثم إلى مصر، وعندما عُدتُ إلى نهاد لم أشأ أن أُعكِّر صَفْو أحزانها على وفاة عبد الناصر، ولم أشَأ أن أقول لها ما يحدُث في القطاع العام، وإن كان في أعماقي صوتٌ داخلي يهتف: أين أنت يا عبد الناصر حتى أُقصَّ عليك ما رأيتُه وما سمعتُه؟! رحم الله عبد الناصر.

وشُغلَت نهاد في الخريف بالاستعداد للسفر، وكان يبدو لي أنها كانت تريد أن تطمئن إلى أن مصر ما تزال حيةً تُرزق بعد وفاة عائلها، أما أنا فشُغِلتُ بترجمة خطابات السادات في عُطلة نهاية الأسبوع، وبدراسة مسرح القرن الثامن عشر في إنجلترا ساعاتٍ طويلةً كل يومٍ في مكتبة الكلية، تمهيدًا لكتابة الفصل الثالث عن مسرحية «سكان الحدود» The Borderers التي كنتُ أراها شيكسبيرية المذاق، ولا تكاد تنتمي إلى القرن الثامن عشر إطلاقًا!

وسافرَت نهاد، وعندما عادت كانت قد شُفيَت تمامًا من الحزن، بعد أن ذاقت الأمرَّين في محاولة استخراج تأشيرة الخروج من المجمَّع، وكانت تتردَّد عليه يوميًّا حتى يسمحوا لها بالسفر، ولولا جهود الأستاذ صليحة والدها رحمه الله ما خرجَت ثانيةً من مصر. لكن تلميحاتها هذه المرة كانت واضحة؛ فالكل في مصر يتساءل عن عدم إنجابنا للأطفال، وكان لسان حالها يقول «أريد طفلًا!» وكذلك كان لسان حالي أيضًا!

٧

لا شك أن السنوات الأربع التي عشناها معًا دون أطفال قد قرَّبَت بيننا كثيرًا فكانت نهاد لي نعم الصديق، وكانت قراءة الكتب معًا والذهاب إلى المسرح معًا من الظواهر الفريدة

بين الدارسين المتزوِّجين هنا، ولأختم هذا الفصل بحادثةٍ ما تزال تختزنها ذاكرة نهاد «الانتقائية» (eclectic) وإن كنتُ غير واثقٍ من أسس اختياراتها.

حدث في صباح يوم أحد، وكنا نقرأ معًا صُحف نهاية الأسبوع أن دَقَّ أحدهم الباب فقمتُ إليه فإذا برجل وامرأة طاعنَين في السن يُلقِيان عليَّ تحية الصباح، ثم سألاني: أنتم مؤمنون بالله؟ فخِفتُ أن يكونا من «شهود يهوه» وهي طائفة يرميها الناس بالخَبل، فأسرعتُ أقول نحن مسلمون! فابتسم الرجل وقال: إذن تؤمنون بالله. وتقدَّم للدخول مع المرأة! لم أستطع منعَهما ونهضَت نهاد فرحَّبَت بهما وصنعَت لهما الشاي، وما إن جلسا حتى انطلَق كلٌّ منهما يتحدث بإسهاب عن الفِرَق الدينة التي بلغ عددها — فيما قالا — ٢٥٠ فرقةً وطائفة، وحدَسْتُ ما يرميان إليه؛ فمن المؤكد أنهم سيقولان إنها جميعًا ضالة، وإنهما ينتميان إلى الفرقة الناجية، بل وسوف يدعُواننا إليها. وصَحَّ ما توقعتُه وإن كانا قد استغرقا وقتًا طويلًا في التمهيد للدعوة. أما ما يعتبرانه الفرقة الناجية فهي المورمونية، أو طائفة المَلَاك مورمون، وسوف ألخِّص فيما يلي ما قالاه؛ إذ أفادني فيما بعدُ، دون أن أدري، في فهم أحد التيارات الرئيسية في الفكر الغربي وهو التيار الديني.

بدأ العجوزان الحديث بانتقاد أخلاق أهل العصر، والقطع بأن مَردَّ ذلك كله إلى نضوبِ مَعينِ الحياة الروحية لدى الجميع؛ لأن الدين تحوَّل إلى مؤسساتٍ بشرية، تخضع لأهواء المفسِّرين، وقد تنحرف هذه المؤسَّسات حتى لو صدق القائمون عليها؛ لأنهم بشر وشيمة البشر الخطأ، والدين في رأيهما نبعٌ متجدِّد ولا يجب أبدًا أن يقول أحدٌ بانقطاع الوحي؛ فالله الذي خلق العالم لم يتركْه في أيدي الكهنة بل يوحي دائمًا إلى كل روحٍ بالرؤى التي تُساعِدها على إدراك جلالته وعظمته، والإسلام في رأيهما شاهدٌ على ذلك؛ فالمسلم يتوجَّه إلى ربه بالصلاة وحده، ويتحمل وحده أوزاره، ويثاب على فِعاله أو يُعاقَب، مهتديًا بضميره وبالروح التي هي قبَسٌ من روح الله.

وبدأ الضَّيفان في دعوتنا إلى تأمل المورمونية التي تقول إن الروح إذا نمَت وتَرعرعَت أصبحَت إلهًا؛ ولذلك فإنهما يؤمنان بأن في أعماقنا آلهةً كثيرة هي الأرواح التي تدفَعنا إلى فعل الخير وتَصرِفنا عن ارتكاب الشرور، ودَعَيانا إلى تأمُّل تعاليم المَلَاك مورمون وهي التي يضمُّها سِفر مورمون الذي ترجمه (القديس) جوزيف سميث في أمريكا في النصف الأول من القرن التاسع عشر، وتعاليمُه لا تتناقض في رأيهما مع الإسلام؛ فهي تدعو إلى تعدُّد الزوجات، وتعدُّد وجهات النظر، وقالا إن الخلاف والاختلاف من سمات

البشر؛ ولذلك فالدين الحقيقي لا بد أن يسمح بذلك وهذا هو ما تدعو إليه المورمونية، ونظرتُ في ساعتي ثم نهضتُ إيذانًا بانتهاء الزيارة فنهَضا وانصَرفا!

وكان لدينا في العمل شابٌّ أمريكي يُدعَى «ألان» (ولا أعرف له اسمًا آخر) أُشِيعَ عنه أنه مورموني، فسألتُه عما سمِعتُه من العجوزَين فقصَّ عليَّ القصة بالتفصيل، قبل أن أقرأ عنها بعد عشر سنوات في قصص شرلوك هومز (هولمز) التي كتبَها السير آرثر كونان دويل Doyle البريطاني، ومُوجَزها أن في الولايات المتحدة مؤسَّسةً كنسية تُسمَّى كنيسة القديسين المتأخرين Church of Latter-Day Saints تؤمن بأن هناك سِفرًا يُسمَّى سفر مورمون Book of Mormon تعتبره تلك الكنيسة من أسفار الكتاب المقدَّس وإن كان لم «ينزل» إلا في القرن التاسع عشر على رجلٍ يُدعَى جوزيف سميث فترجمَه في عام ١٩٣٠م، ونشره في باميرا Palmyra (تُقابِل تدمر العربية) بولاية نيويورك في العام نفسه، وقيل إن الكتاب المذكور مُترجَم عن اليونانية القديمة، وقيل عن العبرية، وقيل عن غيرها، ولكن إثبات ذلك مُحال؛ لأن تلك النصوص المزعومة قد فُقدَت، والكتاب يقُص قصةَ هجرةٍ مجموعة من اليهود (العبرانيين) إلى أمريكا، من القدس، في عام ٦٠٠ قبل الميلاد، بقيادة نبي يُدعَى «ليحي» Lehi، ثم انقسم المهاجرون إلى طائفتَين؛ الأولى هي اللامنيون Lamanites الذين نسُوا عقائدهم وأصبحوا من الهمَج والبرابرة، ومن نَسلِهم انحدَر الهنود الحمر الذين وجدَهم كريستوفر كولومبس في أمريكا، والثانية هي النفيتيون Nephites الذين أخذوا بأسباب الحضارة وبنَوا المدن العظيمة، وأصبحَت لهم ثقافتُهم الخاصة، وتركوا آثارًا رائعة، ولكن اللامانيين كانوا لهم بالمرصاد فلم يكُفُّوا عن محاربتهم حتى قضَوا عليهم في عام ٤٠٠ الميلادي تقريبًا، ولكن الكتاب المذكور يقول إنهم قد استقَوا تعاليم المسيحية الحقَّة عن يسوع بعد رفعه إلى السماء، وكتبَها نبيهم مورمون على ألواحٍ من الذهب الخالص، إلى جانب تاريخ الطائفة بطبيعة الحال، وتركها مورمون لابنه موروني الذي أضاف كتاباتٍ أخرى إليها ودفنَها في الأرض حيث مكثَت ١٤٠٠ سنة، حتى كُتِبَ لها أن ترى النور من جديد على يدي موروني نفسه الذي بُعث من مرقده وكان يتخذ صورة ملاكٍ حينًا وصورة نبيٍّ حينًا آخر، فأسلمَها إلى جوزيف سميث الذي سارع بتَرجمتِها قبل أن تختفي إلى الأبد.

وسألت روجر كولمان (الكاثوليكي) عن رأيه في هذا الكلام فضحك وقال إن كل ما يعرفه هو أن المورمونيين لا يشربون الخمر ولا يأكلون لحم الخنزير! وسألتُ آخرين من البروتستانت فقالوا لي إنهم يعتبرون المورمونيين كُفارًا، وكنتُ في المكتبة أنظر أصل

القصة حين خطر لي أن أسأل أحد الأمريكيين؛ ففي أمريكا ما لا يقِلُّ عن خمسة ملايين من أتباع هذه الطائفة، وسألتُ عن زميلةٍ لنا من أمريكا تُدعى إليزابيث فقالت لي السكرتيرة: «آه! المورمونية؟» فقلتُ في نفسي: «يا محاسن الصُّدف!» وسعيتُ إليها حتى قابلتُها، وكأنما كانت تتوقَّع مني الهجوم على العقيدة؛ إذ بادرتني قائلة: «ليس صحيحًا أن العقيدة مستوحاة من رواية القس سولومون سبولدينج، وليس صحيحًا أنها من ابتكار جوزيف سميث، فهذه من تخرُّصاتِ أعدائنا الذين وطَّنوا النفس على الكفر والإلحاد!».

وأكَّدتُ لها أنني لم أقرأ تلك الرواية، وأن كلَّ همِّي هو أن أعرف المزيد عن العقيدة لا أن أطعَن فيها أو أدرُس تاريخها، وعندما شعَرَت أنني صادقٌ صحِبَتني إلى الكافيتريا حيث اشترى كلٌّ منا فنجان شاي وشَرعَت تقول:

> «مذهبنا الراهن مذهبٌ روحي، وهو يفرض على الفرد مسئوليةً روحية يتخطى بها تكاليف (بمعنى طقوس) الكنيسة، وأكبر دليلٍ على ذلك تجاوزُنا للنظم الكنسية التي تقوم على اعتبار الجسد دَنَسًا، وما دامت الروح طاهرةً فلا بد أن يكون مسكنها طاهرًا، والطهارة في مفهومنا تعتمد على الماء؛ فالتعميد يجري بغمر الجسد في الماء، والاستحمام من وسائل التطهير المؤكَّدة، ونحن نفضل المأكولات الطاهرة مثل الفواكه والخضر، ومعظمنا نباتيون، ولا نشرب الخمر؛ لأنه يُغيِّر من الفطرة وكل ما يلوِّث الفطرة أو يُدنِّسها فهو نجس، ونحن نؤمن بالخير الذي يتجلى في الحرية والإنجاب والتواصُل؛ ولذلك نؤمن بتعدُّد «رفقاء المضجع» استجابةً للفطرة ونبذًا للحرمان وتحقيقًا للإشباع الروحي.»

وأسهبَت إليزابيث وأطالَت، فأدركتُ أن شيوع المذهب دليلٌ على جاذبيةٍ خاصة فشكرتُها، ولكنني عندما أردتُ الانصراف قالت لي: «إذا أردت أن تعرف المزيد فارجع إلى الأستاذ ماثيوز الذي يُعتبَر حُجةً في تاريخنا.» وقد فعلتُ ذلك في نفس اليوم، فقال لي دهشًا: «ومتى كان المسلم مهتمًّا بالمورمون؟ لا بد أنه التعطُّش للمعرفة!» ولكن ما قاله كان مذهلًا! قال ماثيوز إن المورمونيين يشكِّكون في صحة ترجمة الكتاب المقدَّس، وإن سِفر مورمون الذي يزعم جوزيف سميث أنه ترجمَه عن أصلٍ مفقود لا يمكن أن يكون كتابًا مقدَّسًا؛ فهو «محاكاة شعرية» لأسفار العهد القديم ويقوم على فكرة «الدائرة»؛ أي إن التاريخ يسير في دوائر، فالناس تنزع إلى الخير في أول الزمان ومن ثَم تحيا في رغدٍ

من العيش، ثم تَنزِع إلى الشر فيُصيبُها البؤس والهلاك، ثم تتوب فيعود العيش الرغد وهكذا، وأما الكتابان اللذان يزعم جوزيف سميث أنه اكتشفهما وهما كتاب إبراهيم وكتاب موسى وأدرجهما في كتابٍ له لم يستكمل تأليفه، (واسمه لؤلؤةٌ غالية الثمن (Pear of Great Price)؛ فقد اكتشف العلماء منذ أعوامٍ قليلة أنهما منقولان عن كتاب الموتى الذي وضَعه قدماء المصريين، وكانت بعض أجزائه المترجَمة بعد اكتشافه وحل رموز اللغة المصرية القديمة قد نُشرَت في أوروبا في أواخر عهد سميث، ولا أدلَّ على ذلك من البردية التي صوَّرها سميث (أو مَن خلفه) ووضَعها في صَدْر كتابه إذ أكَّد الخبراء أنها تزوير في تزوير، وأن ما بها لا يعدو أن يكون ترجمةً حرفية عن الترجمة الفرنسية للشعائر الجنائزية المصرية، وقد أُعيد اكتشافُ البردية المصرية التي تتضمَّنها في مُتحَف متروبوليتان للفن بنيويورك عام ١٩٦٦م، وقام الخبراء بمضاهاةِ ما جاء فيها بالبردية التي يزعُم سميث أنها البردية الأصلية.

أما أخطر ما نبهني إليه ماثيوز في هذا كله فهو ما لم يُفصِح عنه الزائران المُسنَّان، ولا ألان، ولا إليزابيث، ألا وهو أن «الطهارة» التي كانت تتحدَّث عنها تنطبق أيضًا على لون الجلد، فلم يذكر لي ألان، ولا وجدتُ في المراجع التي أوصاني بقراءتها، ما يدُل على أن اللامانيين كانوا من ذوي الجلد الداكن؛ ولذلك فقد دفعَهم «الخبث» بمعنى الحطَّة المتأصلة في فطرتهم إلى التمرُّد والهمجية، في حين اتجه النفيتيون لـ «كرمٍ» متأصلٍ في لونهم الأبيض إلى بناء الحضارة والتمدُّن، وإذا كانت الدورة (الدائرة) الأولى قد كتبَت الغلَبة للشر فانتَصَر الهنود الحمر على ذوي البشرة البيضاء (الطاهرة) فلقد أتت الدورة الثانية بالنصر لأصحابه، وأصبح الخير ظافرًا في ولاية «أوتاه» (Utah) الأمريكية، ثم ساد القارة كلها، حتى «تلوَّث» أخيرًا بسبب الهجرة من أفريقيا!

وعندما فرغتُ من تأمُّل هذه الحقائق اتجهتُ إلى كتابٍ في التاريخ يؤكِّد نظرة الأستاذ المتخصِّص والموضوعي، وعندما قرأتُ بعد عودتي إلى مصر بعدة سنوات أن السلطات الكنسية العليا سمحَت للملونين (بمعنى غير ذوي البشرة البيضاء) بأن يَشغَلوا بعض المناصب الكهنوتية فيما أصبح يُسمَّى بحركة إعادة تنظيم الكنيسة عام ١٩٧٨م، ذكرتُ ما نبَّهَني إليه ماثيوز وتأكَّدَت لي صحتُه من كتب التاريخ (لا أسفار المورمون). وفهمتُ أيضًا سِر إلغاء تعدُّد الزوجات (والأزواج) عندما تذكَّرتُ ما قالته إليزابيث عَرَضًا من أن والدتها يهودية، وكان المفروض من ثَم أن تكون يهودية، ولكنها فضَّلَت حرية

الروح، واعتنقَت المورمونية، فأنجبَت من زوجها المورموني أطفالًا تحرَّروا من لون أمها الداكن، فتخلَّصوا من الرابطة «الشرقية».

وعندما قصصتُ ذلك كلَّه على نهاد بعد عَودتِها أبدَت دهشتَها، ثم قالت مقولةً ما تزال تُردِّدها عندما أقُص عليها قِصَصي: «إنت بتهتم بحاجات غريبة!»

الفصل السادس

سارة

١

قضيتُ شهرًا أو شهرَين أتنقَّل بين نصوص دراما القرن الثامن عشر، حتى تمكَّنتُ من تحديد النوع الأدبي الذي تنتمي إليه مسرحية «سكان الحدود» مع مقارنتها بمسرحياتِ روبرت سذي وكولريدج مثل الندم وسقوط روبيسبير ومسرحية اللصوص للكاتب الألماني شيلر التي أثَّرَت في الشعراء الإنجليز، وانتهزتُ فرصة انشغال الإنجليز باحتفالاتِ عيد الميلاد ورأس السنة فانغمستُ في الكتابة، ثم وصلَني خطاب من نهاد تحدِّد لي فيه موعد عَودتِها فاستقبلتُها في المطار ولم تكن تتحدَّث في طريق العودة إلى لندن هذه المرة إلا عن الموظَّفين في مصر وتعذُّر مغادرة البلد، رغم أن عبد الناصر رحمه الله كان قد بدأ يسمح بالهجرة لمن يريد، وجاءت معها بصحيفة الأهرام وفيها قرأتُ أن عدد الذين هاجروا من مصر عام ١٩٦٨م بلغ ٣٣ ألفًا، وارتفع الرقم إلى ٩٠ ألفًا عام ١٩٦٩م، ولم يكن أحد يدري عددَ من سافروا أو هاجروا عام ١٩٧٠م (ربما لأن الإحصاءات لم تكن قد اكتملَت) ومعنى ذلك على أي حال هو أنه أصبح من المُمكِن مغادرة مصر.

وناقشَتني نهاد مناقشةً صريحة في موضوع الإنجاب؛ فهي على مشارف الخامسة والعشرين والأطباء ينصحون بعدم التأخُّر عن هذا السن، وكان أهل مصر قد تساءلوا ولا شك عن سر المنع؛ ومن ثم اتفَقنا في يناير ١٩٧١م على ألا نتعمَّد المنع؛ فنحن نسكن شقة تسمحُ بوجود الأطفال، ولن يعترض أحدٌ على وجودهم، بعد التشتُّت والتنقُّل في لندن، وقَصَّت عليَّ نهاد تفاصيل الأحوال في مصر، خصوصًا على المستوى الشخصي، فعلِمتُ أن فاروق عبد الوهاب سافر أخيرًا إلى أمريكا بعد حصوله على الماجستير من مصر، وأن سمير سرحان وعبد العزيز حمودة أصبحا مدرِّسَين في القِسم، وأن سمير

يكتُب النقد المسرحي في «صباح الخير»، وحكت لي أخبار زواج (أو إعلان زواج) رشاد رشدي، وكان يُخفِي زواجه من السيدة ثريا أثناء وجودنا في مصر، وعندما تم الطلاق بينه وبين الدكتورة لطيفة الزيات وصلَني منه خطابٌ قصير يقول إنه طلَّقها بناءً على رغبتها. كما علمتُ كيف تَوالَى على رئاسة تحرير مجلة المسرح صلاح عبد الصبور وعبد القادر القط قبل أن يتوقَّف صدورها؛ فالبلد رسميًّا في حالة حرب، والشعار الرسمي الآن هو الكفاح من أجل «إزالة آثار العدوان».

وحكَت لي نهاد عن ولادة حاتم أكبر أبناء سمير سرحان يوم ٥ يناير ١٩٧١م، وكيف زارت سميَّتَها نهاد جاد في المستشفى، وحملَت الطفل الجميل وقبَّلَته، وقلتُ لها إننا نتمنى طفلة، وقالت ليتنا نُرزق حقًّا بطفلة، وفي مارس أكَّد لها الطبيب أنها حامل، وحدَّد لها أواسط ديسمبر موعدًا للولادة، ولا أذكُر من كان أوَّل من اقتَرح تسميةَ الطفلة (إن كان المولود أنثى) بسارة، ولكننا لم نكن نختلف حول ذلك الاسم الجميل، وفي أبريل زارني أخي مصطفى (الدكتور مصطفى الآن) الذي كان في طريق عودته من موسكو إلى القاهرة، وأذكُر حادثةً طريفة تؤكِّد ما ذهبتُ إليه من اختلاف بين الثقافتَين العربية والأوروبية.

كنا في القطار عائدَين من لندن إلى ردنج حين وجدنا في المقصورة قبالتَنا فتاتَين إنجليزيتَين تتحدثان بلهجة سكان الريف في مقاطعة باركشير Berkshire (وتُنطق في الجنوب إما بارْكْ شَرْ أو بارْكْ شير واختصارها باركْسْ) وهمس لي أخي ولم يكن قد بلغ الثامنة والعشرين بعدُ، إن أهم ما يميِّز الإنجليزيات عن الروسيات هو الرشاقة، بل كان إذا رأى امرأةً ضخمةً مربَّعة في لندن قال إنها روسية! وفهمتُ أنه بُهر برشاقة الفتاتَين، في حين أنني كنتُ معتادًا على هذا الشكل، فلم أجد فيه ما يستلفتُ النظر، وأحسستُ أنه يريد تزجية الوقت بالحديث معهما، فقلتُ لهما باللهجة الجنوبية «المثقَّفة» إن أخي وصل لتَوِّه من موسكو وهو يدهَش لرشاقة الإنجليزيات! فضحكَت إحداهما وقالت: «ولكن وزني زاد رطلَين منذ أن بدأتُ العمل في هنتلي أند بلمرز (Huntley and Palmers) (وهو مصنع للبسكوت يُطالِع القادم من لندن إلى ردنج بمبانيه الضخمة).» ومن ثَم بدأنا الحوار عن البسكوت؛ إذ أكَّدَت الثانية أنها لم «تَسمن» إلا بعد أن تزوَّجَت، وقالت ضاحكة: «ولكن جودي Judy (أي صاحبتها) لديها استعدادٌ وراثي للسمنة.» وقالت لمصطفى: «لو رأيتَ والدتها لظننتَ أنها روسية!» وضحكنا، ثم قلتُ لهما إن المصريين يفضِّلون الجسم الممتلئ واللون الأسمر (كذبًا) فأسرعَت تقول: «جودي ليست شقراء فهي تصبغ شعرها.» فردت جودي: «بل هو لونه الطبيعي.» واستمر الحوار الضاحك

حتى وصلنا إلى مشارف ردنج، ولاحت مباني مصنع البسكوت، فأشرتُ إليه وقلتُ للأولى: «العودة إلى العمل؟» فقالت: «لا لا! إنه يوم عطلة لي.» وأومأتُ إلى صاحبتها فقالت جودي: «لا! لم تعُد تعمل بعد أن تزوَّجَت!» وعندما غادرنا القطار تبادلنا الوداع وانصرفنا.

ودُهش مصطفى لأننا تحادثنا ببساطة وانصرفنا ببساطة؛ أي دون معرفةٍ سابقة ودون وعد بمعرفةٍ لاحقة! وهذه من الفروق الأساسية بين الثقافتَين، وللقارئ أن يُدرِك مدى دهشتي أنا عندما عُدتُ إلى مصر بعد عشر سنوات فوجدتُ اختلاف «العلامات» واضحًا جليًّا؛ فالإنجليزية حين تبتسم فإنها لا تُعبِّر ببسمتها عن الدعوة للحديث أو التواصل، وهي تبتسم بطريقةٍ تلقائية لا تُعبِّر عن رضًى أو سعادة، وما أكثَر المصريين الذين فسَّروا البسمات تفسيرًا مصريًّا! وأذكُر أن أحدَهم استجاب للبسمة استجابةً مصرية فقالت له الفتاة: «هل من خدمة أؤديها لك؟» وتملَّكَه الحرج ولم يعرف ماذا يقول فـ «اخترع» قصةً لكي يُبرِّر سوء فهمه للبسمة. وللقارئ أن يُدرِك دهشتي أيضًا حين وجدتُ أن التجهُّم في مصر هو القاعدة، وكان عليَّ أن أعيد تفسير «العلامات» — والبسمة إحداها، وغيرها كثير.

واكتمل الفصل الثالث من الرسالة في أول يوليو فقدَّمتُه للمشرف، ولم يَعترِض هذه المرة على شيء بل اقترح أن أَعمِد بعد انتهائي من الدكتوراه إلى نشر النص الأول للمسرحية في مقابل النص المعدَّل (إذ قام الشاعر بتعديله وتغيير أسماء الأبطال) ولكن الحياة في مصر ابتلعَتْني وإن كنتُ نشرتُ مخطوطًا آخر للشاعر، ولكنني أستبق الأحداث هنا؛ فالمهم أنني قد استعدتُ توازُني وأصبحتُ أعتاد الجمع بين الدراسة في المكتبة في أيام الأسبوع وبين العمل بالترجمة في نهاية الأسبوع!

وفي يوم السبت ١٠ يوليو خرجنا أنا ونهاد لنرى إحدى المسرحيات في لندن، وقابلنا في قطار العودة زميلةً لها في العمل تُدعى جون بولارد Joan Pollard كانت تمتاز عن الجميع بذاكرتها القوية وذكائها الحاد، وتفوقُ كل العاملين في المكتبة في معرفتها باللغات الأوروبية، ولم تكن متزوجةً بل كان لها صديقٌ بولندي تُحادِثه باللغة البولندية، وعندما وصلنا كان والدها في انتظارها بسيارته لتوصيلها إلى المنزل، وعرضَت علينا توصيلنا؛ إذ كانت الساعة قد تجاوزَت الحادية عشرة والنصف مساء، وكانت جون غير جميلة وممتلئة الجسم، والسيجارة لا تفارقُ فمها، وكانت مشهورةً بأنها ذات رائحةٍ غير زكية؛ فحاسة الشم ضعيفةٌ لديها وهي مثل الكثيرين من الإنجليز غيرُ مولَعة بالاستحمام، وفي السيارة سألتُ والدها، وكان المسئول عن الاستقبال اللاسلكي لوكالات الأنباء الأجنبية

بكل اللغات، سألتُه عن الأخبار فقال دون أي اهتمام: «طلبوا منا تلقي وكالة الأنباء المغربية «ماب» Maroc Arab Presse بسبب الانقلاب الذي وقع في المغرب!» انقلاب في المغرب؟ واستزدتُه فلم يزِد، وما إن وصلتُ إلى المنزل حتى أدرتُ مؤشِّر الراديو الرائع الذي كنتُ اشتريتُه وهو من ماركة «هاكر» (وما يزال لديَّ) على صوت العرب، وسمعتُ أخبار القاهرة (موجز الثانية بعد منتصف الليل، الثانية عشرة في إنجلترا) فقال المذيع: «هناك أنباءٌ متضاربة عن وقوع انقلابٍ في المغرب، وتقول وكالات الأنباء ...» فعلمتُ أن الانقلاب قد فشِل.

وفي السابعة صباحًا كنتُ أول من يدخل المبنى، فقالت المشرفة وكان اسمها مسز هوايت: «كنتُ أعلَم أنكَ سمعتَ النبأ!» وعلى الفور بدأنا الاستماع إلى إذاعة الرباط، فإذا بالموسيقى العسكرية، والمذيع يقول: «سوف يتحدث الملك الحسن الثاني إلى الشعب بعد قليل.» وقلتُ في نفسي: «هذه أخبارٌ غير متوقَّعة يوم الأحد، وسوف يكون سبقًا صحفيًّا.» وأحضرتُ الآلة الكاتبة، وما إن بدأ الملك الحسن حديثه (رحمه الله) حتى انطلقتُ في الترجمة، فأرسلتُ الأخبار الموجَزة أولًا لإذاعتها في نشرات الصباح نقلًا عن مصدرها الأصلي from the horse’s mouth ثم ترجمتُ الخطاب كله. وتابعنا بعد ذلك تفاصيل المحاولة الفاشلة، وإعدام المشاركين فيها يوم ١٣ يوليو، ولم أكن أعمل في ذلك يوم (الثلاثاء) ولكن الله قدَّر لي أن أعمل في الأسبوع التالي؛ إذ كنتُ في لندن طُول اليوم، وعندما عُدتُ وجدتُ رسالةً تقول: وقع انقلاب في السودان ونريدك للترجمة! واتصلتُ تليفونيًّا بالعمل فقيل لي إن عليَّ أن أقضي نوبةً ليلية؛ أي من الثانية عشرة حتى الصباح، وعندما وصلتُ قال لي المشرف: you’re in clover يعني «يا بختك يا عم!» فسألتُه أن يشرح ما يعني فقال إن إذاعة أم درمان انقطعَت عن الإرسال ولا تُوجَد مادةٌ للترجمة. وما العمل؟ فقال لي هامسًا: «هذا كلامٌ غير رسمي. off the record اذهب فنم في غرفة التليفزيون حتى تعود الإذاعة إلى الإرسال، وسوف يوقظك المهندس!» وعملتُ بنصيحته. وفي الرابعة صباحًا كانت المفاجأة!

لقد اعترض القذافي الطائرة التي كانت تُقِل زعماء الانقلاب الشيوعي (هاشم العطا وعبد الخالق محجوب وغيرهم) وأرغمَها على الهبوط في ليبيا، فكان أن تمكَّنَت القوات الموالية لجعفر النميري الرئيس السوداني آنذاك من إحباط الانقلاب، وسرعان ما عاد إلى السلطة، وأعلنَت إذاعة أم درمان أنه سيوجِّه خطابًا إلى الأمة (مزيد من الترجمة)، وفي يوليو ٢٣ يوليو أُعدِم أربعة من زعماء الانقلاب! عيد ثورتنا! وخطاب آخر للسادات .. مزيد من الترجمة!

خطابٌ آخر؟ أين الخطاب الأول؟ كان ذلك يوم الجمعة ١٤ مايو فيما يُسمَّى بثورة التصحيح. وكانت ترجمته عسيرة؛ فهو يستخدم تعبيراتٍ عامية، ويتحدَّث لغةً لم نعتدها في الترجمة السياسية: «عايزين يهبشوا رئيس الجمهورية» (... to get at) «اتنين لواءات بوليس قلت أحطُّهم في السجن.» وكانت الأزمة قد بدأَت يوم الثلاثاء حين استقال شعراوي جمعة وزير الداخلية، وتصاعدَت حتى تغيَّر شكل الحكومة تمامًا، لكنني كنتُ في المكتبة ولم أطَّلِع على التفاصيل إلا من الصحيفة في صبيحة يوم الأربعاء، وقرأتُ المزيد يوم الخميس ثم بدأتُ الترجمة يوم ١٤ واستَمرَّت ليوم ١٥ مايو ١٩٧١م!

أما خطاب يوليو فكان تقليديًّا، ولم تكن فيه صعوبات، وعندما عُدتُ إلى المنزل وجدتُ خطابًا من سمير سرحان يقول إنه قادم مع زوجته نهاد جاد إلى لندن في الشهر القادم! وحجزتُ لهما غرفةً كبيرة في بيت الطلاب القديم (جنيه واحد في الليلة) فالطلاب يتركون البيت في الصيف والإنجليز يؤجِّرون الغرف الخالية لمعارف الطلاب أو الطلاب السابقين بأسعارٍ زهيدة، وجاء سمير ونهاد إلى لندن وقضينا معهما أيامًا سعيدة، فذهبنا إلى المسرح وشاهدنا مسرحية أيام زمان Old Times لهارولد بنتر، وغيرها، وذهبنا إلى برايتون، المدينة الساحلية الجميلة، وكانت نهاد زوجتي قد بدا عليها الحمل، ولكنها كانت تتنقَّل معنا أينما ذهبنا، وعندما رحلا أحسسنا أن الصيف قد انقضى.

وفي سبتمبر كانت عزة صليحة أخت نهاد قد أتت إلى لندن وفقًا لنظام العمل لتعلُّم الإنجليزية، وكانت تُقيم مع أُسرة في لندن، لكنها لم تكن مُستَرِيحة، وبعد شهرٍ تقريبًا جاءت للإقامة معنا فكانت نسمةً بليلةً من مصر، خصوصًا ونهاد تُوشِك أن تضع المولود، وتوثَّقَت علاقتنا وأحسسنا بأن آلام الغربة قد زالت أو كادت. وكانت عزة قد تخرَّجَت في قسم اللغة الإنجليزية بجامعة عين شمس، وأعتقد أننا قمنا آنذاك بأول محاولةٍ لتصنيف الكتب لدينا وإن لم تكتمل. وكانت نهاد تتردَّد بانتظام على عيادة الحوامل prenatal clinic وأخبرها الأطباء أن وليدها معكوسُ الوضع؛ أي إن رأسه ليست «تحت» حتى تخرج أولًا، وقالوا إنهم لا بد أن ينتظروا حتى الشهر الثامن (نوفمبر) فربما يعتدل الوليد من تلقاء ذاته، وإلا اضطُروا إلى إجراء عملية، فهذا الوضع (breech presentation) يتسبَّب في عُسر الولادة وله أخطاره. وفي أوائل الشهر التاسع قرَّر الأطباء إجراء عمليةٍ قيصرية، فدخلَت نهاد مستشفى باركشير الملكي، وبعد محاولاتٍ عديدة لتوليدها دون عملية، قرَّر الأطباء إجراء العملية يوم ٩ ديسمبر ١٩٧١م، وبلغَني وأنا في المستشفى نبأ ولادة الطفلة، فذهبتُ لأطمئن على نهاد، فوجدتُها تُفيق من المخدِّر ثم تعود للنوم، فقلتُ

لها لقد رزقنا ببنت — هل نُسمِّيها «أمل»؟ ورفضَت، فعُدتُ إلى المنزل وأبلغتُ عزة بالنبأ السعيد. وكانت عزة هي التي حسمَت موضوع تسمية المولود، فأصبحَت تدعوها سارة، غير عابئة بأية اقتراحات قد نقدِّمها.

ومكثَت نهاد أسبوعًا في المستشفى — وهي من أحسن مستشفيات إنجلترا — وتتمتَّع بالرعاية الصحية الكاملة، وتعلَّمَت إرضاع الطفلة، ودرَّبَتها الممرِّضات على كل شيء، وطبعًا دون أن نتكلَّف بنسًا واحدًا، وكانت غرفة نهاد في المستشفى تُشبِه غرف الفنادق الفاخرة، ولن أغفر لنفسي أنني كنتُ أفرض عليها قراءة الروايات التي أُحبها، وكنتُ أيامها مولَعًا بجورج أورويل فقرأَت جميع أعماله، وما زالت نهاد تعاتبني على إصراري أن تقرأ ما قرأَت آنذاك.

وعُدنا إلى المنزل في منتصف ديسمبر تقريبًا، وكانت عزة بمثابة أمٍّ ثانية لسارة، وكان لاحتفالات عيد الميلاد ورأس السنة مذاقٌ فريد في ذلك العام. لقد أصبحَت لي أُسرة، وكلمة family قد تعني الأولاد فحسب بالإنجليزية.

ووصلَني خطاب من هيئة الشئون الاجتماعية التابعة للمجلس المحلي بالمدينة، وأنا لا أُحب التعامل مع الحكومة أبدًا في أي مكان، وقد تكون التعقيدات البيروقراطية التي ورثناها من الإنجليز (أو ما يُسمَّى بالروتين red tape) قد أورثَتني نفورًا من أي تعامُل مع الموظفين، وكنتُ حين يصلني خطاب دون طابعِ بريد أستريب به وأخشى أن أفُضَّه، وأنا لا أُرحِّب حتى الآن بمثل هذه الخطابات المرسَلة في مظاريفَ مصنوعة من ورقٍ غليظ ذي لونٍ بني، حتى لو كان يحمل لي نبأً سارًّا؛ ولذلك أسرعتُ لمقابلة الموظَّفة في الموعد المحدَّد، وبدأَت تسألُني أسئلةً غريبة عن ظروفِ زواجي، وفي أي «مسجد» عُقِد القِران، وبعد أن أبديتُ من الصبر ما استطعتُ أن أُبديَه سألتُ إحداهما (وكانتا فتاتَين في مقتبل العمر، الأولى هي التي تسأل والثانية تُسجِّل ما يُقال) عن السبب في ذلك كله، فقالت إننا نخشى أن تكون تزوَّجتَها رغم أنفها؛ فكثيرٌ من الأغراب (المسلمين) يفعلون ذلك، وخصوصًا من باكستان. وأكَّدتُ لها أن زوجتي تزوَّجَتني طائعة مختارة، وأن مصر تختلف عن باكستان في ذلك، وبدا عليهما الاقتناع، فقالت «الرئيسة»: إذن نكتُب لك الشيك! شيك؟ نعم. هدية من البلدية للطفلة وقيمتها ٢٥ جنيهًا! وعُدتُ إلى نهاد أزفُّ إليها النبأ السعيد، وفي أعماقنا تتردَّد المقولات المصرية التقليدية من أن الطفلة رزقُها واسع.

٢

أصبحَت سارة مِحوَر حياتنا، وكانت نهاد تتبع إرشادات الدكتور سبوك في كتابه المشهور «رعاية الطفل والرضيع»، ولم نلبَث أن شعرنا بأن الشقة لم تعُد كافية، فقدَّمنا طلبًا لاستئجار منزلٍ مستقل في نفس الموقع، وفعلًا انتقلنا إلى المنزل رقم ٢١، وكانت تستأجره زميلةٌ لنا وتقيم فيه مع زوجها كبير المهندسين في العمل، وكان كلاهما قد تقدَّمَت به السن، ولكنها كانت تُحافِظ على رشاقتها أو قل إنها كانت محتفظةً بقوامها well-preserved، وكانت تُقيم علاقةً حميمة مع شخصٍ من أوروبا الشرقية، وزوجُها يعاني من التجاهُل ويشكو للأصدقاء، ثم أشفقَتْ على حاله امرأة من زميلات زوجته اسمها بتي Betty، وكانت تتميَّز بالمرح والبسمة الدائمة، مما كان يُخفي عيوب الهرَم، فالعطار لا يُصلِح ما أفسده الدهر، ولكن المرح يُخفيه، وكثيرًا ما كنتُ أعجَب للغضون التي تكسو ملامحها ثم لا تكسبها مظهر المسنين! ووجد الزوج المهجور أنيسًا شفيقًا في تلك المرأة، فكانا يختفيان في فسحة الظهيرة، ثم يظهران وقد تورَّدَت الخدود وانبسطَت الأسارير، وسرعان ما استقال كلٌّ منهما من العمل واختفيا إلى الأبد.

وأذكُر أنني كنتُ أُشاهِد المنزل مع مستأجرته السابقة قبل الموافقة على الانتقال إليه، وبعد الاتفاق عرضَت توصيلي إلى العمل بسيارتها فوافَقتُ وقالت لي ونحن في بعض الطريق: هل تعلم أن «بتي» قد استقالَت فقلتُ لها: «خسارة!» (Pity!) فقالت "Is it?" فتساءلتُ عما تعني فأوضحَت Is it a Pity? فقلتُ لها إن بتي سيدةٌ ظريفة (such a nice girl") فقالت لي كأنما لتُفضي إليَّ بسرٍّ لا يعرفه أحد:

"It is my belief that it was her who took away my husband."

أي إنها تعتقد أنها هي التي «اختطفَت» زوجها، ولم أشأ أن أُشير إلى ذلك الشخص (وكان من تشيكوسلوفاكيا) الذي كانت تُصاحِبه علنًا، فغمغمتُ وتظاهرتُ بالدهشة، فعادت تقول: «الرجال يُصابون بالجنون بعد الخمسين، ويتوقَّعون من الزوجة أن تظل أُمًّا لهم حتى في شيخوختهم.»

وعندما وصلنا وتم الاتفاق أبلغتُ نهاد، ثم اتصلتُ بالمشرف على المساكن caretaker وهو السيد بنديلو Bendelow كي نبدأ الانتقال، وبعد يومٍ واحد حضر سائق يعمل في محل عملنا واسمه ديريك وإن كنا نناديه بلقب جنجر Ginger؛ لأنه أحمر الشعر، والاسم يعني (الزنجبيل) (الجنزبيل بالعامية) وبدأنا تحميل السيارة بالكتب مثلما حمَّلْناها عند الرحيل من لندن، ثم بقِطَع الأثاث مفردة، وتم الانتقال في يومٍ واحد،

وكانت عزة نعم المُعين في هذا الجهد، وما لبثَ التليفون أن رنَّ، وكان المتحدث فتاةً من شركة التليفونات تسألُني إذا كنت أريد إدراج اسمي في دليل التليفونات المحلي فلم أعترض، واشترينا غسالةَ ملابسَ أوتوماتيكية ماركة إنديسيت الإيطالية، توفيرًا لجهد غسيل اللفَف، وما تزال الغسالة موجودةً لدى بعض أفراد الأسرة حتى اليوم!

كان للمنزل حديقةٌ خلفية بها شُجيرات ورود، وحديقةٌ أمامية تقتصر على مساحةٍ مزروعة بالكلأ، وكان الحفاظ على هندام الحديقة يقتضي شراء آلةٍ لقطع الحشيش، فاشتريتُها بثلاثة جنيهات، وكانت يدوية؛ أي يدفعها الإنسان دفعًا لتقُص ما طال من الحشائش، وقد حلَّت الآن محلها آلاتٌ ذواتُ محرِّكاتٍ كهربائية. وكانت الحدائق الخلفية للمنازل متجاورةً لا يفصل بينها سوى سور من النباتات المنخفضة (نحو مترٍ واحد) فكان الجيران يتبادلون التحية عَبْر السور، ولما انقضَت إجازة الوضع عادت نهاد إلى العمل، ولكنها لم تستطع الجمع بين العمل ورعاية سارة، فاستقالت، وأصبحتُ أُنفِق وقتي بين الدراسة والعمل — ورعاية الطفلة!

كانت أهم الأحداث السياسية التي فُوجئ بها العالم ما يُسمَّى بالانفراج الدولي detente؛ إذ دخلَت الصين الأمم المتحدة، والْتقى زعماء أمريكا والاتحاد السوفييتي، وبدا أن التوازُن الذي كان قائمًا في الحرب الباردة بين المعسكرَين (الشرقي والغربي) قد يختلُّ، فإذا اتفقَت الدولتان العُظميان على شيء أصبح من المتعذَّر على الدول الأخرى أن تُعارِضه، مما كان يُنذِر بعواقبَ «مجهولة» في أفضل الحالات، و«وخيمة» في أَسوئِها، وكانت سياسة مصر تتجه إلى اكتساب التأييد الأوروبي، خصوصًا دول غرب أوروبا ذات النفوذ والثراء، وكانت أنباء زيارة نيكسون، رئيس الولايات المتحدة آنذاك، للصين في فبراير ثم اجتماعه مع بريجينيف، الرئيس السوفييتي في مايو ١٩٧٢م من الأنباء التي هزَّت العالم، وإن كان الهدف الواضح هو محاولة إنهاء حرب فيتنام بأي طريقة، بعد أن اتضح أن التورط الأمريكي قد تجاوَز الحدود «المسموح بها» وأن الخسائر في الأرواح أصبحَت تقُضُّ مضاجع المواطنين العاديين.

وفي غمرة انشغالنا بترجمة ردود الفعل العربية وقع في آخر مايو حادثٌ كانت له عواقبُ «إعلامية» كبيرة؛ إذ قام ثلاثةٌ من اليابانيين المسلَّحين بإطلاق النار في مطار اللُّد الدولي في تل أبيب على المسافرين والمستقبلين في المطار فقتلوا ٢٥ شخصًا وجرحوا ٧٢ آخرين، وذلك بمجرَّد هبوط المسلَّحين من طائرةٍ تابعةٍ لشركة إير فرانس، وقُتل أحد المسلَّحين، وانتحر الثاني، وقُبِض على الثالث وكان اسمه «كوزو أوكا موتو» وقال إنه

ينتمي لجيش النجم الأحمر، وهي منظَّمةٌ يساريةٌ يابانية تُناصِر الفدائيين العرب. أما ردود الفعل فكانت متناقضة؛ إذ قالت منظمة التحرير الفلسطينية إنها مسئولة عن الحادثة، وقال الياباني في محاكمته التي استمرت حتى ١٧ يوليو (وحُكم عليه بالسجن عشر سنوات) إنه يمثل ضمير العالم الذي أقلقَه الوفاق الدولي، وشُغلَت الصحف بالحديث عن الإرهاب العربي، وجعل حزب المحافظين الذي كان قد تولَّى السلطة قبل ذلك بعامٍ يتحدث عن مغبة تأييد مَن «يلوِّثون أيديهم بدماء الأبرياء» كأنما كان اليابانيون عربًا!

٣

كان من الواضح أن حياتي لم تكن تسير في الطريق الذي رُسِمَ لها؛ إذ أصبح لي مجتمعٌ كامل من الأصدقاء والمعارف، في الجامعة والعمل، وبدأتُ أتذوَّق لطائف اللغة الإنجليزية التي ألتقطُها بشغفٍ من أفواه هؤلاء وهؤلاء، كما اكتسبتُ عادةً ما زلتُ أمارسها وهي إرهاف السمع لما يدور حولي من أحاديث، حتى ولو كانت عابرة — في الأتوبيس أو في الدكاكين أو في الطريق العام — استِكْناهًا لدلالة هذا التعبير أو ذاك، وأصبح من مصادر متعتي أن أسير ساعةً أو بعض ساعة بعد الخروج من الكلية أو من العمل، فأتأمَّل الطبيعة من حولي، وأرقُب الناس والأشياء، وقد أتجوَّل في الأسواق، ثم أقفل راجعًا راكبًا.

كانت الحاسة الأولى هي حاسة السمع؛ إذ اكتسبتُ من الحياة الإنجليزية تحاشي «البحلقة» (الحملقة؟ staring) التي تُعتبَر عيبًا اجتماعيًّا شائنًا، فكانت عيني تلمح الأشخاص أو الشخص بسرعة وتستوعب التفاصيل، ثم تتابع أذني الحوار أو الحديث المتقطِّع، وكان أقرب منهل لهذه الأحاديث الدكاكين الصغيرة؛ حيث تأتي العجائز اللائي يعانين من الوحدة للحديث بعضهن مع بعض، أو لمخاطبة البائع والحديث معه في شتى شئون الحياة، وكنتُ أتظاهر بالانشغال بانتقاء حبات الطماطم مثلًا وأذني تُتابِع ما يدور؛ فالريف في إنجلترا ذو إيقاعٍ هادئ، ويسمح بالوقوف والتأمُّل والاستماع.

وكثيرًا ما كنتُ أستغرق أثناء تلك الجولات في تأمل ما قرأتُ واسترجاع ما فهمتُه؛ إذ كنتُ أحيانًا أعاني مما كان عبد اللطيف الجمَّال يعاني منه، ألا وهو تشتُّت الأفكار بسبب تنوُّع مصادرها وعدم تناغُمها؛ فالذي يقرأ في موضوعٍ واحد يستطيع التركيز وتنسيق الأفكار، أما الذي لا يقف عند حدود البحث الذي كَلَّف نفسه به، فهو يحتاج إلى فتراتٍ يلمُّ فيها شعثَ أفكاره، بل ويلمُّ شتات نفسه أيضًا.

كنتُ أتصوَّر أنني أستطيع أن أنتهي من الرسالة في الصيف، ولكن الفصل الرابع يدور حول أساليب المواويل الغربية (البالادات) وكان يقتضي البحث ساعاتٍ طويلة في المكتبة، خصوصًا في غرفة الكتب المخزونة (stack room)؛ حيث تُوجَد بعض النصوص الأصلية، وبعض الطبعات القديمة التي أصبحَت ذات قيمةٍ تاريخية لنُدرتها ولم يكن يُسمَح لأحد بالاطلاع عليها إلا بعد إذنٍ خاص، ولا يُسمَح بتصوير أي صفحاتٍ منها إلا بترخيص، وعلى ألا تتجاوز الصفحات فصلًا واحدًا، وكانت آلة التصوير (زيروكس) اختراعًا جديدًا وتكاليفُه باهظة.

وفي أوائل يونيو ١٩٧٢م وصلني خطاب من إدارة البعثات يقول إن مصر قد أوقفَت صرف مرتَّبي؛ لأنني استوفيتُ الحد الأقصى للبعثة وهو سبع سنوات، وكان معنى ذلك هو الارتباك الشديد في أحوالي المالية؛ فأنا لا أقتصد في الإنفاق ولا أدخر شيئًا من دخلي (وهذا معيبٌ في إنجلترا) بل أُنفِق كل ما يأتيني سواء أكان ذلك في شراء الكتب أو شرائط الموسيقى أو في الذهاب إلى المسرح، وقرَّرتُ أن أذهب إلى لندن لمخاطبة رئيس المكتب في الموضوع، فذهبتُ في الصباح الباكر، وما إن دخلتُ المكتب حتى سمعتُ صوتًا مألوفًا يناديني، والتفتُّ فوجدتُ وجهًا مصريًّا يُطالِعني ببسمة، وخُيِّل إليَّ أنه أحد أقاربي، لولا أنه ناداني بعنواني! وعندما اقتربتُ تسمرَّتُ في مكاني: كان «عبده»! وبعد الترحيب وبعد التغلُّب على الدهشة الصاعقة، صحبتُه إلى الطابق الأول حيث قابلتُ رئيس المكتب، وتأكَّد لي استحالة مد البعثة؛ ومن ثَم هبطنا وخرجنا معًا حتى دون أن أسأَله إن كان قد انتهى مما جاء من أجله، وعند ناصية كيرزون (Curzon) ستريت وجدنا مقهًى دخلناه دون كلامٍ وجئنا بالقهوة، وانخرطنا في الحديث حتى نسينا الزمن!

كانت قصتي قصيرةً وكان يعرفها، ولكن قصَّته كانت طويلة، وكنتُ أتلهَّف على سماعها! وعندما بدأ الحديث كان يفترض أنني أعرف الخطوط الرئيسية على الأقل، فكان يشير إلى بعض الأسماء والأماكن متوقعًا مني الاستجابة، ولكنني قد ابتعدتُ تمامًا عن عالمه، فألححتُ عليه أن يبدأ من حيث توقَّفنا؛ أي منذ ما يقرب من ست سنوات! فقال «عبده»:

«رحلَت كاثلين في أغسطس (١٩٦٦م)، وقضيتُ شهر سبتمبر كله وحيدًا أحاول أن أعتاد الوحدة والوحشة، وآمل في كل يوم أن أراها عائدةً إلى الكلية؛ فكانت ما تزال مُسجِّلة للدكتوراه، ولكن الشهور مضت دون أن ألمَح لها أثرًا، ولم أتقدَّم تقدُّمًا يُذكَر في دراستي؛ إذ وجدتُ أنني قد تغيَّرتُ في أعماقي وأصبحتُ أريد كاثلين بأي طريقة!

وصادقتُ بعض الفتيات في تلك الآونة، ولكن صورة حبيبتي كانت ماثلةً دائمًا أمام عينَي، وعندما سألتُ عنك وعرفتُ أنك تزوَّجتَ من مصرية قرَّرتُ ألا أُرهقَك بمتاعبي، وأدرك المشرف أنني أمُرُّ بمحنة؛ فقد انتهى زملائي من الدكتوراه وتركوا الكلية، لكنني لم أكن قد انتهيتُ حتى من الجانب العملي الذي قد يأتي لي بالنتائج اللازمة للرسالة! وقال لي ذات يومٍ إنه يريد أن يراني، فذهبتُ إليه وسمعتُ منه بلهجة الإنجليز العملية ما يشبه الحكم بالإعدام! إذ نظر إليَّ طويلًا وقال: «أنا قلقٌ عليك.» (I'm worried about you) وكِدتُ أنهار لكنني تماسكتُ وقلت له إن لديَّ همومًا مؤقَّتة، وهي عابرة ولا شك، إلى آخر ذلك الكلام، دون أن يبدو عليه أدنى اقتناع، وبعد مناقشةٍ تفصيلية للعمل الذي كنتُ أقوم به قال لي: «إنك تحتاج إلى راحة. هل استشرتَ طبيبًا نفسيًّا؟» تخيَّل! لقد ظن أنني مختل ولا أقول مجنونًا! ربما بدا له أنني أعاني من اكتئاب أو من انهيارٍ نفسي ولكن كيف يسألُني هذا السؤال؟! على أي حالٍ لم يلبث أن ابتسم وقال: «اذهب إلى مصر لزيارة الأُسرة حتى يهدأ بالك! لا تتردَّد في الذهاب، وهذا خطابٌ كتبتُه إلى مدير مكتب البعثات، سلِّمه له وسوف يسمح لك بالإجازة!» وتناولتُ الخطاب ووضعتُه في جيبي وخرَجْت.

كنا في أواخر مايو ١٩٦٧م، وأنت تذكُر ما حدث بعدها للمصريين جميعًا، أما ما حدث لي أنا فأغرب من الخيال! لم أذهب طبعًا إلى مكتب البعثات، وظَللتُ أحتفظ بالخطاب في جيبي أسبوعًا، ثم سألتُ عنك فقيل لي إنك مريض، فسألتُ كل يومٍ حتى تأكد لي أنك شُفيت، فقرَّرتُ أن أزورك يوم ١٠ يونيو، للحديث في السياسة وغيرها، وكنتُ أريدك أن تقول لي ما أفعل بالخطاب؛ لأنني كنتُ ما أزال أفكر في الذهاب إلى مصر، ولو لزيارةٍ عابرة، بعد أن تلبَّد ذهني تمامًا، وفي الصباح مَرَّ عليَّ سامي الكاشف ليطمئن عليَّ فقلتُ له ما أفكِّر فيه، وأريتُه الخطاب، فإذا به يفُضُّه، ويقدِّم إليَّ ورقة — إلى جانب الخطاب الرسمي — بل قل مجرد قصاصة عليها عنوان كاثلين وأرقام تليفوناتها! كنتُ أعرف أن سامي الكاشف يعرف القصة تمامًا هو وإبراهيم الدويني كما قلتُ لك، فلم أُعِرْ لذلك أهميةً لكنني كنتُ أرتعدُ أمام الاحتمالات الكثيرة؛ تُرى هل أعطتها عمدًا للمشرف أم نسِيَها المشرف في ثنايا الرسالة؟ وهل يعرف المشرف القصة؟ وقلتُ في نفسي: «يا داهية دُقِّي!»

لن أُطيل عليك فقد اتضح أن المشرف بريء، وأن القصاصة لم تكن في المظروف، بل أتى بها سامي من إبراهيم الذي قال إنه عرف من زميلةٍ لها عنوانها وأرقام تليفوناتها،

ولكنني كنتُ أجهل ذلك، وكنتُ أصدِّق كل ما يقوله سامي، فأحسستُ بغمامة أمام عيني، وأن الأرض تميد بي، فاقترح سامي أن نتصل بكاثي ونسألها، وكنتُ رغم الفرحة الغامرة أرتعدُ في أعماقي مما أسمعُه عن مصير مَن يخدعُ فتاة أو مَن يَعِدها بالزواج ثم يُخلِف وعده؛ فعقوبة إخلاف الوعد breach of promise رهيبة، وربما لن تقف في حالة الأجانب عند مجرد «الترحيل» من إنجلترا، بل ربما صدَر حكم يتضمن الغرامة والحبس أو إحدى هاتَين العقوبتَين كما يقولون! وسألتُ سامي ضارعًا: ماذا عليَّ أن أفعل مع المشرف؟ فضحك ضحكًا شديدًا وصارحَني بالحقيقة، ثم تركني وخرج!

وعلمتُ فيما بعد أنه أتى خصوصًا لإعطائي تلك المعلومات، وكانت لعبة دس الورقة مع الخطاب دُعابةً من دعاباته، ولكنني كنتُ ما أزال منهارًا؛ فالوطن في محنة وأنا في محنة، لكنني تغلَّبتُ على مخاوفي واتصلتُ بالرقم الذي وجدتُه مطبوعًا على الورقة، فردَّت عليَّ فتاة رقيقة الصوت تسألُني عما أريد، فقلتُ لها هل كاثلين موجودة؟ فقالت لي انتظر لحظة، وبعد ثوانٍ سمعتُ صوتَ كاثي! ولم أعرف ماذا أقول، ولكن ربنا يلهمنا في هذه الحالات، فقلت لها اسمي، وعجبتُ من ردِّها العملي المُفزِع «أي خدمة؟ أنا الآن مشغولة، كلمني فيما بعدُ .. باي باي.» معقول؟ وبعد ساعةٍ كنتُ في القطار المتجه إلى سَرِي Surrey ولم تمضِ ساعةٌ حتى كنت أطرق باب المصنع!

لن أُزعِجكَ بالتفاصيل ولكننا تزوَّجنا بعد أسبوع، وقرَّرتُ أن يكون زواجًا مدنيًّا؛ فهي تتصور أنني مسلم، وجواز السفر لا ينص على دين حامله، وهي لا تستبعد أن يكون اسمي القبطي من أسماء المسلمين، أو هكذا كنتُ أظن! إذ لم تكن تنقضي مراسم الزواج حتى قالت: «نريد أن نحتفل بزواجنا في كنيسة البلدة!» ووجمتُ فضحكَت، وقالت: «لقد كنتُ أُتابِع أخبارك منذ رحيلي يومًا بيوم، وعندما عرفتُ الحقيقة بدأتُ العمل!» وقضينا ليلة الزفاف في المنزل الذي اشتراه والدها لنا، وكنتُ أُحِس أنني قد انتقلتُ إلى عالمٍ آخر؛ فالبلدة ريفيةٌ جميلة، ولا تستغرق المسافة أكثر من نصف ساعة بالقطار (لوسط لندن) ومصنع والدها ضخم وشاسع، وبه سيارات وشاحنات ومركباتٌ منوَّعة، وعمال وعاملات وموظَّفون وموظَّفات — شيء رائع!

ولكن أروع ما في ذلك كله كانت كاثلين نفسها، لم أكن أتصور أن في الدنيا نساءً بهذا الوصف، كانت تُعامِلني وما تزال كأنني محور الوجود، كأنني مركز الكون بل وسر الحياة. أرجوك لا تضحك يا عناني فأنا جاد، وقد تعلَّمتُ في هذه السنوات القليلة معنى الزواج الحقيقي، معنى الصفاء والتفاهُم في كل شيء، ولأضرب لك مثلًا واحدًا على ذلك.

كانت كاثلين منذ أن تزوَّجنا تعاملني معاملةَ مَن يخشى أن يضيع صاحبه من يده، فأحسستُ كأنني جوهرةٌ ثمينة، وكانت تقول لي دائمًا إنني حُر في أن أتركها في أي وقتٍ إذا أرَدْت، وكانت تقول لي حذارِ أن تتجاهل عملَك في الدكتوراه، وإذا كنتَ تريد العودة إلى لندن فسأعود معك، وإذا قرَّرتَ أن ترجع إلى مصر فسوف أرجع معك، وأعيش بالمستوى الذي تريده. ألا تظن أنني أستطيع أن أحصل على عملٍ مثل بقية النساء العاملات في مصر؟ وكانت كاثلين جادة في كل شيء، فلم يحدُث أن كذبت عليَّ أو تظاهَرَت بغير الواقع. أما المثل الذي أريد أن أضربه لك فهو علاقتها مع أحد أصدقاء الصبا، وكنتُ قد اكتشفتُ هذه العلاقة بعد نحو عامٍ من زواجنا ووجدتُ الدم الصعيدي يغلي في عروقي، وعندما خلدتُ إلى الصمت أولًا حزنًا وكمدًا عند اكتشافي الأمر وجدتُها تُهرع إليَّ وتسرد القصة من البداية إلى النهاية، بكل التفاصيل التي لا أجرؤ حتى على البَوْح بها إليك، وبما لا تستطيع الأفلام السينمائية تصويره!

كانت مثل الذي يعترف للكاهن بالخطيَّة، رغم أنها لم تُخطئ، ولكن منبع إحساسها بالذنب هو أنها لم تُفصِح عن تلك القصة، وأغفلَتها تمامًا، وعندما قلتُ لها ذلك قالت إنها لم تتعمد إخفاءها لكن ذلك «الولد» كان قد خرج من حياتها إلى الأبد، ولم يعُد له من الوجود ما يقتضي ذكره، على عكسِ علاقتها مع النيجيري، فقد قصَّتها عليَّ منذ البداية؛ لأنه كان أول من يدخُل جنتها.

ولم يتغير سلوك كاثلين مطلقًا — لا قبل ذلك ولا بعده — وما تزال تحافظ على أسلوبها الرائع في تصحيح أخطائي اللغوية، فهي تتعمَّد تكرار ما قلتُه بعد تصويبه حتى تفتح عيني على الخطأ، مهما يكن الخطأ تافهًا — سواء في النطق أو النحو أو اختيار الألفاظ. وإذا كنتُ أرسم لك صورة زوجةٍ مثالية، مدفوعًا بحبي لها، فالحقيقة أن الطابع المثالي كان طابع الزواج لا المرأة؛ فالمثالية هنا هي التوافُق بل والتقارُب إلى حد التطابُق في النظر والإحساس والفكر، وكنتُ أشعر أنها تبذلُ في ذلك جهدًا كبيرًا، وكثيرًا ما كانت تُعبِّر عن مشاعري الدفينة بلغتِها حين نرى فتاةً جميلة أو شابًّا وسيمًا، وكثيرًا ما كنا نتبادل الأسرار همسًا فيما يخصُّنا وحدنا، وأهم من ذلك كله أنني كنتُ لا أشعر لوالدَيها بوجود في حياتنا، وكانت كثيرًا ما تقول لي: لماذا لا تدعو أفراد أُسرتك لزيارتنا؟ أو تُلِح عليَّ أن أكتُب إليهم خطاباتٍ أُطمئِنهم فيها على أحوالي، وكنت أكذبُ عليها وأزعُم أنني فعلتُ ذلك وأفعلُه، وهي لا تكذِّبني أبدًا مهما قُلت. تصوَّر ماذا يقول

هؤلاء الصعايدة لو شاهدوا حماتي وهي تضع المساحيق والأصباغ أو ترتدي الشورت والميني جيب!»

وكنتُ على اهتمامي بما أسمع، أشتاق إلى معرفة موقفه الدراسي، وموقف أهله في مصر؛ فالمُوجَز الذي رويتُه في صفحات استغرق منه ساعات، ونهضنا نسير في الهايد بارك وهو يُكثِر من استخدام اللغة الإنجليزية، ويتحدَّث بطلاقةٍ حين يروي حادثًا وقع بين الإنجليز، مما أدهَشَني حقًّا، ولكنني كنتُ أعرف أن المصري حين يُضطَر إلى اكتساب اللغة لن يتفوَّق عليه أحد! وأما الذي هزَّني هزًّا في ذلك الحديث فهو اللمسة الشاعرية التي كان يُضفيها على الأشياء، فكان أحيانًا يقول: شوف يا عناني أنت في ردنج وأنا في جيلفورد (Guildford) .. وبيننا طريق من الأشجار لكننا لا نسير فيه ولا نلتقي! وعندما وصلنا إلى «ماربل آرتش» (Marble Arch) وهو أول شارع أوكسفورد أوقفتُه وطرحتُ عليه السؤال المباشر فأجاب:

«الدكتوراه الدكتوراه! هذا هو جنون المصريين! الجميع يريد شهادة، لكنني أُنجِز في بحوثي ما يفوقُ ألف دكتوراه! إننا نعمل في مشروعاتٍ رائعة تتصل مباشرةً بالسوق وبما يحتاج إليه الناس، ونشعُر بالفائدة مباشرةً، فلا يُوجَد ما هو أمتع من الإنتاج!»

وقلتُ مستدركًا: «والمكسب المادي؟» فقال: «طبعًا!» وأشار بيده إلى إحدى الصيدليات من سلسلة Bootes وقال: «ما أجمل أن تعرف أن إنتاجك يُباع هنا!» ثم دخلنا مطعم «فورتي» (Forte) الذي كان قد فتح أبوابه لتوِّه، وجلسنا لتناوُل السلاطة، وأحس بما أريد أن أسأله فقال (دون سؤال): «لم يحصُل أيُّنا على الدكتوراه! لم نشعُر بأننا في حاجة إليها، وكتابة الرسالة لُعبةٌ سخيفة؛ فالنتائج يمكن إجمالها في صفحتَين، والباقي تفاصيل يعرفها كلُّ إنسان، ووصفٌ للتجارِب أو للتجربة دون داعٍ؛ أيْ «حشو ورق وخلاص»!»

كان الحديث ممتعًا فأنساني ما جئتُ من أجله، بل أنساني أن أسأَلَه ما كان يفعل في مكتب البعثات، وعندما سألتُه قال دون اكتراث: كنتُ أسدِّد القسط! وفهمتُ منه أنهم طالبوه عندما أعلن عن رغبته في عدم العودة بأن يدفع تكاليف البعثة، فاتصل بأحد المحامين الذي رفع دعوى على وزارة التعليم العالي، وكانت القضية ما تزال معلَّقة (أي لم يصدُر فيها حكم نهائي) لكن تجديد جواز السفر كان يشترط الموافقة على دفع النفقات فاتفق مع الوزارة، من باب إظهار حسن النوايا، على تقسيط المبلغ، وبدأ في سداده. (وقد علمتُ فيما بعدُ أنه كسب القضية وإن لم يسترد الأقساط — بعدُ).

وبعد الغداء سرنا حتى لانكاستر جيت (Lancaster Gate) في شارع بيزووتر (Bayswater) المحاذي للهايد بارك (Hyde Park)، وكان قد «تسلطَن» فأخذ يقُص عليَّ

سارة تُطعِم البط في البُحيرة في ردنج.

مزايا الريف الإنجليزي، وجمال الإنجليزيات، وخلُوِّهُن من العُقَد (وكان يعني بها قواعد السلوك الشرقية للفتيات — خصوصًا لديهم في الصعيد). وأسرف في الحديث عن محاسن بنات الريف حتى بدأ الشك يخامرني فسألتُه على حذَر: «لكن أنت طبعًا لا ...» وقال ببساطة: «أنا «لا» إيه؟ أنا — رغم زواجي الناجح — لا أدَّعي القداسة! نحن بشر يا عم عناني! وكاثي تُحبني مهما يكن من أمر!» وتحدَّثنا عن أطفالهما فقال إنهما أنجبا غلامًا وفتاة وهما في المدرسة الآن (أو روضة الأطفال — لا أذكر). وعندما تشعَّب الحديث سألتُه عن موقف أُسرته فقال لي دون اكتراث: لقد أدرتُ ظهري للشرق! ولن تُصدِّق ما أعيشُ فيه من سعادة حتى تزورني!

وأخذتُ القطار عائدًا إلى ردنج، بعد أن تبادلنا العناوين وأرقام التليفونات، وكان اليوم يوم عملٍ لي فذهبتُ إلى المنزل للاطمئنان على سارة ونهاد، وخرجتُ على الفور، وأجَّلْتُ حكاية «الحدوتة» لنهاد لليوم التالي. كانت قصة «عبده» قصة الكثيرين الذين

أداروا ظهورَهم للشرق، وعلمتُ فيما بعدُ أن أُسرته حاولت الاتصال به مراتٍ عديدة فلم تُوفَّق، فكأنما تعمَّد أن يقطع كل ما كان يربطُه بالماضي، وقد زرتُه عام ١٩٨١م، وعام ١٩٨٧م، وكنتُ كل مرة أُعجب ببراعة طفلَيه وقُدرتهما على فهم اللغة العربية؛ إذ إن «عبده»، رغم استغراقه في الحياة الإنجليزية، «لا يشعر بكيانه» كما يقول إلا عندما يتحدَّث العربية، وهو يصحب ابنه في حِلِّه وتِرحاله، وكان ابنه في عام ١٩٨٧م يدرُس الطب وأمامه كما يقول سنواتٌ طويلة، ويتحدث العربية بلكنةٍ إنجليزية بعض الشيء، لكنها صحيحةٌ كل الصحة، وقد حدَّثتُه آنذاك عن فرص العمل الذي قد يقتضي استخدام العربية.

٤

كانت قصة عبده لا تختلف عن قصص الآخرين إلا في أنني عاصرتُها وكنتُ شاهدًا على أحداثها؛ ولذلك فعندما أتأمل العلاقة بينه وبين زوجته، وهذه المسافة الشاسعة التي تفصلُني عنه زمنًا ومكانًا، أتخيل أنه «أحمد قادوم» آخر، زميلي الرشيدي الذي ذهب إلى نبراسكا ليدرس المبيدات الحشرية فتزوَّج أمريكية واستقر به المقام وانقطعَت أخباره تمامًا عن أُسرته، أو «وديع» آخر، أو «أحمد حسن» آخر، وغيرهم عشرات ممن أعرفُهم، وقد يكون هناك المئات الذين لا أعرفهم؛ إذ جاء في تقرير إدارة البعثات الذي نُشِر في أوائل السبعينيات أن ٤٠٪ فقط من المبعوثين للدراسة في الخارج يعودون إلى الوطن، والقضايا التي ترفعُها الإدارة نادرًا ما تُحسَم، بل إن التهديد بسحب الجنسية لم يعُد من الأسلحة الماضية بعد أن صدر قانون يعتبر ذلك «غير دستوري» فيما سمِعْت، وعندما كنا في لوس أنجيليس عام ١٩٨١م، قال لي الدكتور شبايك (أمين عام اتحاد الجالية المصرية هناك) إن ولاية كاليفورنيا وحدها يقيم فيها ربع مليون مصري، وعندما أبديتُ تشكُّكي في الرقم أخرج لي كتابًا ضخمًا يضُم الأسماء والعناوين، وأنا أعرف منهم واحدًا على الأقل هو إبراهيم كيرة — الشاعر وزميل الصبا في مدرسة الأورمان — الذي يقيم في سان فرانسيسكو بصفةٍ دائمة.

إذا أطلقنا على حياة المصري خارج مصر صفةَ الحياة في الغربة فلن نكون على صواب؛ فالمصري يحمل مصر في قلبه ووجدانه مهما ابتعَد عنها، ولا أعتبر أن الدكتور شندي الذي زرناه في منزله على ساحل المحيط الهادي (أنا وسمير سرحان ولويس عوض وصلاح عبد الصبور) عام ١٩٨١م يعيش في غربة؛ فمنزلُه قطعةٌ من مصر، وأحاديثنا كانت تدور عن مصر، وأنا أضرب المثال بأمريكا بسبب بُعدها، أما من يعيشون في

إنجلترا فهم يُحِسُّون بأنهم أقربُ إلى مصر بأكثر مما نتصوَّر، وقد شغلَني مفهوم الغربة في تلك الأيام؛ لأننا — أنا ونهاد — لم نشُكَّ يومًا ما في أننا سنعود إلى مصر، ولم يكن التوقُّف عن الإنتاج الأدبي يُقلِقني، بل لم يكن يُقلِقني التأخُّر في كتابة الرسالة، أو حتى انقطاع مرتَّب البعثة؛ لأنني كنتُ أستمتع بما أقرأ، وبما أرى، وبمن أُقابل وأُحادث، وكان العمل يقتضي مني إهمال الدراسة أيامًا متوالية، فأنغمس في متابعة أحداث العالم، وأصبحتُ أجدُ متعة فيما تتمتَّع به صياغتي للترجمة من تقدير، لكنني كنتُ في أعماقي أتأمَّل فكرة الغربة — ماذا لو اشترينا منزلًا؟ لا .. لم تكن نهاد تقبل ذلك أبدًا؛ فشراء المنزل معناه ترسيخ جذورنا — ماديًّا على الأقل — في تربةٍ أجنبية، وهو ما لم تكن ترضاه مطلقًا. لقد كانت نهاد بحق — كما قال عزت أبو هندية — صِمَام الأمان.

وتوالت أحداث صيف ١٩٧٢م مسرعةً لاهثة؛ إذ أمَر السادات بطرد الخبراء السوفييت من مصر في ١٨ يوليو، وظهر كبير المعلِّقين العسكريين للإذاعة البريطانية على شاشة التليفزيون ليتحدَّث بثقة عن انهيار «مصداقية» الجيش المصري، وكان اسم المعلِّق جم بيدالف Jim Biddulf وكرِهتُه من أعماقي؛ إذ كان يمثِّل العُنجُهية البريطانية ورُوح الاستعمار القديم، وتوالت ردود الأفعال، فأجرى التليفزيون في الشبكة التجارية تحقيقًا مع موشى ديان وزير الدفاع الإسرائيلي، الذي قال إن إسرائيل تستطيع احتلال العالم العربي كله في ساعات، وسألَه المذيع: «والمغرب؟» فضحك ديان وقال: المغرب بعيدة! فعاد المذيع يسأله: «والسودان؟» فقال ديان: «وماذا نفعل بالسودان؟»

كانت التَّعليقات مفزِعة، وجاءت في الوقت الذي كنَّا نتسلى فيه ببطولة العالم للشطرنج بين روبرت (بوبي) فيشر الأمريكي وبوريس سباسكي (الروسي)، وكان سباسكي قد فاز في أول دَور، وانسحب فيشر في الدور الثاني، ثم توالت انتصارات فيشر وجعل المعلِّقون يتحدثون عن براعة أبطال العالم في لعبة الشطرنج — من اليهود! ولم يكن ذلك الجانب قد خطَر لي من قبلُ؛ فالواقع أن نسبةً كبيرة منهم من اليهود، ولكن ذلك لا يمكن الاستناد إليه في التدليل على عبقريةٍ خاصة. وكان من الواضح أن ذلك الصيف ما يزال يحمل في أطوائه الكثير، ومن الغريب أن تلتصق في ذاكرتي كلمةٌ وردَت في خطاب السادات، وحمِدتُ الله على أنني لم يكن عليَّ أن أتولَّى ترجمتها؛ إذ ألقاه يوم الثلاثاء وهو يومُ دراسةٍ لي في المكتبة، وهي كلمة «وقفة مع الصديق»! الصحف البريطانية ترجمَتْها (نقلًا عن زملائي بالتأكيد) على أنها pause أي «لحظة توقُّف»، وما تزال جميع الترجمات الرسمية وغير الرسمية للخطاب تتضمَّن هذه اللفظة، ولكنني

كنتُ أراها غير دقيقةٍ ثم لا أرى عنها بديلًا مُقنِعًا! فماذا كان يعني بالوقفة؟ هل كلمة stand بمعناها المجازي تفي بالغرض؟ إنها ملائمةٌ وحدها، ولكنها لن تُناسِب السياق لأنك لا تستطيع أن تقول to make a stand وتُتبِعها بتعبير with a friend وإلا كان المعنى هو العكس تمامًا! فإذا أبدلت with بحرفٍ يفيد الضدية كان المعنى أقوى من المطلوب (against مثلًا)؛ ولذلك تراني ما أفتأ أذكُرها، وأستعرض البدائل مثل stand up to التي تعني يتصدَّى لشيءٍ ما، وأضيقُ ذَرعًا بالصعوبة فأحاول النسيان!

سارة تُطعِم البط في بُحيرة في ردنج.

وفي أغسطس وقعَت محاولةُ انقلابٍ أخرى في المغرب؛ إذ هاجمَت قوة من سلاح الطيران من قاعدة القنيطرة طائرة الملك الحسن الثاني لكنها لم تُصِبه بسوء، وتمكَّنَت القوات الموالية للملك من قمع التمرُّد الذي كان يقوده الرائد قويرة قائد القاعدة الجوية، وتحدَّث الجميع آنذاك عن استحالة المساس بالملك (أي إنه مِحَجِّبْ بالعامية المصرية). ولما كانت الحادثة قد وقعَت في عطلة نهاية الأسبوع فقد انشغلتُ بترجمة أخبارها، ولم نكد نُفيق من الصدمة حتى جاءتنا أنباء قتل ١١ من الرياضيين الإسرائيليين في ميونيخ بألمانيا، أثناء الألعاب الأولمبية، وسرعان ما انقضَّت أجهزة الإعلام العالمية على العرب، ووصَمَتهم بالإرهاب، وأصبحَت الصحف تتصيَّد الأنباء التي تُسيء إلى سمعة

العرب بصفةٍ خاصة، وبلَغ من تحمُّلها أن أبرزَت حوادث السرقات في المحلات التجارية shop-lifting والتي كانت الإيرانيات يرتكبنها على أنها أحداثٌ عربية! كانت الصحافة تُدين الشرق كله، بينما كان السادات يقول في خطاباته إن عام ١٩٧٢م سيكون «عام الحسم» وهي كلمةٌ عسيرة الترجمة، تُرجمَتْ على أنها year of decision) والصحافة تتندَّر بما يقول، والموقف مُدلَهِم.

وفجأةً تلقت عزة أخت نهاد خطابًا من والدها يقول لها فيه إن خطاب التعيين في الحكومة قد جاءها وإنها لا بد أن تحضُر لاستلام العمل، فسافرَت وتركَتْنا وحدنا، وكان على نهاد أن تتحمل كل شيء لرعاية سارة وشئون المنزل، ويبدو أنني بدأتُ أشعر بالضيق من الحال التي لا تبدو لها نهاية — سواء على المستوى العام أم المستوى الخاص — ولاحظَت نهاد ما أنا فيه من توتُّر، وتحمَّلَته وعانت منه، حتى وصلَني ذات يومٍ خطابٌ من إدارة الجامعة ونحن على أبواب العام الدراسي تعرض عليَّ فيه المشاركة في التدريس بقسم اللغة الإنجليزية بالقطعة (الساعة بأجرٍ قدْره ٢٫٨ جنيه) ففَرِحنا؛ لأن ذلك سوف يُساهِم في تفريج الأزمة المالية، وبدأتُ العمل فورًا، وكنتُ أعلم أن المشرف هو الذي رشَّحَني لهذه المهمة.

كان عدد طلاب الفصل (أو tutorial) سبعة، وكانت مهمتي هي أن أُشرف على تعليمهم مناهج النقد الرومانسي الذي كنتُ درسته في الماجستير، وكان المتَّبَع هو أن أبدأ بمقدمةٍ عامة عن الناقد الذي سندرُسه (تشارلز لام مثلًا أو وليم هازلت) ثم أكلِّف كلًّا منهم بقراءة أحد النصوص وكتابةِ تلخيصٍ وعرضٍ له، وكانت هذه «المقالات» (essays) تُترك لي في خانة الخطابات الخاصة بي في الكلية، فأجمعُها وأصحِّحها، وأرصُد درجاتها في دفترٍ خاص معي، ثم آتي بها في المرة التالية، بعد أسبوعٍ أو أسبوعَين، فأُناقِشها معهم، وأُنبِّه كلًّا منهم إلى أخطائه. وكان من متُعَي التي لم أُفصح عنها حتى اليوم أن أصحِّح الأخطاء اللغوية، كأنما لأنتقم لنفسي من تصحيح المحرِّرين لأخطائي في بداية عملي بالترجمة، أو لأُثبِت أنني أعرف الإنجليزية خيرًا منهم. وأنا أُثبِت ذلك الآن مدركًا أنه خطأ (ولا أقول نقيصة) فالطلَّاب طلَّاب، وهم يخطئون ويتعلَّمون، وكان الأجدر بي وقد تخطَّيتُ الثالثة والثلاثين أن أتخلى عن تلك المتع الصبيانية، أو دلائل الإحساس بالنقص، ولكنني أحيانًا ما ألتمس العذر لنفسي؛ فأنا غريب أتعلم لغةً غريبة، وما أطولَ ما عانيتُ من معاملة الإنجليز لي باعتباري غريبًا!

وفي أكتوبر ١٩٧٢ (لا أذكر اليوم) أعلنَت إذاعة الكويت نبأً رفعِ سعر برميل البترول سبعين سنتًا أي من ١,٥٥ دولار إلى ٢,٢٥ دولار، وترجمتُ الخبر وأرسلتُه إلى مكتب الأخبار لإذاعته، وما إن أُذيع حتى هاجت الدنيا وماجت؛ إذ اتهمَني المشرف بأنني أخطأتُ سماع النبأ، فلا يُعقل أن يرتفع السعر بما يقارب النصف! وأكَّدتُ له أن ذلك هو ما قاله المذيع، فقال أريد أن أسمع، وكان يزعم المعرفة بالعربية، فسمع الخبر وصاح «ألم أقل لك؟ إنه يقول سبعة عشر!» وسمعتُه من جديد «سبعين» — وقلتُ له ماذا سمعت؟ قال بالعربية «سبعين» — وأنت لم تسمع النون الأخيرة يا مستر عناني، وهناك فرق بين Seventy وSeventeen وضحكتُ فغضب، فقلتُ له هذا هو القاموس، ففتحه وتأكَّد له خطؤه ومضى.

كان العمل بالتدريس عبئًا جديدًا، فتوقَّف عملي في الرسالة تمامًا، وبدأتُ في شتاء ذلك العام أشعُر بالحَيْرة التامة؛ إذ كنتُ كمن يسير بقوة القصور الذاتي، وفي يناير ١٩٧٣م قالت نهاد إن هذا الوضع لا يمكن أن يستمر. ولا بد لنا من وقفة!

٥

كانت الشهور الأولى من عام ١٩٧٣م شهورَ توتُّرٍ مستمر، لم تقتصر آثاره على العلاقة بيني وبين نهاد، بل امتدَّت لتؤثِّر في علاقة كلٍّ منا بالعالم الخارجي. كانت نهاد تبذلُ نفسها في رعاية سارة، وكان إخلاصها نادرًا وفريدًا، وكنتُ أَعجِز عن إدراك معنى الأمومة في الغربة وبسبب الانقطاع عن حياة الأُسرة المصرية، ولكنني أقول الآن إنني مهما عرفتُ عن الأمومة، ومهما تواصلتُ بحياة الأُسرة المصرية، فلن أجد مثالًا لإخلاص نهاد المُطلَق، وقرأتُ آنذاك دراسةً عن الفرق بين الرجل والمرأة، تقول إن المرأة كائنٌ أسمى من الرجل؛ لأنها تستطيع أن تعطي من ذاتها لغيرها، فهي تُعطِي للجنين دمها وغذاءها، وتُعطي الوليد حبها الخالص الذي لا «غرض» فيه، ولا يمكن أن يكون له «غرض»؛ فهي تَكسِر الأنانية المركَّبة في نفس الرجل والتي تدفعُه إلى المنافسة والغلَبة والنصر (أو إلى طلب النصر فحسب) أي إنها بالفطرة «تخرج» من ذاتها إلى «الآخر»، وذلك ما لا يستطيعه الرجل في الأحوال العادية.

لم أكن أستطيع أن أُدرِك ذلك؛ لأنني كنتُ مشغولًا بالعمل في عدة أماكن فأنا سعيد بالتدريس في الجامعة، وبالترجمة، وبكتابة الرسالة، وإن لم أكن أكتب شيئًا الآن. وكانت

الشهور الأولى من عام ١٩٧٣م شهورَ توتُّر مستمر كما قلت، وكانت تصلُنا أنباء مصر فتزيدنا غَمًّا وهَمًّا، فقالت نهاد إنها يجب أن ترحل إلى مصر حتى تهيِّئ لي الجو اللازم للكتابة؛ فلقد طال بعدُنا عن مصر فأمعَن في الطول. كنتُ أُحِس أن العام المنصرم عامٌ ضائع، وأن العمل الإضافي، على أهميته، قد سلبَني الوقت الذي كان ينبغي أن أقضِيَه في الدَّرس؛ ومن ثَم لم أعترض، وتصوَّرتُ أن أنتهي من الرسالة في أواخر العام.

وسافرَت نهاد وسارة إلى القاهرة في ١٥ أغسطس ١٩٧٣م، فأحسستُ بالوحشة القاتلة، ولكنني كنتُ قد استقلتُ من العمل بالترجمة والعمل بالتدريس جميعًا، وقرَّرتُ التفرُّغ للكتابة حتى أنتهي من ذلك الكابوس. وكنتُ قد بدأتُ أُعاني من طنين في الأُذنَين فذهبتُ إلى المستشفى وأُجريَت لي الفحوصات اللازمة، وقال لي الدكتور إن جيوبي الأنفية ملتهبةٌ ويجب أن تعالَج بالكَي، وقال لي سوف نرسل لك إخطارًا بالموعد. وكان يوم الكشف على جيوبي الأنفية غريبًا؛ فبعد أن وضع الطبيبُ المخدِّر في أنفي (قِطعة من القطن في كل فتحة) جلستُ في الصالة، ولكنني ما إن جلستُ حتى غبتُ عن الوعي ووقعتُ مغشيًّا عليَّ، وأفقتُ على يدٍ قويةٍ سمراءَ تحملني؛ إذ كانت الممرضة زنجيةً ضخمةً كأنها عملاقة، ووجدتُني أمام الطبيب وإلى جواره شابٌّ قصير، أسمر الوجه وعيناه خضراوان، حادثَني بالعربية وقال إن اسمه زكي (لا أذكر الاسم الآخر) وقال إنه من مصر، ثم فهمتُ من الطبيب الكندي أنني أُصبتُ بالإغماء؛ لأن لديَّ حساسية ضد الكوكايين، ولا يعاني من هذه الحساسية إلا واحد في المليون؛ ومن ثَم أتَوا لي بفنجان من القهوة القوية، وجلستُ نحو نصف ساعة حتى استطعتُ أن أقف على قدميَّ وخرَجْت. ولدى الباب قابلتُ ويني دارتر Winny Darter زميلة نهاد في المكتبة، فأقبلَت عليَّ دهشةً متسائلة، فأخبرتُها الخبر، فقالت دعني ألعب دور الممرِّضة! وصاحبَتْني حتى باب المستشفى وافترقنا.

وقرَّرتُ عدم إجراء العملية، وإن كنتُ أعجَب ممن يتعاطَون الكوكايين بأنواعه — ماذا لو كانوا يعانون من الحساسية؟! وبدأتُ الالتزام بالجدول الزمني الذي وضعتُه لنفسي، فلم ينقضِ أغسطس حتى اكتمل الفصل الرابع، وأرسلتُه إلى المشرف الذي كان قد سافر إلى أمريكا للتدريس فصلًا دراسيًّا كاملًا في جامعة بنسيلفانيا Pennsylvania، وعكفتُ على الفصل الخامس طوال سبتمبر، وكنتُ قد كلَّفتُ نهاد باستئجار شقة والبحث عن عملٍ لها حتى أنتهي من الدكتوراه وأعود، وكنتُ قد أعطيتُها ٦٠٠ جنيه للنفقات العامة، وكان المتفق عليه أن نقضي الصيف (ما بقي منه) مع والدي ووالدتي؛ لأن حسن أخي كان قد سافر بعد تعيينه ملحقًا دبلوماسيًّا، والشقة واسعة، ولكن نهاد لم تمكُث

معهما إلا أسبوعَين وانتقلَت في سبتمبر إلى منزل أُسرتها في شبرا، وكنا نتراسل بانتظام، وفي يوم السبت ٦ أكتوبر ١٩٧٣م وصلَتني برقيةٌ تقول: «أحتاج للمال بصورة عاجلة، المبلغ كله أُنفِق في الشقة.» (Need money urgently stop all money spent on flat) وعجبتُ من هذا الإسراف. كيف تُنفِق ٦٠٠ جنيه في شقة؟ وذهبتُ إلى السوق لإصلاح المكنسة الكهربائية، وعُدتُ فاتصلت تليفونيًّا بالدكتور نوح؛ لأنه كان سيسافر إلى مصر بعد أيام، وقلت له إنني أريد توصيل بعض المال إلى نهاد فرحَّب، وكان يقيم في شمال إنجلترا، وبعد المحادثة عُدتُ إلى العمل، وكانت الساعة قد قاربَت الواحدة (بتوقيت لندن).

ولم أكَد أبدأ الكتابة حتى رنَّ جرس التليفون، وكان المتحدث هو المشرف في قسم الأخبار يوم السبت، وكان من تشيكوسلوفاكيا ويدعى سبوليار Spoliar وسألتُه ما الخبر؟ فقال بلهجةٍ مُطمْئِنة:

“There may be nothing in it, but an Arial battle has taken place over the Gulf of Suez. Two Israeli planes have been shot down.”

أي «ربما لا يكون الأمر مهمًّا، ولكنَّ معركةً جوية وقعَت فوق خليج السويس وأُسقِطَت طائرتان إسرائيليتان.»

وسألتُه ثانيًا ماذا يريد، فقال «لا شيء .. أردتك أن تعلَم وحسب.» فأفهمتُه أننا في رمضان، والناس صائمون ولا داعي لتصوُّرات من التي يُحبها مكتب الأخبار! وضحك ووضع السماعة.

ولم تمضِ دقائقُ حتى رنَّ التليفون من جديد. وكان المتحدِّث هو نفسه. ولكنه كان واثقَ النبرة هذه المرة؛ فبعد أن لخَّص لي الأنباء قال بثقة: «إننا ننتظر البلاغ العسكري الثالث.» البلاغ العسكري؟ وقلتُ له دون تردُّد: «أرسِل السيارة من فضلك — سوف آتي حالًا.» وضحك قائلًا: كنتُ أعرف. لقد أرسلتُها منذ دقائق!

ووضعتُ السماعة وجريت إلى الباب، وعندما فتحتُه كان ديريك (جنجر) السائق في سيارته الفوكسهول يدخِّن! وفي لَمْح البَرق كنتُ في مكتب الأخبار، ولم أجد من العرب سوى عراقيٍّ يُدعى ربيع الطائي يضع السمَّاعات على أُذنه ويحاول الاستماع إلى إذاعة القاهرة؛ ومن ثَم جلستُ إلى المنضَدة الممدودة، وأحضرتُ السمَّاعات، وجلسنا في انتظار الأخبار.

الفصل السابع

تحوُّلات

١

عندما توالت البلاغات العسكرية، وكنتُ أُترجِم كلًّا منها فور مجيئه، أيقنتُ أن المسألة ليست مسألة اشتباك فوق خليج السويس (عند الزعفرانة والعين السخنة) بل هي الحرب، وإن كان ذهني لا يستطيع تقبُّل النغْمة الهادئة لمذيعي صوت العرب، ولم نكن نستطيع سماعولم يتغير سلوك كاثلين مطلقًا سواها من الإذاعات، وكان اليهود الذين يعملون معنا في عُطلة؛ فهو «يوم كيبور» أو عيد الغفران لديهم، وعندما حل موعد الإفطار خرجتُ إلى الحديقة أتأمل غروب الشمس، وقد اعتدتُ منذ الطفولة أن أقرأ بصوتٍ مسموعٍ آياتِ القرآن: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (٢٦، ٢٧) صدق الله العظيم.

وسمِعَني أحدُهم وأنا أُتمتِم بهذه الآيات فاقترب مني وسألني: هل تُصلِّي؟ وشرحت له معنى الآيات فقال لي: «ما أعمقَ إيمانَكُم أيها المصريون! أُراهن أن اليهود يصلُّون الآن أيضًا.» وابتسَم ومضى. وعُدتُ إلى الراديو لأستمع إلى القرآن، ثم حَلَّ الليل، وجئنا بالشاي من البوفيه وجلسنا نرشُفه صامتين وإذا بأحد المحرِّرين، وكان اسمه كارل ليمان (Karl Lehman)، يدخل المكتب مُمتقِع الوجه، ويبدو أنه كان يتحيَّن الفرصة للحديث معي في «الموضوع»، فبادأتُه أنا بالحديث مُرحِّبًا، فتقدَّم بخُطًى متثاقلة وقال: «هذه الدبَّابات الأربعمائة .. كيف تعبُر قناة السويس؟» وقلت له: «ربما على كوبري عائم pontoon bridge.» لكنه قال: «مُحال! لا يمكن للكوبري العائم أن يتحمل ثقل الدبابة!» ولم أُعلِّق.

فعاد يقول: «هذه دعايةٌ ولا شك! ولكنها ستكون وبالًا عليكم! إذا حدث ونقلتُم الدبَّابات فسوف تخسرونها!» وابتسمتُ بسمةً مُصطنَعة وأنا ألتزم الصمت؛ إذ تأكَّد لي ما شاع عن وجودِ ثلاثةٍ من اليهود في مكتب الأخبار، ومدى نفوذهم على ضآلة عدَدهم، وخشِيتُ أن يتدخَّل في العمل فلم أُجادِلْه، وتظاهرتُ بالانشغال بما أسمعه في راديو القاهرة، وحوَّلتُ وجهي عنه فانصرف.

وفي نحو الحادية عشرة وصل روجر كولمان Roger Coleman وهو مشرف النَّوبة الليلية، وكان من أقرب العاملين إلى قلبي؛ فهو ضحوك ولا يسمح لأي شيء بأن ينزعَ البسمة عن شفتَيه، وكان قصيرًا أصلع يلبس نظارةً طبيةً سميكة، وكانت زوجته كاثوليكيةً لا تؤمن بتنظيم الأسرة، فأنجبا ثمانية أطفال، واضطُر روجر إلى شراء سيارةٍ ضخمة من نوع لاندروفر حتى يستطيع نقل الأسرة كلِّها فيها إذا اقتضى الأمر، ولم يكُن يشكو من تكاليف الحياة وأعباء الأُسرة، فالدولة تتكفَّل بالعلاج والتعليم مجانًا، وكان يقول لي إنه استحدَث مذهب «الملبس التعاوني» (cooperative clothing) ومعناه أن يلبَسَ الأطفال بعضهم ملابس بعض، بحيث لا تَثْبُت الملكيةُ المطلَقة لأي قطعة من الملابس لطفلٍ دون سواه! والواقع أنه كان يُعطِي الصغير ملابس الكبير، ويحرص على توحيد الزي حتى لا يغار أحدٌ من صاحبه، وكثيرًا ما كنتُ أراه يسير وقد أمسك بأيدي ثلاثةٍ أو أربعةٍ من الصغار على الأقل!

وعندما انتهى روجر من قراءة أنباء اليوم جاءني ضاحكًا وقال: «أُراهِن أن ساليفان وهايمان (Sullivan & Hayman) سوف يحضُران الليلة أيضًا.» وكان قد لَمَح ليمان خارجًا، وأضاف في نبراتٍ شبه جادَّة أنه يظُن أن «القلق يعتَصِرهم على أبناء دينهِم في سيناء!» ورسمتُ نفس البسمة المُصطنَعة على شفتيَّ ولم أُعقِّب. كان قلبي يموج بمشاعرَ يصعُب وصفها؛ إذ أصبحتُ وحدي ممثلًا لانفجار غضب العرب بعد أن صبروا ست سنوات، وكنتُ أعلَم أن غضب «الأعداء» سوف ينصَبُّ على رأسي، لكن فرحتي بعبور القناة كان غامرًا؛ ومن ثَم تطوَّعتُ للبقاء طُول الليل أتتبَّع الأخبار، وفرِح روجر، وقال: «اعتبِر نفسَك في مصر، وأنكَ تسهَر مع الأُسرة في رمضان!»

واستمعتُ إلى سهرة الراديو الرمضانية ثم إلى قرآن الفجر وأذان الفجر وصلاة الفجر وتصوَّرتُ أن الجميع سوف يعودون الآن إلى المنزل في مصر، ولكنني لم أرفعِ السماعة عن أُذني، وفي الخامسة والنصف (السابعة والنصف بتوقيت القاهرة) صدر البلاغ العسكري الذي يلخِّص أحداثَ اليوم السابق، وحالما سمعتُ التنويه عنه في مُوجَز

الأنباء أحضرتُ الآلة الكاتبة، وبدأتُ العمل، وربما كان ذلك أسرعَ نصٍّ ترجمتُه في حياتي! وأعدَدتُ الخبَر وأرسلتُه إلى المذيع في الاستوديو في لندن مباشرة (في مبنى الإذاعة الرئيسي — Broadcasting house) وطلبتُ من المهندس أن يدير مؤشِّر جهازه للاستماع إلى الإذاعة العالمية لهيئة الإذاعة البريطانية (BBC World Service) فلا شك أنها ستكونُ أوَّل من يُذيع النبأ، وفعلًا أُذيع النبأ كاملًا كما كتبتُه بالحرف في نشرة السادسة صباحًا، وإن كان المذيع قد تلعَثم في العبارة الأولى، فالخبر يقول: «يقول راديو القاهرة ...» والإنجليزية تقبل الإضافة بعكسِ موقع الكلمتَين أو باستخدام حرف الإضافة of، وهو الذي يُفضِّله الكلاسيكيون المُتحذلِقون والمتشبِّهون بهم، وكان النص الذي كتبتُه يقول: "According to Cairo Radio ..." ولم يُعجِب المذيعَ ذلك فأراد أن يقول: the radio of Cairo فقال the Cairo of radio مما جرَّ عليه اللوم، ولم يجد ما يعتذر به سوى أنه كان لم يُفِق تمامًا من نومه!

وعندما طلع النهار أتى الجميع، وعُدتُ إلى المنزل لأنال قسطًا من الراحة، لكنني كنتُ أشعر أن راديو القاهرة (صوت العرب) قد أصبح أمانةً في عنقي، فنمتُ ساعاتي الأربع، ثم انطلقتُ وحدي إلى مكتب الأخبار، ووضعتُ السمَّاعة على رأسي، والتصقتُ براديو القاهرة، وأمامي الآلة الكاتبة جاهزة، وتوالَت البلاغاتُ العسكرية ثم التعليقات والمقابلات الصحفية، وأنا ثابت في مكاني أسمَع وأُترجِم، والعالم يسمع ويدهَش، حتى كان اليومُ الرابع للحرب — يوم النصر الحاسم في سيناء وأَسْر القائد الإسرائيلي «عساف ياجوري».

وتحوَّل العالم كلُّه! كانت الصحف تلتزم الحذَر في نشر تفاصيل الحرب حتى تلك اللحظة، وكان المعلِّقون السياسيون يقولون صراحةً إنهم لا يصدِّقون ما يحدُث، ولكن تدمير اللواء المُدرَّع الإسرائيلي في سيناء محا شكوك المتشكِّكين، وظهَر أحد المحلِّلين العسكريين في نشرة السادسة مساءً في التليفزيون ليتحدَّث عن الجسر الجوي الذي أقامته أمريكا اعتبارًا من مساء يوم ٦ أكتوبر، وقال إن شحنةً من الدبابات الأمريكية نزلَت عند العريش وقال أحد شهود العيان إنها «صفٌّ رائع من الدروع» — حرفيًّا.

An impressive array of armour.

ثم عُرِضَ فيلمٌ تليفزيونيٌّ عن الحرب من داخل سيناء، صوَّره المصوِّر من وراء الخطوط الإسرائيلية، ولن أنسى ما حييتُ صورةَ الطائرتَين المصريتَين اللتَين كانتا تطيران على الارتفاع الصفري flying at zero altitude وهو أدنى ارتفاعٍ يمكن أن تطير عليه

الطائرة دون أن تصطدم بالأرض، وقال المعلن إن سيناء مفتوحة أمام الطيران المصري، وإن المصريين فدائيون يُجازِفون بأرواحهم حين يطيرون على هذا الارتفاع؛ فأقل خطأ يجعل الطائرة ترتطم بالأرض، ولكن ذلك الارتفاع يجعلُهم بمأمنٍ من الإصابة بأي أسلحةٍ أرضية. ودارت الطائرتان أمام عيوننا — رغم عدم وضوح الصورة — ثم ارتفعتا فجأةً في الهواء كأنما بفعل السحر واختفيتا ثم لمحنا عند الأفق آثار الانفجار الذي أحدثَته القنابل التي ألقيتاها.

وصدَرَت صحف الحادي عشر من أكتوبر وهي تتحدَّث عن الحق العربي، وعن القضية الفلسطينية، وعن تحرير الأراضي العربية في سيناء ومرتفعات الجولان والضفة الغربية، بل والأغرب من ذلك كله أن يتحدَّث بعض المحلِّلين السياسيين عن ضرورة التدخل لإنقاذ إسرائيل من الدمار؛ فلن يتوقَّف العرب في رأيه عند استعادة حقوقهم، وعلى إسرائيل أن تعقد فورًا معاهدة سلام تضمَن لها بقاءها! كنتُ أقرأ هذا الكلام غيرَ مُصدِّق! كان التحوُّل في ذاته دليلًا على ما كنتُ أعرفه خير المعرفة من أن العالم لا يعرف إلا لغة القوة، ولكن مظاهر التحوُّل كانت غير متوقَّعة؛ فالذين كانوا يؤيِّدون إسرائيل لم يَعدِلوا عن تأييدها لكنهم أصبحوا يقولون إن القوة لم تعُد الوسيلة المؤكَّدة لتأمين وجودها، وباتوا يَدْعون إلى التعقُّل والسِّلم، والذين كانوا يناصرون الحق العربي لم يتحَّولوا عن مناصرته لكنهم أصبحوا يقولون إن القوة هي الوسيلة الوحيدة لاستعادته، وباتوا يؤازرون الحرب! أما الذين كانوا يزعمون الحياد والموضوعية فقد أفردوا الصفحات للحديث عن تاريخ الصراع العربي الإسرائيلي، وكانوا ينتهون في كل مقالٍ تقريبًا إلى ضرورة نهوض الغرب بدَورٍ فعَّال في حل المشكلة التي تسبَّب فيها أصلًا بإنشاء دولة إسرائيل!

وحتى يوم الثلاثاء ١٦ أكتوبر لم أكُن أُغادر مكتب الأخبار إلا للنوم ساعاتٍ معدودة، وفي صباح ذلك اليوم ألقى السادات خطابه المشهور الذي وردَت فيه عبارته الذائعة «عشرة أيامٍ مجيدة»، وقد ترجمتُ الخطاب مباشرةً على الآلة الكاتبة، وأذكُر أنني أخطأت عندما كتبتُ كلمة sign وأنا أعني signal (عندما أعطى «الإشارة») فجاءني أحد الزملاء ليستوضح فنهرتُه كأنما أخطأ حين لم يحدُس الصواب بنفسه، ولكنني كنتُ مُرهَقًا من طول السهر، وكان الإنجليز من حولي سعداء بي، وعندما انتهيتُ وذهبتُ إلى المنزل، سمعتُ في الراديو ملخَّصًا لخطاب جولدا مائير الذي أعلنَت فيه عبور بعض القوات الإسرائيلية إلى الضفة الغربية للقناة من ثغرة في الجبهة المصرية، وفزعتُ طبعًا،

ولكن القضية كانت قد تحرَّكَت بما يكفي لـ «عودة الروح» إلى مصر، وعودة الثقة إلى نفوس التائهين والحائرين — والكثير من اليائسين!

وبعد وقف إطلاق النار ذهبتُ إلى لندن لتجديد جواز السفر، وقابلتُ الأستاذ فوزي عبد الظاهر المستشار الثقافي، وسألَني عن موعد انتهائي المرتقَب من الدكتوراه، فقلتُ له إنني أوشكتُ على الانتهاء وإنني أنتظر عودة الأستاذ المُشرِف من أمريكا. وتجوَّلتُ يومها في لندن كأنما لأستعيد ذكريات الصِّبا؛ إذ أحسستُ بعد الحرب أنني كبرتُ في السن، وكأن الساعات التي قضيتُها في الترجمة على مدى الأسبوعَين المنصرمَين جعلَتْني شخصًا آخر. وبدأتُ أُدرِك التحوُّلات التي تُصيب المصريَّ حين يصبح قلْبَ مصر نفسِها، وعندما يتوحَّد الفكر والإحساس فيه، وكان أوَّل خاطرٍ لي أن أدعو نهاد وسارة إلى العودة!

٢

زارني الدكتور نوح يوم ٢٢ أكتوبر فسلَّمتُه النقود ليحملَها إلى نهاد في مصر، ومعها خطابٌ أُلِحُّ فيه عليهما أن يعودا، وقضيتُ الأسبوع الأخير من أكتوبر في إعادة ترتيب بطاقات الفصل الأخير من الرسالة، وأنا أُتابِع عن كثَبٍ أخبارَ مصر، وكل ما يجري حولنا، كأنما أصبح الاهتمام بأحداث العالم «أسلوب حياة».

وتلقيت دعوةً ذات يومٍ إلى حفلٍ في الجامعة، باعتباري من الأساتذة المُنتدَبين من الخارج، بمناسبة تدشين جناحٍ جديد في المكتبة، وكان ضيف الشرف هو رايموند وليامز الذي أهدى الجناح مجموعةً من كُتبه الخاصة، فذهبتُ أولًا للحديث مع ذلك الأستاذ وثانيًا باعتباري المصري (بل العربي) الوحيد في الجامعة — وكان عليَّ أن أضع قناعًا هو قناع الرزانة والتعقُّل، وأن أنفُض عن نفسي آثار الاهتمام بالحياة العامة والاشتغال بالترجمة والكتابة، وإن كان الإنجليز لا يهتمُّون بذلك القناع — وعندما زال التوتُّر وهدأَت الأعصاب، انطلق المدعوُّون في الأحاديث الجانبية التي تسبقُ الحفلة الرسمية أو تمهِّد لها وكانت تُنذِر بتحوُّلٍ آخر في حياتي.

تعرَّفتُ أولًا بأستاذ أستاذي وهو البروفسور باراز Burroughs من جامعة أوكسفورد، وبزوجته ديانا إلوين جونز Diana Ellwyn-Jones كاتبة قصص الأطفال المشهورة، وتطرَّق الحديث بيننا إلى احتراف الكتابة وضياع حقوق الكُتَّاب، وحدَّثتُهم عن كتاباتي للمسرح بالعربية، وكيف توقَّفتُ عن الكتابة ثماني سنوات بسبب الدكتوراه

اللعينة، وبأنني أَعُدُّ الأيام حتى أعود إلى القاهرة لأُمارس نشاطي الأدبي، وقالت ديانا بلهجةٍ جادة: ولماذا لا تكتب بالإنجليزية؟ وضحكتُ وأنكرتُ قدرتي على ذلك، ولكن باراز أردف قائلًا: «إن كريس (يعني الأستاذ المشرف على رسالتي) يمتدح أسلوبكَ ويُفِيض في ذكر موهبتك.» وكدتُ أطير فرحًا — بطبيعة الحال — ولكنني وضعتُ قناع التواضُع الإنجليزي وقلتُ في نبراتٍ خفيضة: «هذا كرمٌ منه لا أستحقُّه.» فأسرعَت ديانا تقول: «فلنحكُم نحن على ذلك .. أَرِنا بعض كتاباتك.» ولم تُتَح لي فرصة الإجابة؛ لأن رايموند ويليامز دخل القاعة فالتفَت الجميع وساد الصمت. وبدأَت مراسم الاحتفال.

وبعد ثلاثة أيام وجدتُ في دُرج البريد الخاص بي مخطوطًا لرواية من تأليف ديانا إلوين جونز (وجميع المخطوطات مكتوبةٌ على الآلة الكاتبة بطبيعة الحال) فحملتُه إلى المنزل، كان مُرسلًا من أوكسفورد وتاريخ الإرسال صباح اليوم نفسه! وعندما فضَضتُ المظروف وجدتُ في داخله رسالةً تقول فيها إنها تريد أن تعرف رأيي في النص، وكان عنوان الرواية Craven Images أي صورٌ بشعة، وعكفتُ عليها حتى انتهيتُ من قراءتها في نحو الثالثة صباحًا؛ فقد كانت غير عادية في كل شيء. وعلى الفَور كتبتُ تحليلًا لها في نحو ثلاثِ صفحاتٍ وأرسلتُه في ظهيرة اليوم التالي (لم أنهَض إلا في الضحى) إلى الكاتبة.

كان ذلك يوم الثلاثاء، وكان عليَّ أن أعمل في الفصل الأخير من الرسالة بحيث أنتهي من تحديد تعريف «الأسلوب الرفيع الجديد» قبل عطلة نهاية الأسبوع، وقد يعجَب القارئ من هذه التسمية، ولكنني سوف أُوجِز ما أعني فيما يلي: كنتُ قد اهتديتُ في بحثي في تطوُّر أساليب الشعر في القرن التاسع عشر إلى أن الرومانسية أتت معها بأسلوبٍ جديد يطمح في محاكاة الأساليب الكلاسيكية عن طريق الإسراف في استعمال المجرَّدات — سواء كانت من المعاني المجرَّدة (الأسماء) أو غيرها. وكان المثَل الأعلى القديم للأسلوب الرفيع هو أسلوب ملتون في القرن السابع عشر، والذي كان يعتمدُ على بعض العناصر المعروفة مثل «جلال» الموضوع؛ أي أهميته التي ترجع إلى طابعه العام؛ أي العالمي واللازمني، ومثل «شرف» الألفاظ المنتقاة (كما يقول النقَّاد العربُ القدامى) وتحاشي الخصوصية ودقائق التجربة الشعرية، وتجنُّب التفاصيل الواقعية أو المعتادة وما إلى ذلك. ولكن الرومانسيين كانوا بصفةٍ عامة يجعلون من الفرد ومشاعره مِحْورًا للتأمُّلات الشعرية مما يتعذَّر معه «الجلال» في الموضوع، وكان وردزورث يُنكِر شرف ألفاظٍ بعينها ويدعو إلى استخدام الألفاظ العادية في الشعر، كما كان كلٌّ منهم يؤكِّد خصوصية تجربته الشعرية، ويتَّكئ على التفاصيل، وكان بعضها مُغرقًا في الواقعية.

وقد اهتدَيتُ، كما قُلت، إلى أن وردزورث عندما تخطَّى المرحلة الثورية الأولى بدأ يطمح في محاكاة الكلاسيكيين على الرغم من جميع تلك السمات الرومانسية، وذلك عن طريق زيادة استخدام المجرَّدات؛ ولذلك فقد أطلقتُ على ذلك الأسلوب اسمَ «الأسلوب الرفيع التجريدي» (The Grand Abstract) وحتى يدرك القارئ مرماي سأسوق له مثالًا عربيًّا من البارودي؛ إذ قال في إحدى قصائده المبكرة التي كان «يروض فيها الشعر» (على حد تعبير علي الجارم):

ومَنْ تَكُنِ العَلْياءُ هِمَّة نفْسِه فكلُّ الذي يلْقاه فِيها مُحبَّبُ

فالعلياء صفةٌ مجردة، أو اسم لشيءٍ غير محدَّد، فما هو تعريف «العُلَا» أو العلاء أو العلياء؟ هل هو المنصب الرفيع أو الشهرة أو المال أو المجد أو كلها معًا؟ وكذلك الهمة. ما هي الهمة؟ هل هي الطموح؟ هل هي الدافع الباطن على «العلياء»؟ وقِس على ذلك «كل الذي يلقاه» — الصعاب والعراقيل والمعاناة (الفقر/المرض/الاضطهاد/السجن؟). المعاني كما ترى مجرَّدة ويمكن إيراد أمثلةٍ بالغة التنوُّع لكلٍّ منها، وهذا هو المثَل الأعلى الكلاسيكي الذي يكفُل للبيت أن يجري مجرى الأمثال والحِكَم.

أما الرومانسيون فقد بدءوا يميلون إلى محاكاة هذا الأسلوب بعد استقرار الاتجاه الجديد، فاتجه وردزورث في مراجعته لقصيدة المقدمة، وهي قصيدةٌ تتميز بخصوصية التجربة — تعريفًا — لأنها سيرةٌ ذاتية، إلى الإسراف في المجرَّدات بحيث اختلفَت الطبعة المعدَّلة التي نُشرَت عام ١٨٥٠م (بعد وفاة الشاعر) عن النص الأصلي الذي كتَبه قبل خمس وأربعين سنة. وكانت مقارنة النص الأول بالنص المعدَّل من حيث الصور الشعرية هي موضوع دراستي للماجستير، أما الآن فأنا أبحث الأسلوب وأستخدم الاختلافات الأسلوبية قرائن لإثبات تطوُّر الأساليب الشعرية من القرن الثامن عشر إلى بداية التاسع عشر ثم في غضون القرن التاسع عشر نفسه — من مرحلة الثورة الرومانسية إلى مرحلة الطموحات الكلاسيكية.

كان عليَّ أن أنتهي من هذا التعريف، كما قُلت، قبل عطلة نهاية الأسبوع، لكنني وضعتُ البطاقات أمامي وجعلت أتطلَّع إليها وقد استولى على تفكيري خاطرٌ أوحد: لماذا لا أكتب بالإنجليزية — كتابةً إبداعية؟ أنا قطعًا لن أستطيع أن أُجاريَ سلاسةَ أسلوب ديانا، خصوصًا إسهابها في الوصف ودقة التفاصيل، فهي تصفُ أشياءَ تعرفها خيرًا مني، ولكنني قد أستطيع أن أتحدَّث عما أعرفه وربما نجَحْت. وبدلًا من كتابة الفصل

الأخير من الرسالة («عشان نخلص») بدأتُ أكتُب قصةً قصيرة كانت حلقاتُها قد اكتملَت في ذهني منذ فترة، وكانت — مثل كل ما كتبتُه — مستمدة من الواقع الحي من حولي، وكانت طويلةً بعض الشيء، ولم أنته منها إلا يوم الجمعة، فقرَّرتُ أن أعرضها على ديانا وأسمع رأيها، فأعددتُ صورة زيروكس وأرسلتُها بالبريد، وجاءني الرد في يوم الإثنين.

كان الرد موجزًا وقد أرفقَت ديانا به قائمةً بأسماء وعناوين «وكلاء» agents وطلبَت مني إرسال نسخةٍ إلى أحدهم، وقالت إنها تفضِّل أن أتعامل مع وكيلها الذي تتعامل معه منذ سنواتٍ فهو أكثرهم خبرة! وتساءلتُ ما الوكيل وما التعامل مع الوكلاء؟ كان الردُّ يقول لي باختصار إن موهبتي ناضجة، ولا بد من الاستمرار على أساس الاحتراف، ويحذِّرني من أن أرسل قصتي إلى أي مجلة، بل أن أتعامل فقط مع الوكيل! وكان لا بد أن أسأل وأتقصَّى فعلمتُ أن الوكيل هو رجل أعمال يتمتَّع بموهبةٍ كبيرةٍ في الإدارة، ويعمل في مكتبه محامون ونقَّاد ومحرِّرون ومراجعون ... إلخ، والمكتب يتولى الحكم على «العمل» (القصة أو المسرحية أو القصيدة أو ديوان الشعر ... إلخ)، فإذا رأى أنه صالحٌ تولَّى إبرام عقدٍ مع الكاتب وعقدٍ آخر مع جهة النشر، (أو مع عدة جهات نشر إذا كان الكاتب لامعًا وفي هذه الحالة يُسمَّى الكاتب syndicated) بحيث يقتصر تعامل الكاتب مع الوكيل، ويقتصر تعامُل الناشر معه أيضًا، وهناك حالاتٌ لم يقابل فيها الكاتبُ الجهة التي تنشُر أعماله مطلقًا، أو لم يقابل مندوب تلك الجهة إلا في مناسباتٍ خاصة! وقلتُ في نفسي: ولِمَ لا؟ وفعلتُ ما نصحَت ديانا به وبدأتُ الانتظار الذي لم يطُل إذ جاءني برجوع البريد ردٌّ يقول: «إننا تسلَّمنا القصة وهي حاليًّا قيد الفحص، وسوف تجدون طيَّه بعض المعلومات عن شركتنا.»

كان المكتب أي مقر «الشركة» في أوكسفورد وقرأتُ التفاصيل بتمعُّن فوجدتُ ما يسُر القلب حقًّا، وحملتُ الخطاب إلى الكلية وطلبتُ مساعَدةَ سكرتيرة رئيس القسم في فهم الموضوع فأوضحَت أن الوكيل هو الوكيل القانوني الذي يتولى الحكم أولًا على العمل، ثم يعهَد إلى أحد المحرِّرين بـ «إعداده» للنشر (نعود للحديث عن ذلك فيما بعدُ)، ثم يتصل بالمجلات التي تنشُر ذلك اللونَ من الأعمال لنشره، ونادرًا ما ترفُض المجلة عملًا أوصى به الوكيل، بل العجيب حقًّا هو أن قرار النشر أصلًا في يد الوكيل لا في يد رئيس التحرير، وكان هذا جديدًا عليَّ ومثيرًا إلى حدٍّ بعيد، لكنني علمتُ فيما بعدُ أن ما أسميتُه بالوكيل هو مؤسسة كاملة، وأن النقاد الذي يحدِّدون صلاحية العمل يتمتَّعون بمؤهلاتٍ فنيةٍ وعلمية عالية المستوى، وتقاريرهم لا تقبل النقض؛ فهم لا يمثِّلون القيم الأكاديمية

التي نَدْرُسها ونُدَرِّسها في الجامعة فقط بل يضمُّون إليها ما يريده القُراء، وما يمكن أن ينجح لو تغير الجو أو الذوق الأدبي، كما أن بعضهم يتميز بنظرةٍ مستقبليةٍ قادرة على استشفاف ذلك التغيُّر ومن ثَم على الدفع بالإنتاج الجديد إلى السوق! والأعجَب مما ذكرتُ أن الكاتب لا يملك اختيار الجهة التي ستنشُر عمله، وإن كان له حق الاعتراض، وقد يتمتَّع الكاتب بعد رسوخ قدمَيه بحق الاختيار ولكن ذلك لا بد أن يكون أيضًا عن طريق الوكيل!

وبعد دراسةٍ مستفيضة اتضح لي أن أساس ذلك هو التجارة؛ فقد آمن الإنجليز قبل غيرهم أن كل ما يعملُه الإنسان لا بد أن يعود عليه بفائدةٍ ما، وأقرب صور الفائدة إلى الذهن الإنجليزي العملي هو الربحُ المادي، بل إن الفكر التجاري يعتبر أن الشهرة أو ذيوع الصيت عاملٌ من عوامل تحديد قيمة الإنتاج المادية؛ ولذلك فما نعتبره اليوم جديدًا مثل حقوق الملكية الفكرية أو تجارة الخدمات وما إليها له جذوره في الفكر التجاري الإنجليزي. لا عمل دون أجر! هذه هي القاعدة الذهبية عندهم! هل يمكن أن أقول أيضًا: لا عمل دون ربح؟ لقد شاعت هذه الأيام تعبيراتٌ جديدة مثل «المؤسسات التي لا ترمي إلى الربح» (non-profit organizations) وأصبحنا نُصدِّق أن هناك بين الإنجليز من لا يرمي إلى الربح، ولكن الربح المقصود هنا هو الربحُ المادي في صورته المعتادة وهي النقود! أما الربح الحقيقي الذي تجنيه هذه المؤسسات فهو يأتي من طريقٍ بالغ الالتواء، فإذا كانت المؤسسة خيرية (charity) أي تدعو إلى الإحسان وإغاثة الملهوف (مثل منظَّمة أوكسفام Oxfam) فإنها تُساهِم عن طريق جمع تبرُّعات المحسنين وإنفاقها في وجوه الخير، في رسم صورة المجتمع الراعي الطيب، والدولة المؤمنة بالتكافُل، مما يُضفِي الطابع الإنساني السامي على وجه إنجلترا، ويهيِّئ لها المزيد من المكاسب المادية في صورتها المعتادة وهي النقود!

ولا ينفي ذلك بطبيعة الحال أن «أهل الخير» يدفعون التبرُّعات عن «إيمان» ويقين، وأن نسبةً كبيرة من «المؤمنين» يبتغون وجه الله فيما ينفقون، ولكن الطابع التجاري المتأصِّل في الحياة الإنجليزية يجعل الإنجليزي العادي «يحترم» المال منذ نعومة أظفاره؛ لأنه لا يرى أن النقود وسيطٌ للمبادلة أو صكوكٌ لحقِّ الامتلاك بل يرى فيها رأسماله، وهي فكرة قد تحتاج إلى إيضاح.

من المبادئ الأساسية التي يُلقِّنها الأهلُ للطفل مبدأ القسمة الثلاثية، (أو The three part division) ومعناها تقسيم الدخل إلى ثلاثة أجزاء؛ جزء يُنفَق على المسكن، وجزء

يُنفَق على المعيشة (المأكل والملبس والمواصلات ... إلخ)، وجزء يُدَّخر! ومنذ السنوات الأولى في حياة الطفل يعلِّمه الأهل أن يدَّخر قسمًا من مصروفه في «الحصَّالة»، ثم أن يتخذ لنفسه دفترَ توفير في مكتب البريد أولًا، ثم في البنك بعد ذلك (أو في جمعيات الإسكان building societies)، وهكذا يميل الطفل إلى الحرصِ على ماله، خصوصًا وأن أهله يُعدُّونه من البداية للاستقلال؛ فحالما يبلغ السادسة عشرة يصبح عليه أن يعتمد على نفسه؛ إما بالعمل، أو المساهمة في نفقات المنزل، أو الاستقلال والحياة بعيدًا عن الأُسرة. أما إذا كان مجتهدًا واجتاز امتحان دخول الجامعة (Sixth form) فهو يحصل على منحةٍ دراسيةٍ تتضمَّن مصاريف التعليم (tuition fees) وتكاليف السكنى والإقامة في أحد بيوت الطلاب (residence halls) إلى جانب راتبٍ شخصي stipend (أو مصروف pocket money) مما يؤهِّل الطلاب للحياة المستقلة بعيدًا عن منزل الأسرة، تمهيدًا للاستقلال نهائيًّا بعد التخرج والعمل والزواج.

ومعنى هذه التنشئة أن الصغير يرى في المال سبيلَه إلى الاستقلال والحرية، وإذا كان طموحًا فهو يحلُم بأن يعمل بالاستثمار والتجارة مما يجعل للمال قيمةً لا يراها من لا يسير في هذا الطريق (كأصحاب المهن من أطباء ومهندسين ... إلخ)، وسواء تحقَّق حُلمُه أم لا فهو ينشأ على «احترام» الادخار، مما يغرس في نفسه الحرص، وقد فسَّر ذلك أحدهم بأن الجو مسئولٌ عن ذلك! ولطرافة هذه النظرة أُورِدها باختصار: أحرص الناس في الجزر البريطانية هم من يعيشون في أبرد الأجواء أي — اسكتلندا! فالبرد يجعل المرء منغلقًا على نفسه (inward-looking) ينشد الدفء ولا شيء يجلب الدفء مثل النقود! ولكن النظرة — كما ترى — فاسدة؛ ففي أبرد أماكن الدنيا عشتُ مع أكرم البشر في شمال أمريكا الشمالية!

أما الدولة فهي تشجِّع المحسنين على الإحسان بخصم تبرُّعاتهم من وعاء الضريبة، فما أيسَر أن أتبرَّع للخير إذا كانت النقود سوف تضيع من يدي على أي حال! بل إن أحد الخبثاء نشر في مجلة Punch الأسبوعية مقالًا يقول فيه إن التبرعات المخصومة من الوعاء الضريبي تساعد رجال الضرائب على اكتشاف الحجم الحقيقي لمكاسب المتبرِّع! وضرب الكاتب مثالًا على ذلك بتبرُّع اللورد سيف صاحب سلسلة محلات ماركس آند سبنسر (Marks & Spencer) بمبلغ ٢٤ مليون جنيه لـ «الفقراء» في إسرائيل، وهو الحد الأقصى المسموح بتحويله من إنجلترا إلى خارجها، فقال إن أرباحه المعلنة كانت ٢١٩ مليونًا، وكان صافي ربحه بعد خصم الضرائب ١٩ مليونًا؛ أي إن ما تبرَّع به قد خُصِم

من مقدار الضريبة، وكان المفروض أن تكون ٢٠٠ مليون فنقَصَت بذلك المقدار، فكأن الحكومة هي التي تبرَّعَت لفقراء إسرائيل! وانتهى الكاتب إلى ما يلي:

«ولما كان الحد الأقصى المسموح بالتبرُّع به من الأرباح هو ١٠٪ وكان مقدار التبرع هو ٢٤ مليونًا، فإن معنى ذلك أن الأرباح المعلنة (٢١٩) تقل بمقدار خمسة ملايين عن الأرباح الحقيقية. فأين ذهبَت هذه الملايين؟!»

ولم يعقب أحد على ذلك المقال أو يعترض عليه، ولكننا قرأناه في الكلية، وناقشناه واستخلصنا منه ما استخلصنا!

وليس معنى ذلك، كما سبق أن ذكَرْت، غياب القيم الإنسانية (ومنها الثقافية والفنية) أو تضاؤلها، فهي ثابتةٌ وعريقة، ولكنها دائمًا ما تُوضَع في أُطر تجارية؛ ولذلك فإن أي إعلان أو دعوة لا بد أن تتضمَّن التكاليف وتحدِّدها بصورةٍ دقيقة، وأنت عندما تدخل المقهى تدفع أولًا ثمن الشاي مثلًا قبل أن تشربه، فأنت تشتري طعامك قبل أن تجلس لتناوله، وعندما يدعو الإنجليزي صديقه لتناول مشروب فإنه يفعل ذلك متوقِّعًا رد الدعوة، والشائع أن يشتري كل فردٍ ما سيشربه ثم يُجالِس صديقه مع ما اشتراه من مشروب.

كان نظام الوكلاء وما يزال أساس تعامل الكُتَّاب والفنانين مع أجهزة النشر والأجهزة الفنية، وقد فكَّرتُ طويلًا قبل أن أندفع في ذلك الطريق، خصوصًا بعد أن وصلَني في منتصف نوفمبر ردٌّ إيجابي من الوكيل، وكان يتضمَّن عرضًا بتوقيع عقدٍ لمدة ثلاث سنوات! وقرأتُ في ذيل الخطاب أن القصة، وكان عنوانها «الكمال» (Perfection) «قيد التحرير حاليًّا» فسألتُ توم هيتون الذي سبق أن خاض تجربة نشر كتابٍ له فقال إن التحرير معناه إعداد النص للنشر ولو اقتضى ذلك بعضَ التعديلات، وهي تعديلاتٌ قد لا تقتصر على اللغة، وهي مما يقبل به الجميع، حتى مشاهير الكُتَّاب وأعلامهم!

٣

كان التحوُّل الثالث هو ارتفاع سعر البترول حتى وصل إلى خمسة دولارات للبرميل في نوفمبر بسبب إعلان الدول العربية استخدام سلاح البترول للضغط على إسرائيل بصورةٍ غيرِ مباشرة؛ فالضغط على الغرب يؤدي إلى الضغط على إسرائيل، فكان قرار تخفيض إنتاج البترول العربي بنسبة ١٠٪ كل شهر حتى تستجيب إسرائيل! وسرعان ما تَكهرَب

الجو! فبعد ارتفاع سعر البترول عاد الحديث عن الفحم مصدرًا بديلًا للطاقة، وقام عمال مناجم الفحم بقيادة هيو سكارجيل Hugh Scargill بمطالبة الحكومة برفع أجورهم، وهدَّد العمال بالإضراب، وظهر إدوارد (تيد) هيث Heath رئيس الوزراء على التليفزيون وهو يهدِّد ويتوعَّد، وقال إن حكومة المحافظين لن تسمح أبدًا للعمال بالضغط على الحكومة، وكانت ألفاظُه الغاضبة وصوتُه الغليظ من العوامل التي أثارت الرأي العام ضده، وكان ذلك درسًا طريفًا؛ فالإنجليز يحبُّون الالتفاف والتفاوض والتلاعب ويكرهون المواجهة والتصادُم! وهذا أيضًا من صفات المجتمع التجاري! وعلى أي حال، ما إن حلَّ ديسمبر حتى كان سعر البترول قد تضاعف من جديد، وبدأ العالم يحسُد العرب على الثروة التي هبطَت عليهم من السماء!

ولا أذكُر المناسبة التي دعَتْني إلى هبوط لندن، وكان ذلك في أوائل ديسمبر، ولكنني أذكُر أن البرد كان شديدًا والشمس ساطعة حين انتهى بي المسير إلى مطعم الإذاعة (في Bush House) وعندما دخلتُ وجدتُ ما يُشبِه الاجتماع حول مائدة، وفيها وجوهٌ أعرفها خير المعرفة، واطمأن قلبي حين رأيتُ عبد اللطيف الجمَّال — مصادفةً غريبة! — فـ «اشتريتُ» الغداء وذهبتُ إلى «الشلة».

في المنزل رقم ٢١ شارع داربي إلى جانب المصنوعات الخشبية (الهواية الجديدة).

ومن الحوار المتناثر فهمتُ القصة، قبل أن يرويها عبد اللطيف لي بالتفصيل، ماذا حدث؟ بدأَت القصة منذ سنواتٍ عديدة عندما شارك المصري — صديقنا إدجار فرج (الصعيدي الشهم) — إنجليزيًّا يُدعى (يُدعى ما يُدعى، ماذا يعني الاسم — على حدِّ قول صلاح عبد الصبور)، في إنشاء مكتب للخدمات الإعلامية (الصحفية) والترجمة. لم يكن مسموحًا لإدجار فرج آنذاك (لأنه أجنبي) بممارسة الأعمال الحرة، أما ابن البلد فمن حقه بالطبع أن يُمارِس أي عملٍ يريد، وهكذا أُنشئ المكتب الذي سبق لي أن أشرتُ إليه، وسبق للكثيرين من الدارسين أن عملوا فيه بالترجمة (بالقطعة) وكان كالواحة في قلب الصحراء حين تخلو الأيدي من النقود، وكان جميع الجالسين حول تلك المائدة ممن روَوا عطشهم بنقود إدجار فرج.

كان المكتب مُسجَّلًا باسم الإنجليزي فقط (طبعًا) ولكن العمل كله كان في يدي إدجار، وقد اشتُهر بكفاءته وإخلاصه النادر، وكان ما يهمُّنا نحن هو كرمه وطيبة قلبه، فكان أخًا كبيرًا لجميع الدارسين الملقِّين، وأذكُر أنني دخلتُ المكتب أول مرة مع عبد اللطيف الجمَّال، وكان المطلوب ترجمة نشرةٍ خاصةٍ بتشغيل سيارةٍ جديدةٍ من الإنجليزية إلى العربية، وتناولها عبد اللطيف ونظر فيها ثم قال: إيه القرف ده؟ يعني إيه road-fouling؟ فضحك إدجار وقال له: بلاش! خد انت دي (وكانت مقالًا قصيرًا عن الشعر الإنجليزي الحديث) فقَبِل وخرجنا، وعندما عُدتُ إليه في اليوم التالي بالترجمة وضعَها على المكتب وظل يتأمَّلها حتى جاءت السكرتيرة ومعها الشيك! كان قد أمر بإصدار الشيك حتى قبل أن يقرأ ترجمتي بل قبل أن يتسلَّمها.

وكنا نلتقي أحيانًا في نادي الإذاعة أيام عملي في كوينز هاوس ونُناقِش السياسة أو الشئون العامة، وكان كثيرًا ما يسترسل في قصصه عن طفولته وقد طال به البعد عن مصر، فكانت تمثِّل لي واحةً أخرى في تلك الصحراء، وربما كنتُ أُحبه بصفةٍ خاصة؛ لأنه كان يُذكِّرني بأحد أقاربي وهو الرشيدي الذي كانت هوايته صيد الأفاعي!

أما شريكه في المكتب فكل معلوماتي عنه مستقاة من المرحوم الدكتور مجدي وهبة الذي ذكَر لي أنه كان يعمل في المخابرات البريطانية في مصر أثناء الحرب العالمية الثانية، وأنه تمكَّن أثناء فترة إقامته من تعلُّم اللغة المصرية الدارجة، وأصبح يُجيدها مثل أهلها، فهذا ما أكَّده لي عبد المنعم سليم، الكاتب المشهور، في لندن، ولم يُقدَّر لي أن ألتقي به حتى الآن، وقد حدَّثني عنه الدكتور عز الدين إسماعيل، وقالت لي الدكتورة لبنى عبد التواب يوسف إنه كان في ضيافة والدها ذات يومٍ وأسهب في انتقاد اللغة الإنجليزية التي يتكلَّمها

المصريون ويكتبونها، واختص بحديثه مجدي وهبة ولويس عوض. وقالت لبنى إنها انزعَجَت وقالت له لا بد أن يكون هناك لَبْسٌ ما، ولكنه أعاد الكَرَّة مما أغضب الحاضرين.

وعندما ذهب إدجار فرج في يوم الإثنين السابق إلى المكتب وجد سكرتيرةً جديدة، فألقى عليها التحية واتجه إلى غرفته كالمعتاد فسألَته عما يريد، فضحك وقال لها إنه ذاهبٌ إلى مكتبه، فقالت له: أي مكتبٍ يا سيدي؟ أنا لا أعرفُك! وضحك إدجار وقال لها: أنا الذي لا أعرفُك؛ فأنتِ جديدة وهذا مكتبي من عشرين سنة! فنهضَت الفتاة واستدعت الحارس الذي تَولَّى إخراج إدجار فرج (بالذوق) بدلًا من أن يستدعي «الشرطة»!

ووقف إدجار على الباب حائرًا ينظُر إلى المكتب. لم يتغير شيء. اللافتة ما تزال موجودة، رقم المنزل ١٤ شارع شيرينجهام، والبناء المقابل لم يتغيَّر! وفكَّر إدجار قليلًا وانتهى إلى أنه كابوس، فقَرص نفسه ليتأكَّد أنه يقِظ، ثم حاول من جديدٍ دخول المكتب لكن الحارس تصدَّى له هذه المرة من الخارج وأسمعه ما لا يُحب أحدٌ سماعه، فانصرف.

وحاول إدجار أن يعثر على شريكه طول النهار عبثًا، واتصل بكل معارفهما فلم يجده في أي مكان، وقال ربما ترك لي رسالة في مكانٍ ما، فطاف بجميع الأماكن التي تصوَّر وجود الرسالة فيها ولكن سعيه خاب فعاد إلى المنزل وهو يُحاوِل جاهدًا تصديقَ ما حدث، وبعد جهدٍ استطاع النوم، وفي الصباح اتصل تليفونيًّا بالمكتب (فهذا أَصونُ للكرامة من الطرد إذا ذهب بنفسه) فردَّت عليه السكرتيرة، وطلب منها الحديث مع رئيس المكتب فقالت إنه لم يصل بعدُ، وعاودَ الاتصال حتى جاءه صوتٌ غريب، وبعد مناقشةٍ هادئة فهم إدجار فرج أن من يُحادِثه قد اشترى المكتب من صاحبه الإنجليزي منذ مدة، وأن الاتفاق كان أن يتسلمه بالأمس (يوم الإثنين) غداة سفر المالك الأصلي إلى الخليج؛ حيث يبدأ العمل هناك في مكانٍ ما. وشرح إدجار فرج كلَّ شيء للرجل على التليفون، ولكن الأخير اعتذر وقال له إنه يستطيع أن يُقاضيَه إذا شاء، ولكن كل أوراقِه صحيحة، وموقفه القانوني لا غُبار عليه.

وأصبَح إدجار فرج معلَّقًا في الهواء! كان المكتب كل حياته. والغريب أن شريكه لم يؤجِّر المكان بل باع الشركة (the firm) أي المؤسسة التجارية كلها إلى ذلك الغريب! لم يكن أمام إدجار إلا أن يلجأ إلى القضاء؛ فالحق في جانبه، وسوف يُنصِفه القضاء، ولكن تكاليف القضية باهظة وقد تستغرق سنواتٍ وسنوات، وفكَّر في أن يلجأ إلى أصدقائه المصريين يطلب المشورة (على الأقل) ولكن كرامته الصعيدية أبت عليه أن يضع نفسه في هذا الموقف، فاعتكف في منزله، ولم يطُل اعتكافه إذ «طبَّ»، عليه محمود حسين دون موعد، كعادته، وسمع القصة ولم يلبث أن استنفَر الناس لذلك الاجتماع!

وقلتُ في نفسي: ما أسعدَني إذ جئتُ أيضًا على غير موعدٍ لأمد يدي إلى جابر عثرات الكرام! واتفق الجميع على تقديم سُلفةٍ مبدئيةٍ لإدجار حتى تُقيلَه من عَثْرته، وضربنا موعدًا في اليوم التالي، وأتينا بالنقود ولكن أهم ما اتفقنا عليه كان فكرةً عبقرية تفتَّق عنها الذهن الذي دبَّر عبور قناة السويس بالدبابات! جئتُ متأخرًا إلى الموعد فوجدتُ أن القاعة الصغيرة في نادي الإذاعة أصبحَت قاعةً مصرية، وأن الفكرة التي طُرِحَت تتلَّخص فيما يلي: ما دامت الشركات التي تتعامل مع المكتب لم تتعامل إلا مع إدجار وتعرفه جيدًا، فهو يستطيع إذا أنشأ شركةً جديدةً باسمه، وقد غدا ذلك ممكنًا قانونًا بعد حُصولِه على الإقامة الدائمة، أن يعود للتعامُل معها، ولا شك أن الثراء الذي هبط على العرب سوف يزيد من حجم التعامل معنا. واتفقنا أن علينا، ريثما يتحقَّق ذلك، أن نمتنع عن التعامُل مع الشركة الجديدة (القديمة) وأن يتبرع كلٌّ منا بجهد ترجمة شيءٍ ما للإذاعة العربية تُقدَّم باسم إدجار فرج، وفوجئنا عند هذا الاقتراح بأصواتٍ عربيةٍ أخرى غير مصرية تقول ونحن معكم! كان إخواننا العرب من غير المصريين قد سمعوا الخبر فجاءوا ليُساندونا، وبلَغ بي التأثُّر مبلغَه فطَفرَت من عيني دموع، وعندما مسحتُها سمعتُ من يهمس لي بلهجةٍ غير مصرية: «إيش كنت بتفكر؟ إدجار ابن غربة مثلنا!»

وسرعان ما اندمل الجُرحُ وعاد إدجار فرج للعمل، وظلَّت الحادثة بملابساتها حاجزًا نفسيًّا يمنعني من معرفة «صاحبه» الإنجليزي، ودليلًا على أننا مهما اغتربنا فسوف نظل نحمل الوطن في أعماقنا.

٤

لا أذكُر متى كتبت قصتي الثانية وعنوانها (Baby) وفيه تورية؛ فهو يعني «رضيع» أو «حبيب»، وكانت على عكس القصة الأولى تتضمَّن سخريةً أليمةً من ولع الإنجليز بالكلاب، والواضح أنني كنتُ أُحاوِل أن أُثبِت لنفسي فيها إحاطتي التامة بالثقافة الغربية، وربما كتبتُها من وجهةِ نظرٍ غربية أيضًا، ولكن الذي أذكُره جيدًا أنني كتبتُها في جلسةٍ واحدة، وبمتعةٍ غريبة، كأنما كان شخصٌ آخر هو الذي يكتُب! كنتُ أعرف أن القصة ليست مجالي، ولكن «المادة القصصية» الحية كانت أحيانًا تفرضُ نفسَها عليَّ، وعندما وصلَني خطاب الوكيل وبه العَقدُ كنتُ، على فرحي، أشعر بالضيق لأنه يُلزِمني بإنتاجٍ لا أضمن أن أُنتجه! وأبقيتُ الأمر سرًّا، ولم أوقِّع العقد، ولم أُطلِع عليه أحدًا سوى سمير سرحان عندما زارني في يوليو ١٩٧٥م!

وقرَّرتُ أن أجمع العالَمين اللذَين أعيش فيهما معًا، فدعوتُ زملاء الجامعة وزملاء مكتب الأخبار إلى عشاء في منزلنا، تكون الأطباق فيه شرقيةً محضة، وعلى رأسها الكباب، وكنتُ قد تلقَّيتُ خطابًا من نهاد تقول لي فيه إنها ستعود مع سارة «على رأس السنة» أو حرفيًّا (by the New Year)، فحدَّدتُ يوم ١٩ يناير ١٩٧٤م وكان يومَ سبتٍ للمأدبة، بحيث تكون احتفالًا بعودة الأُسرة، وعودة الأستاذ المشرف، ووداع العالَمَين جميعًا؛ إذ كنتُ قدَّرتُ أن تكون مناقشة الرسالة في أوائل الفصل الدراسي الثاني، وأن نرجع جميعًا إلى مصر إما في الربيع أو في أوَّل الصيف. وأعلمتُ الأصدقاء بذلك وكتبتُ بالموعد إلى نهاد فجاءني الردُّ في نحو منتصف يناير بأنها لم تحصُل بعد على عمل، وأنها تفضِّل أن تنتظر حتى تحصُل على عمل، وأنها عندما قابلَت الدكتورة فاطمة موسى رئيسة القسم عرضَت عليها التدريس في معهد التمريض، وكتبتُ إليها أطلُب أن تتجاهل موضوع العمل وأن تعود هي وسارة في أقربِ فرصة.

واتصلتُ بتوم هيتون أقول له إن نهاد سوف تتأخر — وما العمل؟ فقال لي سوف أُرسِل إليك جاكي (وكان قد تزوَّجَها في ديسمبر حتى يتمتَّع بالإعفاء الضريبي العائلي حسبما قال لي) للمساعدة في ترتيبات المأدُبة. لم يكن هناك مجالٌ للتراجُع؛ فعدَد المدعُوِّين كبير، وبعضهم من معارف نهاد بل وأخص أصدقائها مثل وندي Wendy الأمريكية التي كانت زوجةً لأحد زملائنا واسمه جون إليوت Elliott وصديقةً لزميلٍ آخر يُدعى Eliot أيضًا، وكنا أنا ونهاد نتندَّر بذلك! ومثل مارجوري التي كانت تقيم مع شابٍّ يُدعَى بول، ويتنافسان على لقب «أبخل» أهل إنجلترا، ومثل جواد مطر العراقي زوج باميلا الإنجليزية، وكان يُسمِّي نفسه جو Joe، وكان المعروف أنه خدع الحكومة البريطانية فزعم أنه أصغر من سنه الحقيقي بعدة سنوات حتى يظل في العمل بعد سن التقاعد، وكانت زوجتُه محرِّرةً في القسم الإنجليزي، وكان هو صديقًا لفتاةٍ إنجليزية التحقَت مؤخرًا بمكتب الأخبار (لا أذكُر اسمها) وكانت تتميَّز بالطيبة التي نعتبرها من قبيل البلاهة في بلادنا، إلى جانب أستاذي وزوجته شارلوت، وأستاذه باراز وزوجته ديانا إلوين جونز، والدكتور فلتشر وصديقته التي كان يُسمِّيها بوبي Booby (أي ذات الصَّدْر الضخم) ولذلك كنتُ أتمنى أن تكون نهاد معنا.

وفي يوم الجمعة ذهبتُ إلى السوق وطلبتُ من الجزَّار مقدارًا ضخمًا من اللحم العَجَّالي وشرحتُ له أنني بصدد إعداد حفل شواء في الحديقة، فانهمَك في تقطيع اللحم، وإذا بسيدة تقف إلى جواري تقول لي: هل قُلتَ حفل شواء في الحديقة؟ فأومأتُ فقالت:

«في يناير؟ سيموت الضيوف من البرد!» ولكنني شرحتُ لها أن الموقد ضخم والنار ستكون بمثابة مِدْفأة، فاندفعَت تقدِّم لي النصائح التي لم أطلُبها، ولسان حالها يقول: هذا أجنبيٌّ ساذجٌ يثق في الطقس الإنجليزي! ثم اشتريتُ اللوازم الخاصة بتتبيل اللحم وإعداد أنواع السلاطة الشرقية، والأرز والمكسرات التي ستُخلط به بعد تحميره، إلى آخر ذلك من التوابع، وعُدتُ مُحمَّلًا بهذه الأشياء فوجدتُ جاكي في المنزل؛ إذ كانت تعرف أين أضع مفتاح المنزل عند الخروج (لأنني كنتُ أتركه للخادمة «سو» التي تتولَّى تنظيف المنزل) ووجدتُ معها فتاتين من تلميذاتي السابقات هما كولينيت وماري! وقالت كولينيت، وكانت قصيرةً نحيلة، إنها سمِعَت أنني أحتاجُ لمساعدةٍ فأتت بصديقتها ماري — وهما «تحت أمر» جاكي! ولم أُحاوِل أن أعرف مصدر تلك «المعلومات» فالثرثرة وتناقُل الأخبار من فم لفم (on the grapevine) هي القاعدة في الريف، ولكنني حدَّدتُ ما ينبغي فِعلُه فيما يتعلَّق بإعداد الأثاث لاستقبال الضيوف، ثم إعداد المأكولات (إعداد الموقد ووضعه في مكانٍ مناسب بالحديقة، وتنظيف الخضر والفاكهة وإعدادها ... إلخ). وعندما انتهى الجميع انصرفن وهن يتوقَّعن أن أدعوهن للمأدُبة في اليوم التالي، ولكنني لم أفعل، وانتهى اليوم «على خير».

مارجوري صديقة د. نهاد صليحة.

كان الموعد في السابعة، وكانت جاكي مع توم زوجها أوَّل من حضَر، فتركنا النار تدبُّ في الفحم، وكانت السماء ملبَّدةً بالغيوم والمساء عاصفًا، ولكن درجة الحرارة كانت فوق الصفر ولم يتساقط الثلج أو المطر، فتفاءَلْت، وتناوبنا التهوية على الفحم وإن لم يكن بحاجةٍ إلى ذلك، وبدأ الضيوف يتوافدون، وبدأَت رائحة الشِّواء الشرقي تتصاعد، وكان نظام المأدبة حُرًّا؛ أي كان على كل ضيفٍ أن يتقدَّم بنفسه لأخذ ما يريد من الطعام، وجاكي تُرشِدهم، وكان باب المنزل نصف مفتوحٍ إذ كان بعضُ الضيوف لديهم عملٌ ذلك المساء (نشرة أخبار مثلًا) فكانوا يذهبون بسياراتهم لقضاء العمل والعودة. وفي نحو التاسعة التأَم الشمل ولكن اختلاف «العالَمَيْن» جعل الأحاديث تميل إلى أن تكونَ «ثنائية»؛ فالأستاذ الجامعي يسأل المذيع أو المحرِّر عن الأخبار التي لا يعرفها، والصحفي يسأل الأستاذ عن سياسة حزب المحافظين المُعادِية للجامعات وهكذا، وفجأةً وجدتُ ديانا تناديني لتُعرِّفني بشخصٍ لم أَرَه داخلًا — إذ قالت بنغمةٍ ذات دلالة: «هذا هو ريتشارد دارنيل «الوكيل!»» — وصافحتُه مُرحِّبًا والمُصافَحة عادة منقرضة عند الإنجليز، ويُشارُ إليها بتعبير (the rare British handshake) وما زلتُ أكرهها وأحاول تجنُّبها (عبثًا) حتى اليوم. وسمعتُ صوتًا نسائيًّا لا أعرفه يقول من وراء ريتشارد: «لسنا وحوشًا لهذه الدرجة يا محمد!» ونظرتُ فإذا بامرأة تقدَّم بها العمر، وتكاد لكثرة المساحيق على وجهها أن تلبس قناعًا، وحدَستُ من تعلُّقها بذراع ريتشارد أنها زوجتُه، ولكنني لم أفهم ما قالَته، فسألتُها في دهشةٍ عما تعني فقالت إنها قرأَت القصص التي أرسلتُها إلى المكتب؛ فهي مُحرِّرةٌ أولى (كبيرة محرِّرين؟ senior editor) وأنها تعترضُ على تصويري للإنجليز في صورة «بعابع» (جمع بعبع ogre) أو وحوشٍ شائهة monsters، وبدأنا الحوارَ غيرَ المتوقَّع والذي استَمرَّ ساعاتٍ طويلة.

يبدو أن ديانا أدركَت أنني أتردَّد في التعاقد مع الوكيل خوفًا من المحرِّرين الذين «يغيِّرون» كلمات الكاتب، بل ويتدخَّلون أحيانًا في صُلب القصة أو الرواية، فدعت ميلاني كبيرة المحرِّرين حتى تُزيل مخاوفي بنفسها، مع الوكيل (صاحب المكتب) الذي كان طاعنًا في السن، ولم يكونا — على عكس ما حدَسْت — زوجَين. ودار الحديث عن مدى الحرية التي يتمتَّع بها المحرِّر في تغيير النص الأدبي وسمعتُ منها ما أكَّد مخاوفي بدلًا من أن يُزيلَها. قالت ميلاني:

«أنا أعرف تمامًا ما يخشاه محمد! إنه يخاف على أسلوبه مثلما فضَّل جوزيف كونراد أن «يستغني» عن «خِدمات» المراجعين والمحرِّرين ويخرج إلى العالم بأسلوبه

الخاص الذي أصبح عَلمًا عليه! ولكن زمن كونراد قد انقضى! نحن الآن في عصر انفجار المطبوعات (publication explosion) وتكاثُر الموادِّ المقروءة (أو موادِّ القراءة) إلى درجة المرض (a plethora of reading matter) ودُورُ النشر مؤسَّساتٌ تجارية لا بد أن تُحافِظ على نجاحها المالي (viability) وإلا أغلقت أبوابَها وسادت البطالة حتى بين الكُتَّاب؛ ولذلك فعيونُنا دائمًا على السوق؛ الكتاب الرائج (best seller) هو المثَل الأعلى، وقد ترى من موقعِك في الجامعة أن هارولد روبنسون ليس كاتبًا نابهًا بل وربما لم يُدرَج في قوائم الأدب المُعتمَد (the canon) أبدًا، وربما ظل مصيرُه مصيرَ سومرست موم، ولكنه مصدرُ رزق دار النشر التي قد تُجازِف بنشر أعمالٍ لكُتابٍ جُدُد يعتزُّون بأساليبهم، وقد تخسر بعضُ هذه الكتب (وكانت كلمة كتاب في سياق حديثها تعني رواية) والناشر يغطِّي الخسارة بالربح من الكتاب الرائج؛ فهي كما ترى عمليةُ موازنةٍ تجارية في المقام الأول.»

وكنتُ أُصغي باهتمام وأذني تسجِّل كل كلمة حتى أستطيع الرد؛ فأنا لا أومن بأن الثقافة تجارةٌ بل رسالة، وربما كان لخلفيتي المصرية دَورٌ في هذا الموقف، ولكنَّني حاولتُ دَحضَ حُجَّتها من واقع منطقها نفسه، فقلتُ لها إذن لن يُكتَب لأديبٍ ذي أسلوبٍ مُتفرِّد أن يظهر من خلال دُورِ النشر الحالية! وكأنما كانت تتوقَّع السؤال جاء ردُّها سريعًا:

«بل لا بد أن يظهر أمثال هؤلاء، ولكنهم لا بد أن يحقِّقوا مبيعاتٍ كافية تكفُل لهم البقاء بين كُتابنا (تقصد المتعاقدين مع الوكيل)، أما إذا لم يحقِّقوا هذه المبيعات فسوف يكون ذلك نذيرًا بعدم تجديد العقد!»

وسألتُ: «وعليهم أن يكُفُّوا عن الكتابة .. وعن النشر؟» فقالت: «نحن لا ننصح أحدًا بالكَف عن شيء، ولكن نُقَّادنا يتيحون الفرصةَ للموهوبين فقط، وأما الأعداد الهائلة من المخطوطات التي تَرِد إلينا ولا تنمُّ عن موهبةٍ صادقة فنحن غيرُ مسئولين عنها، ونحن لا نتدخَّل بالنصح والإرشاد إلا لمن نَشتمُّ لديهم قدْرًا معقولًا من الموهبة، وهؤلاء هم الذين نتيح لهم الفرصة مرةً أو مرتَين، فإذا لم ينجحوا نفَضْنا أيدينا من المسئولية!»

وقلتُ بصوتٍ خفيض: «مع أنهم موهوبون؟» فقالت: «مع أنهم موهوبون! الموهبة يا محمد ليست موهبةً أسلوبية أو أدبية كما علَّمنا أساتذتُنا في المدرسة (وكانت تقصد بالمدرسة مراحل التعليم كلها)، بل هي — من وجهة نظرنا — القدرة على الوصول إلى الناس! فإذا سألتَني «من الناس؟» قلتُ لكَ لا أعرف! ولكن الناس هم القُراء، هم أنت

وأنا والبواب والسكرتيرة والطاهية وعامل المصعد! ستقول لي إنهم لن يتذوَّقوا الشعر، ولن يشتروا الدواوين، وسأقول لك إننا لهذا السبب لا ننشُر الشعر!» وسألتُ بنفس اللهجة: «والمسرح؟» وردَّت: «ولا ننشُر المسرح قطعًا! المسرحيات تُكتب للتقديم على خشبة المسرح، وهناك وكلاءُ متخصِّصون في نشر المسرحيات، وغالبًا بعد تقديمها على المسرح!»

وتدخَّل ريتشارد ضاحكًا في الحوار فقال: «لا تصدِّق يا محمد! فلقد نشرنا ديوانًا ضم شعر المحدَثين في بريطانيا!» فأسرعَت ميلاني تقول: «لم أكن أنا الذي أوصيتُ به، وانظر ما جرَّ علينا من متاعبَ مع دار النشر!» وعاد ريتشارد يقول: «إنهم يهوِّلون المسائل؛ فلم يطبعوا إلا عشرة آلاف نسخة، ولم تكن صفقة الشعر تمثِّل واحدًا في المائة من مجموع الأعمال (turnover) ولم تكن الخسائر تُذكر!» وقالت ميلاني، كأنما لاستكمال العبارة: «رغم بيع النُّسَخ كلها!»

وعُدتُ أسأل بعد أن نهضتُ لإحضار فناجين القهوة التركي ووَضعِها على المِنضَدة الصغيرة، وبعد أن انضَم إلينا المشرف سالفسن وزوجتُه: «وهل تتدخَّلون لـ «تحرير» الشعر أيضًا — أقصد إذا نشرتموه أصلًا؟» ويبدو أن السؤال قد أثار أحزانَ أستاذي فضحك ضحكةً عصبية وقال: «لا تستبعد ذلك يا محمد! إنهم يحرِّرون كل شيء!» وقالت زوجتُه شارلوت: «إن كريس يحاول نشر ديوانٍ صغير منذ عامَين، ودُورُ النشر تقول إنه أصغر مما ينبغي! (too little)» وقال ريتشارد: «لِمَ لا تطبعُ منه طبعةً تجريبية (pilot edition)؟» وسألتُ: «تقصد طبعةً محدودة؟» وقال أستاذي «قد أفعل ذلك إذا سُدَّت جميع الأبواب في وجهي!» وقلتُ من باب تخفيف الجو الذي أصبح يكتسي طابع الجد: «بشرط أن تكون طبعةً غير محرَّرة! (unedited edition)» وضحكنا.

وعندما حان موعد انصراف الضيوف همسَت لي ديانا: «لا تصدِّق ميلاني! إنها لم تغيِّر حرفًا واحدًا في قصتك، لكنها ستُرسِل لك خطابًا تقترح فيه تغيير العنوان!» وأثارني هذا الاقتراح — وقلت لها إن العنوان جزءٌ لا يتجزأ من القصة، بل هو عنصرٌ من عناصر الدلالة — فضحكَت، ولوَّحَت بيدها مودِّعة وخرجَت هي وزوجُها مع ريتشارد وميلاني قبل الجميع؛ لأنهم كانوا سيرجعون إلى أوكسفورد بالسيارة، وهي رحلةٌ «باردة» في يناير!

ولم ينفَضَّ السَّامر قبل الحادية عشرة، وقد كُتب لجميع الذين استمرُّوا معي أن يعودوا إلى المنزل، بل وأن يعتادوا زيارتنا بعد رجوع نهاد، وأن يسمُروا معها، مع إضافة صديقةٍ أو صديقتَين (برئاسة إدا توماس!).

وفي هَدْأة صباح الأحد سمعتُ رنينَ جرس الباب، وتصوَّرتُ أن الغلام الذي يُحضِر الصحف يريدني لأمرٍ خاص، فهبطتُ الدَّرَج مسرعًا، وعندما فتحتُه بحذَر (فالبرد قارس) وجدتُ هاري فيلدز (Harry Fields) أحد زملائنا المترجمين واقفًا، فأسرعتُ بإدخاله، وأغلقتُ الباب. وهُرعتُ إلى المطبخ لإعداد القهوة، وبينما أنا منهمك في إعدادها تناهت إلى سمعي صرخاتٌ من منزل هاري؛ إذ كان يقيم إلى جوارنا، وتركتُ المطبخ وخرجتُ (دون أن أكون قد أفقتُ تمامًا) لأستفسر من هاري عن سبب الصراخ، فأشار بيدَيه إشاراتٍ فهمتُ منها أنه يائس ومنهار، فتركته وذهبتُ إلى الحمَّام ووضعتُ رأسي تحت الدش الساخن، وارتديتُ ملابس الشتاء الثقيلة، ونزلتُ فقدَّمت القهوة لهاري، ونظرتُ بسرعة في صحف الصباح (فصحف الأحد صفحاتها كثيرة وتتطلب ساعاتٍ طويلة من القراءة ولو دون تركيز!) ثم أحضرتُ قهوتي وجلستُ ولسانُ حالي يقول: «اصطبحنا!»

٥

وُلِد هاري فيلدز في مصر إبَّان الحرب العالمية الثانية لأبٍ إنجليزي وأم إيطالية، ودخل مدرسةً فرنسية (في منطقة قناة السويس — لا أدري أين)، فنشأ يعرف عدة لغات ويتكلَّمها جميعًا بلهجةٍ إيطالية! وكان يذكِّرني بالخواجات الذين كنتُ أشاهدهم في الإسكندرية والقاهرة في أوائل الخمسينيات، باستثناءٍ هام وهو أنه كان أسمَر الوجه، يميل إلى السمنة، ويستخدم يدَيه كثيرًا أثناء الحديث، وكان طيب القلب ويحب العمل ولا يتذمَّر أبدًا منه (وهي الصفة التي نُطلِق على صاحبها في مصر — بكل أسف تعبير «حمار شغل»)، وكان له طفلٌ جميل يُدعى مايكل أُصيب بمرضٍ خبيث في المُخ وأُجريَت له عملية وشُفي وإن كان مظهره قد تغيَّر، أما زوجته فكانت مصدر الصراخ في ذلك الصباح — وقصَّتُها مؤلمة.

كانت روزانا إيطاليةً قُحَّة، لا تعرف الهمس، ولا تعرف ضبط النفس، وكانت تُحب التعبير عن آرائها بصراحة يجدها الإنجليز مبعثًا للحرج الشديد، وكانت لغتها الإنجليزية محدودة ومع ذلك فهي تعتبرها (perfect) على حد تعبيرها، وكانت تعطيني دروسًا خاصة في اللغة الإيطالية (الساعة بجنيهٍ واحد) ولكنها كانت تُعاني من مرضٍ لا أعرفه، وكانت قد ذكَرَت عَرَضًا ذات يومٍ أنها أُصيبت بمرض التهاب الغشاء السحائي (meningitis) وشُفيَت منه في الماضي، وكان هاري يعتبرني صديق العائلة، ويُفضِي إليَّ

بأسراره، كما كانت زوجته لا تثق في سواي، وكنا نناديها باسمٍ مختصَر هو روزا، والذي حدَث ذلك الصباح وتسبَّب في الصراخ حادثٌ يتكرر من حينٍ لآخر؛ ولذلك لم يكن هاري بحاجة إلى الإفاضة فيه، وكانت إشارات يده كافيةً للدلالة عليه.

كان أول حادث من هذا النوع قد وقع وأنا بعدُ في لندن؛ إذ قطَعَت روزا درس الإيطالية وفاجأَتني بإنجليزيةٍ مزعجة قائلة: «هل تعرف كلبةً من كلاب مكتب الأخبار تُرضي غرائز الكلب الذي يعيش معي؟» وأصابني الوجومُ التام. لم أفهم ما تعني، أو فهمتُ ولم أصدِّق ما فهمتُه، فلزِمتُ الصمت. وعادت تقول: «أرجوك اشرح له بالعربي الفصيح أنني مريضة ولم أعُد أصلُح.» فغمغمتُ غمغمةً لا معنى لها سوى تغطية حرج موقفي؛ ومن ثَم اندفعَت تقول: «إن هاري حيوان! أنا لا أصدِّق أنه مصري! هل تصدِّق أنه يشتهيني؟ هل تصدِّق أنه يحاول أن (..) ...» وكان عليَّ في ذلك اليوم أن أنصرف معتذرًا بأنني لديَّ موعد مهم. أما ذلك الصباح، فيبدو أن هاري أعاد الكَرَّة.

وبعد أن شربنا القهوة أشرتُ إلى بعض أنباء الصحف، وأهمُّها إضرابُ عُمال الفحم (أو تهديدهم بالإضراب) واشتداد الأزمة بين رئيس الوزراء ورئيس نقابة العُمال، ولكنه كان على غير استعدادٍ للنقاش، وفضَّلتُ أن أقرأ الصحف في صمت، وأن أَعرِض عليه الصحيفة التي قرأتُها حتى يُلقيَ عليها نظرةً أو يقرأ شيئًا يصرفُ ذهنه عن صُراخ الصباح، وكنا في الضحى في الحقيقة، وكان عليَّ أن أُحاوِل ترتيب المنزل قبل أن تأتي «سو» للتنظيف في الصباح؛ ومن ثَم تركتُه وقمتُ للعمل، وانتهيتُ من ذلك وقلتُ له إنني لا بد أن أكتب أشياءَ معيَّنة، فإذا شاء بقي وإن شاء رحل. وكان يريد البقاء.

وكان يمكن أن يمُر يومُ الأحد في هدوء، لولا أنْ بدأ المطر ينهمر، وكان من نوع أمطار الشتاء الخفيفة المتواصِلة، وكان ذلك معناه أن أرفع بقايا المَوقِد من الحديقة وأن أَضَع كل شيءٍ في الكوخ الخشبي الصغير المُقامِ في آخرها والذي يُستخدَم لتخزين أدوات «البَسْتَنة»، فأسرعتُ إلى الحديقة أعمل وحدي وهو جالسٌ لا يتحرك، ينظُر في الصحف بعينٍ زائغة وقد أخذ منه الهمُّ مأخذه، وكانت السماء ملبَّدةً بالغيوم وتُنذِر بأمطارٍ متواصلة طَوال اليوم، فقلتُ في نفسي هذا هو ما يصوره الروائيون للإيحاء بتجاوُب الطبيعة مع مصائب البشر!

وبعد حوالي ساعة جاء مايكل (ابن هاري) ليقول لأبيه إن والدتَه سقطَت مغشيًّا عليها وإنه قد استدعى سيارة الإسعاف، ولم يكد ينتهي من كلامه حتى وصلَت السيارة، فأسرع هاري خارجًا، واضطُرِرتُ إلى الخروج معه في المطر، وكان رجالُ الإسعاف قد

دخلوا المنزلَ وفحَص أحدُهم «روزا»، وعندما وصلنا كان يتكلم في التليفون (ربما مع المستشفى) وسرعان ما حملها اثنان منهم، وكانت قد أفاقت من الإغماء، وذهب الجميع.

فلم أستطع التركيز بعد رحيل السيارة، وفي نشرة الواحدة ظهرًا سمعتُ أنباء الاتجاه إلى لومِ الرئيس الأمريكي نيكسون impeachment مما يعني عزلَه من منصبه بتهمة التواطؤ في التجسُّس على مقَر الحزب المنافس أثناء الحملة الانتخابية، وأنباءَ إضراب العمال (عمال المناجم) واتجاه رئيس الوزراء البريطاني إلى «مواجهة» العمال بقَصر ساعات العمل في الأسبوع على ٢١ ساعة (ثلاثة أيام بدلًا من خمسة)، وتوفير الطاقة الكهربائية بإطفاء أنوار الشوارع، وإغلاق البث التليفزيوني في العاشرة والنصف، وكان ذلك كلُّه نذيرًا بما أسماه المعلِّقون «الأيام المظلمة» القادمة، والتي كانوا يتهمون العرب بالتسبُّب فيها (بسبب رفع أسعار البترول).

وفي المساء اتصلت تليفونيًّا بهاري لأطمئن على زوجته، فقال باقتضابٍ إنها بخير، ورغم أن المرض (أي مرض) لا يحتمل الهَزْل، فقد ضحكتُ حين قال بالعربية المصرية: «الكلبة تمام التمام.» فقلتُ له بالعربية «سلامتها» فغَمغَم ووضع السمَّاعة. ولم أكَد أضعُها وكنتُ واقفًا أنظر من شباك المطبخ (الدور الأرضي) إلى الساحة التي تفصل بين المنازل في المنطقة السكنية، حتى رنَّ التليفون، وعندما رفعتُ السماعة، كان المتحدث رجلًا إنجليزيًّا أجَشَّ الصوت، قال إنه شاويش في البوليس، ويريدني أن أحضر لترجمة شيءٍ ما. قلتُ له إذن أرسلوا سيارة، فسألَني عن العنوان فأعطيتُه له وارتديتُ ملابس الخروج.

عندما دخلتُ مخفر الشرطة لأول مرة في حياتي وجدتُ مكتبًا لا يختلف عن أي مكتبٍ حكومي — موظَّفون، سكرتيرات، آلاتٌ كاتبة، تليفونات — ولا علاقة له بما نراه في السينما. وقفتُ حائرًا نحو خمسِ ثوانٍ، وقبل أن أتجه إلى الاستعلامات، لمَحَتْني شرطيةٌ سوداء فجاءت باسمةً وقالت أنت مستر عناني؟ فأومأتُ وسِرتُ معها حتى دخلنا مكتب الشاويش، وهو الرئيس المناوب (النبطشي = النوبتجي) للمكتب يوم الأحد. وسألتُه: ما الخبر؟ فقال لي: عربيٌّ متهم بالاغتصاب! وقلتُ في نفسي «هذه هي الكارثة!» وتلفتُّ حولي باحثًا عن شكل عربي فلم أجد أحدًا، واستمر الشاويش في الحديث قائلًا: إننا بالطبع لم نوجِّه إليه التهمة بعدُ؛ لأننا لا نعرف ماذا يقول — وقيل لنا إنك تستطيع ترجمةَ ما يقول. ورحَّبتُ فأشار إلى كرسي فجلست. وأتت لي السوداء بكوب الشاي (فنجان من الشاي الساخن باللبن دون سُكَّر).

وعندما انتهيتُ منه عادت فقالت لي تفضل معنا، فدخلتُ غرفة فيها موظَّف تقدَّمَت به السن، وعندما قالت له السوداء إنني مصري تهلَّلَت أساريره وقال: «لقد خدمتُ في مصر في الحرب — أجمل بلدٍ في الدنيا! تفضَّل!» وجلستُ فشرح لي الموضوع، وهو أن أحد الدارسين العرب، ويبدو أنه بدويٌّ يغادر الصحراء لأول مرة في بعثةٍ لدراسة الزراعة في ردنج، «احتكَّ» بامرأة في الطريق العام، أو كما يقول طه حسين «مسَّها مسًّا غير كريم» حين دعَتْه إلى الاحتماء من المطر تحت المظلة. وقال العجوز إنه يظُن أن الشاب يعرف الإنجليزية ولكنه مصابٌ بنوعٍ من الذهول ولا يستطيع الكلام، وربما إن حادثتُه بالعربية نطق! وشرح لي بإيجازٍ حرجَ الموقف؛ فهم في الشرطة لا يريدون إحراج الدولة التي ينتمي إليها — خصوصًا في هذه الأيام — ولا يريدون التسرُّع بتوجيه التهمة إليه قبل الاستماع إلى أقواله كاملةً عن طريق مُترجِمٍ رسمي، وهمس لي وهو يميل برأسه نحوي: «والسيدة التي اتهمَتْه قد تتنازل عن الشكوى إذا اقتنعَت بوجود لَبسٍ ما.» وسألتُه إن كنتُ سأقوم بدَور المُترجِم الفَوري هنا أم في المحكمة؟ فقال بدهشة: محكمة؟ لا لا لا! سنُحاول الانتهاء من المسألة الآن، ولا أعتقد أننا سنحتاج إلى المحكمة!

وضغط جرسًا على المكتب فعادت السمراء إلى الظهور، فأشار إليها بيده إشارةً معيَّنة فخرجَت لحظة وعادت مع شابٍّ أشقَر وسيم، منكَّس الرأس، نحيل وقصير، وعلى وجهه أماراتُ الحزن (والندم؟) فجلَس قبالتي، وبدأ الموظَّف بسؤاله عما حدث، فكان يتكلَّم وأنا أُترجِم وهو يكتب، والسوداء واقفةٌ لدى الباب تسمع ما يُقال. لن أفصح عن اسمه الحقيقي — بطبيعة الحال — ولنُطلِق عليه اسم «طالب» وحسب. قال طالب:

> «بدأ المطر يتساقط فجأةً وأنا ذاهبٌ إلى محطة الأتوبيس، ولم يكن هناك مكانٌ أختبئ فيه، ولم تكن معي مِظلَّة، وبينما أنا أعبُر الجسر (flyover) وجدتُ امرأةً تناديني للاحتماء تحت مِظلَّتها، فتردَّدتُ ثم جريتُ إليها، وبمجرَّد أن وضعتُ رأسي تحت المظلة حتى صاحت وصرخَت وأمسكَت بي، فاجتمع الناس وجاءت سيارة الشرطة في لَمْح البَرق. أنا بريء. هي التي دعَتْني وكانت تبتسم، لكنني لم أفعل شيئًا.»

وبعد أن اكتملَت الترجمة التي أوجزتُها هنا إيجازًا شديدًا، قال الموظف (ولم أكن أعرف حتى تلك اللحظة أنه قاضي صُلح Justice of the Peace) هذا معقول، وأقواله لا تتناقض مع أقوال الشاكية، ثم أشار إلى السوداء فجاءت واصطحبَت «طالب» إلى

الخارج، وعاد القاضي للهمس فانحنى إلى الأمام حتى مسَّت ذقنه دفتر المحضر، وقال لي: هل تعتقد في أعماقك وضميرك (in your heart of hearts) أنه يقول الحقيقة؟ وقلتُ له: لقد ترجمتُ لك كل كلمةٍ بصدق وأمانة! وردَّ بسرعة: «طبعًا طبعًا، لا شك في هذا! كنتُ فقط أريد دعمًا لحدسي.» والتزمتُ الصمت. وبعد ثوانٍ معدودة أحسستُ أنها امتدت دهرًا، قال: أعتقد أننا لا يجب أن نُضيِّعَ من وقتك أكثرَ مما ضيَّعنا، وسوف نتصل بك إن جدَّ جديد. وخرَجْت.

كان المطر ما زال ينهمر، وإن كان من نوع الثلج الذي يذوب عندما يصل إلى الأرض، وهم يُسمُّونه sleet، وكان خفيفًا لدرجة أحببتُ معها أن أسيرَ فيه وأُحسَّ بنقراته الخفيفة المنعشة على وجهي، وأن أعود إلى المنزل بالأتوبيس بدلًا من سيارة الشرطة، وإن كانت لا تحمل علاماتٍ تدُل على ذلك، وسِرتُ أفكر في قضية اختلاط الدلالات الثقافية من جديد، أفلا يمكن أن يكون طالبٌ قد تصوَّر أن المرأة تدعوه إلى شيءٍ آخر، فمَد يدَه إلى ما لا ينبغي أن يمُد يدَه إليه؟! أفلا يجوز أن يكون قد شاهَد الإنجليز يفعلون مثل هذه الأشياء علنًا في الشارع فتصوَّر أنها مباحة؟! أفلا يجوز أن تكون السيدة قد بدرَت منها بادرة «فَسَّرَها» على أنها تشجيعٌ على المساس بخصوصيتها؟! وكيف يستطيع ذلك البدوي تفسير العلامات الثقافية التي تختلف كل الاختلاف عن علاماتِ مجتمعه؟ وسمعتُ هاجسًا آخر يهمسُ في أعماقي: أفلا يمكن أن يكون بريئًا حقًّا وصدقًا؟ ولم أدرِ بمرور الوقت إذ وجدتُني قد وصلتُ إلى المنزل.

بدأت اعتبارًا من يوم الاثنين الالتزام بجدول الكتابة؛ فمن غير المعقول أن أصل إلى هذا الحدِّ في الرسالة ثم لا أنتهي منها، وقضيتُ اليوم كله في المكتبة، وكنتُ أعود إلى المنزل مبكرًا (في نحو الخامسة) فأجلس إلى الآلة الكاتبة وأواصل العمل حتى العاشرة أو الحادية عشرة، ولم يكن أحد يتصل بي؛ فالجميع يعرفون أن أُسرتي في مصر، وأنني منقطعٌ عن العالَم للانتهاء من الرسالة، ولكن إغراء الكتابة كان يُطِل برأسه كالشيطان من حينٍ لآخر، وكنتُ أقاومه ما استطعتُ المقاومة، حتى انتهى الأسبوع ووجدتُني قد قاربتُ تحديد شكل الفصل الأخير، فوضعتُ ورقةً بيضاء في الآلة الكاتبة — وجعلتُ أتطلَّع إلى المساحة البيضاء وفكرة التمثيلية التليفزيونية تتشكَّل في الفراغ!

وفي يوم السبت ٢٦ يناير أشرقَت الشمس فخرجتُ إلى «الطبيعة» العارية من الأوراق، أتأمَّل الأغصان التي تبرقُ بكساء الصقيع الباكر، والسحابات البعيدة التي تغزو السماء ذات الزرقة العميقة، أو أتأمل أوراقَ الشجر الذابلة التي اختلطَت بالتربة، وهبطَت

عليها قطرات النَّدى التي تجمَّدَت، ولن تنصهر إلا في العصر، ولربما تظل مجمدةً طول اليوم، وكان موضوع التمثيلية قد قاربَت التشكُّل، وكان يقوم على قصة جمال الدين كرجي باهي — وهو أفريقي مسلم من طائفة الإسماعيلية — أتى به توم هيتون من شرق أفريقيا، فأسكنه معه في المنزل الذي اشتراه، ورتَّب له عملًا في قسم التليكس بمكتب الأخبار، وسرعان ما أتى جمال الدين بأهله وطفله الصغير، وبدأ نزوح الأقارب حتى ضاق المنزل بهم، وكان النموذج الفني في ذهني هو قصة «القناع» لوالبول، ولكنني لم أكن أدرك أنني أنسج على منوال غيري، بل كنتُ أفكر فحسبُ في موقف الفرد الذي يجد نفسه محاطًا بأناسٍ ما فتئوا يتكاثرون حتى يغلبوه على أمره، وهو يزداد حبًّا لهم وإيمانًا بهم وفقدانًا لذاته وتفرُّده! الفكرة نفسها هي التي عالجها هارولد بنتر في فيلم «الخادم»، ولكنني كنتُ أعالج هنا نماذجَ حيةً موجودة حولي!

وفي المساء اتصل بي عبد اللطيف الجمَّال وقال لي إنه حصل على شهادةٍ مرَضِية تُعفيه من العمل ثلاثة أشهر! ولم أكَد أصدِّق — كيف؟ أقصد كيف يحصل على مثل هذه الشهادة وهو بصحةٍ جيدة؟ سألتُه: هل الطبيب مصري؟ فقال بل إنجليزي ابن إنجليزي! واتضح أنه ذهب إلى رئيس وحدة الأخبار وقال إنه يعاني من انهيارٍ نفسي ويطلب الإحالة إلى الطبيب، فحدَّدَت له الإدارة طبيبًا في لندن ذهب إليه وتظاهَر بأنه مريضٌ نفسي. وقال عبد اللطيف: «والدكتور اقتنَع وأعطاني الشهادة، وقال إنه سوف يرسل التقرير إلى رئيس الوحدة! معنى ذلك أنني أستطيع الانتهاء من الدكتوراه هذا العام! سأذهب غدًا إلى لندن وأُقيمُ هناك حتى أنتهي من الرسالة، وسوف أتصل بك من هناك.» والذي لا يعلمه عبد اللطيف — حتى اليوم — أن الطبيب كتب في تقريره إن عبد اللطيف كان يتظاهَر بأعراض مرضٍ معيَّن ولكن الفحص أثبَت أنه يعاني من مرضٍ أخطر كثيرًا وقد يتطلب دخولَه المستشفى للعلاج، إلى جانب التفاصيل الطبية التي لا يعرفها إلا المتخصِّصون. وذكرتُ ما نشرَتْه إحدى الصحف من أن ٤٦٪ من أَسِرَّة المستشفيات في بريطانيا (في إنجلترا وويلز فقط في الواقع) يشغلها المرضى النفسانيون، وقد قطعتُ تلك القُصاصة ووضعتُها (ألصَقتُها) بالكتاب الذي كنتُ قرأتُه (وما يزال لديَّ) عام ١٩٦٨م، وعنوانه «الطب النفسي اليوم» لمؤلِّفه ستافورد-كلارك. لقد نجحَت الكذبة المصرية هذه المرة، وإن كان ذلك بطريقةٍ غير مباشرة!

وفي يوم الخميس ٣١ يناير كان يبدو أن الربيع قد أتى؛ فالجو صحو ودرجة الحرارة لا بأس بها؛ إذ وصلَت إلى ١٢° ظهرًا، فخرجتُ إلى السوق سيرًا على قدميَّ

وحينما رجعتُ وجدتُ في انتظاري مفاجأة: تكليفٌ من الشرطة (والشرطة تابعة للمجلس المحلي) بالحضور للترجمة الفَورية بعد أسبوعٍ في محكمة الجنح، وهي نوع من المحاكم لا يُوجَد عندنا، وهو يحاول إنهاء القضايا السهلة أو التي لا خلاف على الأدلة فيها؛ إما بإحالتها إلى محكمة الدرجة الأولى، أو بإصدار حكم، أو بحفظ القضية. وتُسمَّى هذه المحاكم magistrate's court وهي تابعة أيضًا للمجلس المحلي للمدينة، وتختلف عن محكمة الصلح التي ذكرتُها من قبلُ في أن القاضي يحمل مؤهلًا قانونيًّا، على خلاف قاضي الصلح الذي يعيِّنه المجلس المحلي على أساس النزاهة والخبرة والسمعة الطيبة.

جاكي زوجة توم هيثون مع اثنَين من قبيلةٍ كينية عند زيارتهما إلى لندن عام ١٩٧٢م.

وذكرتُ تجربة «طالب» ودعوت الله ألا تكون قضيةً مماثلة، وللقارئ أن يتصور مدى دهشتي عندما ذهبتُ في الموعد المحدد لأرى «طالب» نفسه في قفص الاتهام، وهو ليس قفصًا كالذي نراه في السينما بل مجرد حاجزٍ عادي في غرفةٍ عادية. دخلتُ فحلفتُ

على المصحف أنْ أُراعي الله والضمير في ترجمتي، وكانت النيابةُ قد وجهت إليه التهمة رسميًّا هذه المرة، وكانت الظروف مختلفةً عن المرة السابقة؛ فلم تكن الدنيا تمطر، بل كان الجو صحوًا حين اقترب صاحبنا من الشاكية وحاول، فيما قيل، تقبيلَها. وكانت الفتاةُ حاضرة. وقمتُ بالترجمة لمدة ساعةٍ كاملة، عرفتُ فيها تفاصيل الاتهام؛ إذ يبدو أن «طالب» المذكور اقتفى أثَر الفتاة ثم هجَم عليها دون مقدِّمات مما سبَّب لها صدمةً عصبية trauma فصرخَت وتكرَّر ما حدث في المرة الأولى، ولم تستدعني الشرطة في المراحل التمهيدية للقضية؛ لأن قاضي الصلح أحال الشكوى إلى النيابة التي أمرَت باحتجاز المتهم (الذي لم يكن متهمًا بعدُ) ٢٤ ساعة، ثم وجَّهَت إليه التهمة رسميًّا، ثم حبسَتْه على ذمة القضية (remanded in custody in connection with ...) ولم يستغرق القاضي وقتًا طويلًا في نظر القضية فأصدَر الحكم بترحيله من إنجلترا، وقال في «تلخيصه» summing up للقضية إنه أخذ في اعتباره صِغرَ سن المعتدي، وانتماءه إلى ثقافةٍ مختلفة، واحتمالَ اختلاله نفسيًّا، كما حكم بأن للمدعية الحق في التعويض المادي عما أصابَها من صدمة، وقال إنه سيحُيل القضية إلى سِفارة البلد المعني حتى يتم دفع التعويض الذي تحكُم به محكمةٌ أخرى مدنية، وسيكون على طالب أن يأتي إلى الشرطة «كل يوم» لتسجيل اسمه حتى يتم الفصلُ في القضية المدنية!

كانت التجربةُ رهيبة! لقد وقع «طالب» في المحظور! وخرجتُ مهمومًا أريد أن أحكي ما حدث لأي صديق، وكنتُ أريد أن أعرفَ مصيرَ طالب بعد ذلك، ولم أكَد أخطو خطوةً واحدة خارج قاعة المحكمة حتى قابلتُ رجلًا أسمر يبدو أنه عربي، فنظرتُ إليه فابتسم وجاءني قائلًا: «أنا من السفارة، وقد اتفقنا بالفعل على دفع التعويض الذي طلبَتْه الشاكية، ولن تُحال القضية إلى محكمةٍ أخرى، بل ستَجري التسويةُ خارج المحكمة؛ أي (settlement out of court) حتى يستطيع «طالب» العودة إلى أهله.» وسألتُه أسئلةً كثيرة أجاب عليها بما بث الاطمئنان في قلبي، ولم يعُد لديَّ شك في أن «طالب» سيعود إلى وطنه بسرعة.

وقد يكون من المناسب أن أختم هذا الفصل بذكر الشيكَين اللذَين تلقَّيتُهما من المجلس المحلي بعد ذلك، لقاء جهودي في الترجمة، وكانت نقودًا تمنَّيت ألا أكسبها؛ فلكَم شاهدتُ الإنجليز يمارسون «ألعاب الحب» (love play) في الطريق العام، ولكم شاهدتُ الفسوق الصريح، دون أن يلتفت أحدٌ إليه أو يشكو منه!

الفصل الثامن

العودة

١

في نحو منتصف فبراير ١٩٧٤م، وصلَني خطاب من البنك يقول لي إنني مدينٌ لهم بثلاثين جنيهًا، و«يُستحسن» أن «ألتفت» إلى هذا الأمر وأُوليه «عنايتي» في أقرب فرصة! كانت صيغةً مطبوعة تُرسل لكل عميل «يسحب على المكشوف» ولكنها كانت إنذارًا لي بأن الإفلاس عواقبه وخيمة؛ ولذلك عدتُ إلى صورة العقد التي أرسلَها الوكيل، ولاحظتُ أنه يقول في أحد بنوده إن الوكيل سوف يدفع لي عند التوقيع مبلغًا مُعيَّنًا للإنفاق على العمل (لتغطية تكاليف التأليف) وفجأةً اختفت مخاوفُ تغيير الأسلوب أو تعديل الصياغة الأدبية، ولاحت صورةُ النقود الزاهية أمام عيني، فعقَدتُ العزم على أن أنتهي من التمثيلية التليفزيونية بأسرعِ وقت. وأعددتُ الملخَّص اللازم وأرسلتُه إلى الوكيل، فجاء الردُّ بالموافقة، فأتيتُ بالآلة الكاتبة وبدأتُ العمل.

وقضيتُ أسبوعَين كاملَين لا همَّ لي إلا الانتهاء من النص، وكان الحوار الحي مستقًى من اللغة الدارجة، وأحسستُ بنَشوةٍ بالغة وأنا أحاكي كُتَّاب التليفزيون، وأتعمَّد إثراء حواري بالتوريات اللفظية، وعندما انتهيتُ منها عرضتُها على توم هيتون وزوجته جاكي، فأبديا إعجابًا لا يشوبه أيُّ تحفُّظ؛ ومن ثم أعددتُ صورًا بالزيروكس وأرسلتُ الأصل إلى الوكيل، وجاءني الردُّ برجوع البريد، وكان يقول إنهم استلَموا الأصل وسوف يُرسِلون إليَّ رأيهم حالما يقرؤها الناقد. وعندها أتيتُ ببطاقات الرسالة وعُدتُ إلى العمل الذي لا يقل إبداعًا عن التأليف، وإن كان يقتضي تجنُّب اللغة الدارجة تمامًا.

وفي يوم السبت ٣٠ مارس اتصل بي توم هيتون وقال إنه سوف يسافر إلى بلانتاير Blantyre في ملاوي، وقد دعا صديقًا له عاد من إيران لتوِّه، وكان يمُر بأزمةٍ نفسية، إلى

العَشاء، كما أن ابنه كان في زيارة لإنجلترا، وهو يدعوني إلى العَشاء مع الجميع. ورحَّبت بالدعوة فالوحدةُ كانت قاتلة، ولا أعرف متى تعود نهاد وسارة. وعندما وصلتُ إلى منزل توم كان الجميع قد بدَءوا الحديث الصاخب، فقدَّمني توم إلى صديقه جون فورسايت (Forsythe)، وطلب منه أن يشرح لي ما حدث له، لكنه كان حزينًا فقال «فيما بعدُ»، وبعد أن شرب ما شاء الله له أن يشرب بدأ يقُص قصته:

كان فورسايت يعمل بالنجارة (cabinet maker أي نجَّار موبيليا) ويُسمِّي نفسه (أستاذ صنعة) (master craftsman) وعندما ارتفعَت أسعار البترول بعد حرب أكتوبر قرأ إعلانًا عن وظيفةٍ مناسبة في طهران تُدِرُّ دخلًا لم يكن يحلُم به، فقدَّم طلبًا لاقى القبول وسافر في نوفمبر، وجعل يرسل إلى زوجته وطفلَيه ألف جنيه في الشهر، وطلب منها إنفاق مائتَين وادخار الباقي حتى يعود، فسوف يساعده ذلك في عمله ولا شك. وكان فورسايت نموذجًا للطبقة العاملة التقليدية في بريطانيا، وكان المفروض أن يستمر في عمله حتى الصيف، لكنه لم يحتمل الانتظار؛ إذ كان يشتاق إلى رؤية طفلَيه، وكانت حياة الوَحْشة والوَحْدة في إيران لا تُحتمل، فقرَّر فجأةً أن يعود إلى إنجلترا، وحصل بسهولة على إجازة لمدة أسبوعَين. وكان قد وضع خطةً لتحديث عمله في النجارة بشراء آلةٍ جديدةٍ باهظة الثمن، واتفق مع شركة من الشركات على شرائها عند عودته ودَفْع العُربون من مدَّخراته التي كان يُقدِّر أنها بلغَت ثلاثة آلاف جنيه على الأقل. واتجه من المطار رأسًا إلى منزله فوجدَ زوجته أمام المرآة تضَع مساحيق الزينة وتضبِط هندامها، وكانت الساعة قد جاوزَت الثامنة مساءً فألقى عليها تحية المساء، فردَّت ببرود قائلةً ما معناه: «ما الذي أتى بك مبكرًا؟!»

وقال فورسايت: «كان استقبالُها الجافُّ لي صدمةً كبيرة؛ فأنا أُحبُّها. إنها امرأةٌ رائعة. (وأخرج من جيبه صورةً عرضَها عليَّ) وسألتُها: أين الطفلان؟ فقالت: عند جدَّتهِما! فقلتُ: والمدرسة؟ فقالت: «هي تصحبُهما إلى المدرسة.» فسألتُها: هل ستخرُجين الآن؟ فقالت بلهجةٍ ساخرة: وهل تظُنني أتزيَّن حتى أتطلَّع إلى نفسي في المرآة؟ ثم خرَجَت. وقضيتُ الليلة وحدي مهمومًا؛ فالدنيا ظلام والبارات تغلق أبوابها في العاشرة، ولم يعُد هناك ما أستطيع أن أسلِّي نفسي به سوى الشراب. وشربتُ ونمت، وعندما صحَوتُ لم أجد زوجتي (ولا الأطفال طبعًا) فاتصلتُ بالمعارف والأصدقاء فلم أجد إجابةً شافية، فخرجتُ إلى الورشة، فرحَّب بي الزملاء، وبعد تبادُل الأخبار عن سوق العمل وأحوال التجارة وطرائف إيران سألتُهم إن كانوا شاهدوا زوجتي مؤخرًا هي والطفلَين

ففاجأَني الوجوم التام. وعندما ألححتُ في السؤال وجدتُهم يتبادلون نظراتٍ سريعةً ذاتَ دلالة ويُشيحون عني بوجوههم فحدَستُ أن في الأمر شيئًا وخفتُ أن يكون قد حدث لهما مكروه، فقال أحدهم: ألا يذهبان إلى المدرسة؟ فأومأتُ، فقال: لا بأس إذن. وبلغ بي القلق مبلغَه، فاتَّجهتُ إلى المدرسة، وطلبتُ رؤية الطفلَين، فأحضروهما، فقبَّلتُهما وقلت لهما إنني سوف أعود في الرابعة لأصطحبهما إلى المنزل، فقال الكبير: ألا ننتظر «ديك» (Dick) إذن؟ ولمحتُ الصغيرة، ولم تكن تجاوزَت الثامنة تشُد يد الصبي كأنما لتحذِّره، وأدركتُ بسرعة أن في الأمر سرًّا، فلم أزِد بل قلتُ بثقة: لقد عاد والدُك، وسوف يأتي لإحضاركما في الرابعة! وانصرَفْت.

وسِرتُ إلى المنزل وأنا أقلِّب الأمر على وجوهه؛ إذ قد تكون زوجتي التحقَت بعملٍ يشغلُها أثناء غيابي، مما يفسِّر عدم وجود السيارة في الصباح، وقد يكون «ديك» زميلًا في العمل تُكلِّفه زوجتي بإحضار الأطفال، ولكن متى عادت زوجتي بالأمس ومتى خرجَت فلم أشعر بها؟ لا بد أنني أسرفتُ في الشراب فنمتُ نومًا يشبه الإغماء، والأرجح أن أرى «ديك» بعد قليلٍ عندما أذهب لإحضارِ الطفلَين، وربما أوضَح لي كل شيء. وعرَّجتُ على أول بارٍ أقابله فتناولتُ قدحَين من البيرة الإنجليزية التي طالما اشتقتُ إليها في إيران، وفي الرابعة ذهبتُ إلى المدرسة فوجدتُ الجميع قد انصرفوا!

ولجأت إلى توم هيتون وجاكي — هنا — فهما أصدقائي منذ الصغر، وجاكي وأنا نشأنا في حواري نوتينج هيل جيت Notting Hill Gate وعرفنا شظَف العيش قبل أن أُثبِت موهبتي في حرفة النجارة وبراعتي في تصميم الأثاث — اسألهما عني يا أستاذ! وهما اللذان نصحاني بشراء هذا المنزل المجاور لمنزلهما، والحق أنهما أزالا مخاوفي، وتطوَّع توم بأن يذهب بنفسه معي ليعرف ما حدث، وأين ذهبَت زوجتي. ولكنني لم أكن أقوى على البحث فطلبتُ منه أن يتولى البحث بنفسه. وعندما عاد كنتُ قد نمتُ فلم أشاهده إلا في الصباح. وكان ما توقَّعتُ وما كنتُ لا أريد تصديقه؛ إذ اتخذَت زوجتي لها عشيقًا في غيابي، وذلك تحت سمْع وبصَر الجيران، ونبَّهَت الطفلَين ألا ينبسا ببنتِ شَفة، وكان «العم» ديك هو الذي يأتي بسيارتي عصرًا لإحضارهما، ويبدو أن زوجتي أشاعت أنني لن أعود أو أننا سوف ننفصل فتقبل الناس صداقتها لـ «العم» ديك!

ومن ثَم ذهبتُ إلى منزل أُسرتها وقابلتُ والديها وقصصتُ عليهما ما سمِعْت، فقالت أمها (حماتي) ببساطة: «تقول جيرتا (الاسم المختصر لزوجته جيرترود) إنكما اتفقتما على الطلاق وعهدَت إليَّ برعاية الأطفال، و«ديك» هو الذي يُحضِرهما من المدرسة كل

يوم. وأنا أرى أن التقاضي باهظُ التكاليف، والاتفاق على الطلاق سوف يوفِّر النقود!» لم أصدِّق ما أسمع فأنكرتُ كل ذلك، وقلتُ لها إن ابنتها خاطئة، وإن «ديك» عشيقُها، فأشار والدها لي بيده قائلًا: «حذارِ من رمي الاتهامات بغير دليل! هل تعلَّمتَ الهمجية في إيران؟» وفقدتُ أعصابي وقلتُ إنها جعلَتني أضحوكة بين الجيران، وحتى لو اتفقنا على الطلاق فأنا أريد النقود التي أرسلتُها إليها من إيران! وخرَجْت.

وفي اليوم التالي صحوتُ متأخرًا وخرجتُ أسير على قدميَّ رغم المطر المنهمر وقد اعتزمتُ العثور على جيرتا بأي طريقة، ولم أكَد أصِل إلى ناصية الشارع حتى رأيتُ سيارتي واقفة، ودبَّت الحياة في عروقي فأسرعتُ إليها وإذا بزوجتي فيها مع شخصٍ حدَستُ أنه «ديك»، وإن لم أتبين ملامحه بسبب البُعد والمطر، فبدأتُ أعدو نحوها، وإذا بزوجتي تُدير المحرك وتندفع إلى الأمام، فعدوتُ حتى كدتُ أُدرِكها لكنني لم أستطع، فالتقطتُ حجرًا وضربتُ الزجاج به فكسرتُه! وكانت القضية التي قرأتَ عنها في الصحف وسبَّبَت لي هذه المتاعب.»

ونظرُت إلى توم أستوضحه؛ فأنا لم أقرأ عن أي قضايا تخُص فورسايت، فأسرع توم يقول «إنها في صحف اليوم. تفضَّل». كان الخبر يقول: «القاضي يحكم على الزوج الهمجي بالحبس ستة أشهر مع وقف التنفيذ.» ويتضمَّن الخبرُ التفاصيلَ كلها، تمامًا كما رواها الزوج، ويقول إن القاضي استنكر السلوك الهمجي من الزوج الغيور العائد من إيران، وقد أصدَر هذا الحكم عليه حتى يجعل منه عبرةً لمن يعتبر.

وقالت جاكي: «شيطانةٌ محظوظة! وجدَت في يدها أموالًا لا تعرف ماذا تفعل بها فقرَّرت أن تلهو وتلعب!» وقال ابن توم (وكان اسمه «كامل» وكان يكتبه — ويا للعجب — بالإنجليزية هكذا Camel!): «لو كنتُ مكانها لفعلتُ نفس الشيء!» وكان وجه فورسايت يزداد امتقاعًا، وأحسستُ أنه على وشك البكاء، فقلت له: «تستطيع أن تتزوج خيرًا منها، ولا أظن أن «ديك» سوف يتزوَّجها، فإذا كنتَ ما تزال تُحبها فلا تقل إن الوقت قد فات!» ونظر إليَّ في دهشة وقال: «أنا لست حزينًا على فراق اللعينة بل على فراق الأطفال، وفراق النقود طبعًا.» وكان الوقتُ قد تأخر فانفَضَّ الحفل وعدتُ إلى المنزل بمادةٍ «قصصية» جديدة!

لم يقُل لي «توم» إنه أقنع فورسايت بأن يلحق به في بلانتاير؛ فهناك ألف فرصة للعمل، وكان توم قد اكتسب من نشأته في اليمن الميلَ إلى بذل المساعدة لمن يحتاجها ومدَّ يد العون دون توقُّع للجزاء أو للثواب، وكان دائمًا ما يقول إن في أعماقه دمًا عربيًّا

يدفعُه إلى الترحال، وقد تابعتُ أنباءه بعد عودتي من مصر فكان المثال الفريد للتطبُّع الذي يغلب الطبع، هذا إذا اعتبرنا صفات العزلة والحرص من الطباع «الغريزية» لدى الإنجليز. ولم يتردَّد فورسايت في الموافقة، ولم يُكتَب لي أن أرى أيًّا منهما إلا بعد عامٍ كامل!

٢

كانت كتابة التمثيلية التليفزيونية أيسر كثيرًا من كتابة القصة؛ فأنت تضع تخطيطًا مبدئيًّا يشبه السيناريو، وتتصوَّر ما يمكن أن يدور من أحداثٍ بعين خيالك، وبعد أن ترسم المشهد بخطوط عريضة (outline) تكتُب الحوار فقط، وهو محدودٌ إذا قيس بالحوار المسرحي أو الإذاعي، وأذكُر أنني كنت أملأ ١٨ صفحةً فولسكاب بالحوار للتمثيلية الإذاعية التي لا تزيد عن نصف ساعة، والآن لم أكتب سوى ٢٥ صفحة لهذه التمثيلية التليفزيونية ومُدَّتها ساعةٌ كاملة. كان الفرق هو أنني في الإذاعة أُخاطِب الأذن أساسًا ولا بد أن يكون الصوت البشري متصلًا في الأسماع فهو الأساس، وما المؤثِّرات السمعية الأخرى من موسيقى وغير ذلك إلا عواملُ مُساعِدةٌ وثانوية، لا يكاد يُحسَب لها حساب، أما في التليفزيون فنحن نخاطب العين، وقد يكون دَور المخرج في تحريك الأشخاص وتكوين المشاهد وتكوينها أهم من دَور كاتب الألفاظ، والزمن المتوقَّع للمشاهدة، حتى دون حوار، قد يطولُ فيُمعن في الطول، والمسرح وسط بين الإذاعة والتليفزيون؛ فالمسرحية التي تستغرق من ساعتَين إلى ثلاث ساعات في التقديم على المسرح تتطلب صفحاتٍ تتراوح بين ٦٠ و٩٠ صفحة، بما في ذلك الإرشادات المسرحية.

وكان يوم وصول الموافَقة من الوكيل يومَ عيدٍ لي، وسرعان ما وصل العقد فوقَّعتُه وأعدتُه بالبريد، وكان عليَّ أن أسجِّل نفسي في نقابة المؤلِّفين (Writers' Union)؛ لأن اشتراكي في نقابة الصحفيين (NUJ) لم يكُن يؤهِّلُني للكتابة في التليفزيون، ولم يكن معي من النقود ما يكفي فطلبتُ التأجيل وجاءت الموافقة؛ ومن ثَم بدأتُ أفكِّر في موضوعٍ جديد لتمثيليةٍ جديدة، واشتَط بي الخيال — ترى هل أستطيع يومًا ما أن أكتب للمسرح الإنجليزي؟ لن أكون أول أجنبيٍّ يدخل الساحة، ولن أكون الأخير، وأفقتُ من أحلامي ذات يومٍ على خطابٍ من إدارة الجامعة تسألُني فيه متى أنتهي من الدكتوراه؛ لأن الحد الأقصى للتسجيل هو خمسُ سنوات، وسوف يكون عليَّ إذا أردتُ زيادة المدة أن أدفع المصاريف الدراسية بنفسي.

أفقتُ — كما قلتُ —؛ لأن الكتابة في الغربة معناها الحياة في الغربة، وأنا رجلٌ جذوره في مصر، وثقافة اللغة العربية تجري في جسده مجرى الدم، ونهاد وأنا لا نتصوَّر لنا حياةً خارج مصر، وعندما وصلَني في أبريل خطابُ نهاد الذي تقول فيه إنها ستصل هي وسارة في أوائل مايو (يوم ٤ تحديدًا) تأكَّد لي أن تلك الأحلام لا بد أن تنقشع، وربما احتجتُ إلى العودة إلى العمل، وهو ما فعلتُه اعتبارًا من أول مايو، حتى لا نعيش في ظل الإفلاس.

وقضيتُ شهر أبريل ممزَّق النفس بين الكتابة الإبداعية ومحاولة «تشطيب» الرسالة، وعدتُ إلى العمل في مايو، وعندما وصلَت نهاد وسارة، ورأيتُ ابنتي بعد فراقٍ دام ثمانية أشهر، وكانت نهاد تحملُها، تهلَّل قلبي وعاد الدفء إلى نفسي، وفي المطار دُهشَت سارة لبرودة الجو والنسيم الذي كان يهبُّ عليلًا حينًا وعاتيًا حينًا آخر، وقالت بالعربية «الهوا»! وقلتُ لنهاد إنها تتكلم العربية! وأكَّدَت لي أنها تعرف أكثر من هذه الكلمة!

وكانت جلسة التصافي بيننا طويلة؛ فلقد مرَّت نهاد بأوقاتٍ عصيبة وهي ترعى ابنتنا وحدها، وكانت رحلتُها ولا شك تضحيةً من جانبها في سبيلي أو في سبيل الأُسرة، أقصد أُسرتنا الصغيرة، وكنتُ أعرف أنني أخطأتُ حينما وافقتُ على رحيلهما، ولكنني كنتُ ألتمس الأعذار لنفسي — وهي أعذار تتعلق بتكويني نفسه لا بأفعال محددة؛ فأنا لا أستطيع أن أكتُم كل طاقاتي الفنية وأسخِّر كل جهودي للانتهاء من الرسالة مثلما يفعل طالب البعثة الملتزِم، ولا أستطيع أن أمتنع عن المسرح، أو عن قراءة الصحف ومشاهدة التليفزيون والاستماع إلى الراديو، وإلى الموسيقى، أو عن الاختلاط بالناس والإحساس بحياتهم ونبضها، وبلغة الناس إلى جانب لغة الكُتب، ولا أستطيع أن أمتنع عن العمل طويلًا فالتدريس والترجمة يمثلان روافد لحياتي، وكل هذا ينطبق تمامًا على نهاد، وقد عشنا أيامًا صعبة، وآن لنا أن نودِّعها وأن نتطلَّع إلى المستقبل في مصر. وتمنَّيتُ من أعماقي أن تغفر لي نهاد تلك «الموافقة» على الرحيل!

٣

اتفقنا أنا ونهاد على أن نجعل الشهور الباقية من عام ١٩٧٤م — ريثما يتم بناء العمارة التي استأجرَت لنا فيها شقةً جميلة، بفضل والدها رحمه الله، وكان معهما أخي مصطفى، في مدينة المهندسين بجوار نادي الصيد المصري — شهورَ استعدادٍ للعودة، فاشترينا كل ما تصوَّرنا أننا سنحتاج إليه، في حدود طاقتنا المالية، وكنا نتنزَّه

حين يصفو الجو في الحديقة الرئيسية المجاورة لنهر التيمز (على مسافةٍ بعيدة بعض الشيء من منزلنا) وكانت سارة وهي تخطو في عامها الثالث تتحدَّث الإنجليزية لغةً أولى، والكلمات العربية المفردة متناثرة في تضاعيفها. وكنتُ قد اكتسبتُ هوايةً جديدة في ذلك الصيف هي صناعة الأشياء الخشبية، فلم أتردَّد في العمل نجارًا في الحديقة بعض الوقت، وعندما علمَت صديقاتُ نهاد بنبأ عودتها أصبحن يزرنها، وكثيرًا ما كنتُ أعود من العمل مساءً لأجد مجلس السمر منعقدًا، وأعتقد أن اختلافنا عنهُن كان يجذبهُن إلينا، ولا أقول الكرم الذي هو سمة كل العرب وكل المصريين.

وقصَّت الصديقات على نهاد ما دار في «الحياة» أثناء سفرها، وما إن انقضى الصيفُ حتى عادت نهاد إلى العمل في المكتبة معهُن، وأصبحَت تأخذ سارة إلى روضة الأطفال في الصباح، ثم أُحضِرها أنا إلى المنزل عصرًا، وقد أتولَّى إطعامها ورعايتها حتى تعود نهاد، وأعتقد أن سارة استفادت فائدةً جُلَّى من تلك الروضة، وفي الأيام التي كنا نعمل فيها معًا (أي في أيام ورديَّتي النهارية) كنا نخرج معًا ونعود معًا.

وكانت خطاباتُنا المتبادلة مع أفراد الأُسرة في مصر — مع ما عادت به نهاد من أخبارٍ مفصَّلة — تبعَث على الاطمئنان، ولكنني كنتُ ما أزال أحمل سرِّي الخاص، وهو العقد الذي وقَّعتُه مع الوكيل، ونصَّ تمثيليتي (Invasion أي الغزو) وذلك الحُلم الجامح الذي يُغريني بمواصلة الكتابة الإبداعية بالإنجليزية، وعندما عرف بذلك السِّر سمير سرحان (الذي كان قد رحل مع أُسرته في إعارة إلى المملكة العربية السعودية) كتَب لي خطابًا مُطوَّلًا يقول لي فيه: «هل تُريد أن تُترجَم أعمالُك فيما بعدُ إلى العربية أو أن تُصبِح كاتبًا مستوردًا؟» وفهمتُ من خطابه أنه يريدني أن أعود بأسرعِ ما أستطيع، وقَصَّ عليَّ قصة إعارته، وكيف أُصيب رشاد رشدي بصدمةٍ آنذاك (أي قبل ثلاث سنوات) حين لم يُقبل طلبه؛ لأنه كان قد عقد الأمل على الرحيل بعد أن بلغ سن التقاعُد (وكانت ألفاظ سمير سرحان هي he was banking on it) ثم تغيَّرت الأحوال وأصبح رشاد رشدي أستاذًا متفرغًا، ثم عميدًا لمعهد الفنون المسرحية، ثم رئيسًا لأكاديمية الفنون، وكانت أنباء ذلك كله تعني الكثير لي، كما كان رشاد رشدي رئيسًا لتحرير مجلة جديدة هي «الجديد»، وكنتُ من أوائل من كتبوا فيها عام ١٩٧٢م، والآن تفرَّق الأصحاب في ثلاثِ قارَّات، ولا بد أن رشاد رشدي كان يشعُر بالوحشة لذلك، خصوصًا وأن «ابنه» الرابع فاروق عبد الوهاب رحل إلى أمريكا قبل عدة أعوام.

واكتملَت الرسالة، وأصبحتُ أشعر أن الأيام المقبلة ستكونُ عصيبة؛ فربما أُقرِّر البقاء — رغم كل شيء — والالتزامَ بالعقد الذي وقَّعتُه ومدةُ سريانه ثلاثُ سنوات، وربما أقرِّر الالتحاق بعملٍ آخر — وكثيرًا ما كنتُ أقرأ الإعلانات عن الوظائف الخالية لأساتذة العربية (اللغة والأدب والثقافة) في الجامعات البريطانية. وقد حصل عبد اللطيف الجمَّال على إحدى هذه الوظائف فيما بعدُ، وإن كان الراتبُ أقل كثيرًا من الدخل الذي تُدِرُّه الترجمة؛ فالتدريس مهنةٌ منكوبة في بريطانيا، ولا يُقدِم عليها إلا المثاليون، ممن يؤمنون حقًّا برسالة العلم والتعليم.

وعندما عادت نهاد وسارة عادت لنا الحياة الاجتماعية، فبدأنا نتبادل الزيارات مع الأستاذ المشرف وزوجته شارلوت، ثم أصبح منزلُنا بسبب موقعه المتوسِّط بين العمل والمدينة ملتقًى للمعارف والأصدقاء، وكان معظمهم يسخرون منا حين نقول إننا سوف نرجع إلى مصر؛ فهم يعتبروننا من المقيمين الذي أصبحَت لهم جذورهم في هذه التربة الجديدة، وإن كانت قضية الجذور تشغلُني أكثر من غيرها.

نظرتُ فيما كتَبْت، فوجدتُ أنني أُعالِج موضوعاتٍ تتعلَّق بحياة إنجلترا، وأنني مهما يكن موقفي أخاطب القارئ (أو السامع أو المشاهد) الأجنبي. كان قلبي مطمئنًّا إلى الملامح الفنية لكتاباتي، ولكن «الموضوعات» كانت تشغلُني! ما دلالة ما أكتب — أو بعبارة شكري عياد «وبعدين؟» لم أكن أشعُر بالوحدة بعد عودة نهاد وسارة، ولكنني كنتُ أشعُر أنني مقبل على «وحدة» من نوعٍ آخر حين أعود إلى مصر، ولا شَكَّ أن أوَّل عناصرها هو اللغة! سمير سرحان يقول لي في خطاباته إن المجال مفتوحٌ للكتابة بالعربية «وإن كان عندك أفكار اكتبها بالعربي!» وكنت أسمع الهاجس في ذهني بالإنجليزية easier said that done — أي ما أصعبَ تحقيقَ ذلك!

وكان الهاجس له ما يُبرِّره؛ إذ كنتُ ذاتَ يومٍ في المطار أستقبل أو أودِّع أحدًا (لا أذكُر) حين شاهدتُ الدكتور شوقي ضيف يودِّع ابنه الطبيب المقيم في لندن، وعندما بدأنا الحديث وجدتُ أنني أترجم عن الإنجليزية؛ فالخواطر ترد إلى ذهني بالإنجليزية وأكاد أنخرط في حديثٍ يشبه الترجمة الفورية، بل كنتُ أتعثر بحثًا عن كلمة أو تعبير، وتصبَّب العرق من جبيني، وعندما تركتُ أسرة الدكتور شوقي ونزلتُ الدَّرَج حيَّاني شخصٌ تعرَّف عليَّ، وكانت التحية العربية جديدةً ولم أعرف معناها؛ إذ كان ذلك الشخص من المشرفين على فريق رياضي مصري عائد بعد الانتهاء من بعض المباريات، وكانت التحايا القديمة هي «أهلًا يا كابتن» أو «يا باشمهندس»، ولكن التحية الجديدة

كانت يا باشا — وهي الكلمة التي كان الظرفاء يستخدمونها في «معاكسة» الحسناوات! وقلتُ بسرعة «أهلًا وسهلًا»، لكنه عندما انخرط في الحديث معي كان الواضح أنني أتلعثَم وأتردَّد!

إذا كنتُ سأكتب عن حياة الإنجليز وأوجِّه حديثي إلى الإنجليز، فسوف أكون قد أهدرتُ العمر حقًّا! هل اختفت العربية التي تعلَّمتُها في مدرسة المحافظة على القرآن الكريم (مدرسة الحكيمة في رشيد) والتي كتبتُ بها النقد والمسرح وترجمتُ إليها مسرحيات شيكسبير وتشيخوف ويونسكو؟ كنتُ واثقًا أنها كامنة بصورةٍ ما في أعماق النفس أو في طوايا العقل، وإن يكن استدعاؤها عسيرًا بالغ العسر؛ لأن ردود الأفعال اليومية التي غالبًا ما تتخذ صورًا لفظية — شأنها في ذلك شأن المشاعر والأحاسيس والأفكار — تتشكَّل بلغة الحديث والفكر والعمل في الحياة اليومية، وهي الإنجليزية! كانت معظم الأفكار التي أَتَتْني من الكتب أو من أفواه الناس تتخذ صورة اللغة الإنجليزية، وكنتُ أحمد الله آنذاك على أنني غيرُ مُضطَر لترجمتها إلى العربية، ولكن ذلك محتومٌ حين أعود إلى مصر، فكيف تتحوَّل آلةُ التفكير كلُّها من لغة إلى لغة، وشغلَني الموضوع إلى الحد الذي دفعَني إلى مناقشته مع مستر ويلكينز أستاذ علم اللغة، الذي أجرى بحوثه كلها أو معظمها في ثنائية اللغة، أو في التحوُّل من لغة إلى لغة في سياق التفكير والحديث (bilingualism & code switching) وكانت بعض مادته مستقاة من طفلَيه اللذَين يتحدثان الإنجليزية والفرنسية بطلاقة؛ لأن أمهما فرنسية. قال ويلكينز:

«نحن نفرِّق في علم اللغة بين فئة المفردات الأساسية التي يكتسبها الطفل من والدته أو من يحل محلَّها (surrogate mother) وبين فئة المفردات الثانوية التي يكتسبها من التعليم سواء كان ذلك هو التعليم الرسمي أم غيره؛ فالمفردات الأساسية هي التي نعتبرها اللغة الأم وهي تشكِّل المادة الخام لاستجابة الطفل وتفاعُله مع العالم الخارجي، وتتحكَّم في أساليب انفعاله؛ أي إنها جزء لا يتجزأ من عملية نموه النفسي، وعلماء النفس يعلِّقون عليها أهميةً كبرى. فإذا نازعَتْها لغةٌ أخرى في تلك السن المبكِّرة — وهذا هو ما حدث في حالة طفليَّ الصغيرَين — تأخَّر النضجُ اللغوي للطفل، مثلما يتأخر النطق عند الأطفال الذين يعانون من تنازُع نصفي المخ على السيادة، ولكن النضج يأتي ولا شك ويكون في هذه الحالة ثنائي اللغة — بمعنى أن الطفل يكون قادرًا على التحوُّل من إحدى اللغتَين إلى الأخرى بسرعة وبتلقائية — أي دون تفكير ودون تردُّد، وإن كان

العامل الذي يحدِّد اللغة المستخدمة لا يتوقف على السياق وحده، بل تشترك معه عواملُ أخرى كثيرة بدأ اللغويون في دراستها مستعينين بعلم الاجتماع وعلم النفس.

أما الفئة الثانية فهي فئة مفردات الخبرات اللاحقة على المفردات الأساسية، وهي كما قلتُ مفردات التعليم؛ فهي أكثر دقةً وتفصيلًا، وأكثر رهافةً ولطافةً، وعادةً ما تتغلب فيها إحدى اللغتَين على الأخرى، حتى لو كان الذهن يستخدم اللغتَين معًا في التفكير! فابنتي الكبرى لا تكتُب إلا الإنجليزية رغم إلمامها الكامل بالفرنسية قراءةً وكتابةً وحديثًا، وحين تُضطَر إلى كتابة الفرنسية فإنها كثيرًا ما تُترجِم عن الإنجليزية وتُزعِج والدتها بأسئلتها الكثيرة. وهي ذاتُ موهبةٍ لغوية لا شك فيها، وأعتقد أنها لو تعمَّقَت في دراسة الفرنسية فسوف تستطيع أن تكتب كتابةً إبداعية يومًا ما بلغة والدتها .. إنها فتاةٌ رائعة ...»

وتركتُ ويلكينز يتحدَّث بإعجاب وحب عن ابنته، ثم قاطعتُه لأشرح له حالتي فقال: «أنت خير من يحكم على نفاذ الإنجليزية إلى مفرداتك الأساسية، وقد تستعين في ذلك بابنتك؛ فهي لا شك تعرف العربية أو ستعرفُها عما قريب، وربما أصبحَت العربية مزاحمةً لمفرداتها الأساسية بالإنجليزية، ولكنك لن تتعرَّض أبدًا لمثل هذا التنازُع؛ لأنك لم تتعلَّم الإنجليزية إلا بعد أن تشرَّبتَ العربية — وكان ذلك كما تقول في الثامنة ...»

ولكن ويلكينز لم يكن درس التنازُع على مستوى اللغة الناضجة، فهو مرتبطٌ بطفلَيه، والموضوع في حالتي يتخطَّى مرحلة الطفولة، فإذا كانت اللغة الإنجليزية هي السائدة اليوم، فلا بد أن تسود العربية غدًا، ووجدتُني دون أن أدري أتأمَّل عملي بالترجمة وتأثيره في تكوين إحساسي باللغة الإنجليزية، والفارق بين ما كتبتُه في الرسالة وما أكتُبه الآن في القِصَص والتمثيليات، وطابع الحوار بيني وبين الإنجليز من جهة، وبيني وبين نهاد من جهةٍ أخرى، وانتهيتُ إلى أننا — أنا ونهاد — قد أخذنا كفايتَنا من الإنجليزية، وأن الوقت قد حان للعودة النهائية!

كانت سارة قد بلغَت الثالثة، وكان الإنجليز يعتبرونها «عَجَبة» (oddity) فهي تلتقِط من حواري أنا ونهاد كلماتِ المثقَّفين وتستخدمُها في غضونِ لغة الأطفال في الحضانة، وكانت زميلاتُ نهاد في العمل يَعجَبن لها ويَدهَشن منها، وكانت إحداهنَّ تُقيم بجوارنا واسمها صوفي دينر — وكانت نمسويةً وتتكلَّم الألمانية — شقراء وسمينة، ولم تكن تكُفَّ عن التعليق على لغة سارة العجيبة! وأذكُر أن محادثات فَضِّ الاشتباك بين القوات المصرية والقوات الإسرائيلية كانت قد بدأَت آنذاك، وكان كيسنجر يُواصِل

رحلاتِه المكُّوكية بين الطرفَين مُلوِّحًا بأمل السلام النهائي، وما لبثَت القوات الإسرائيلية أن انسحبَت من المنطقة التي كانت تحتلُّها غربي القناة، وبدأ الحديثُ الجادُّ عن السلام، وأعلن السادات أن الانسحاب سوف يُعيد حقول البترول لمصر، ويسمح بإعادة فتح قناة السويس.

٤

كان عبد اللطيف الجمَّال قد قرَّر حين حصل على الإجازة المَرَضِية أن ينتهي من كتابة الدكتوراه في غضون الشهور الثلاثة، لكنه كان مثال «الصرمحة» بين الكتب، وهو ما كان شكري عياد يحذِّرني أنا منه، فانقضى صيف ١٩٧٤م دون أن يكتب سوى فصلٍ واحد، وكان يتعمَّد التعمق في الفكر الفلسفي الألماني بحُجَّة الغوص في تأثير الألمان في كولريدج وكيف صوَّر ريتشاردز ذلك في كتابه عنه، وكان المشرف على رسالته هو الأستاذ نورمان جيفارز Norman Jeffares المتخصص في ييتس، وكان على إعجابه بعُمق أفكار عبد اللطيف يريد له أن ينتهي حتى يكتُب شيئًا عن ييتس، ولكن عبد اللطيف كان قد استنفَد ما يزيد كثيرًا عن الحد الزمني المسموح به للتسجيل للدكتوراه، فألغَت الجامعة تسجيلَه، وأرسلَت له تقول إنه إذا أراد إعادة التسجيل فسوف تنظُر الجامعة بعين العطف في الطلب الذي عليه أن يتقدَّم به، مما جعل عبد اللطيف يزهد في العمل وفي الدراسة جميعًا، وعندما أعلنَت منظَّمة اليونسكو التابعة للأمم المتحدة ومقرُّها باريس عن مسابقة امتحانٍ للتعيين في وظيفة مُترجِمين تقدَّم وحصل على الدرجات النهائية في ورقتَي اللغة الإنجليزية، لكنه تجاهَل ورقةَ اللغة الفرنسية فلم يُوفَّق، ونجح عبد الرشيد الصادق المحمودي وترك لندن إلى باريس.

ولم أكن أزور لندن إلا لمتابعة أخبار الأصدقاء؛ إذ كنتُ حريصًا على معرفة مَن غادرها إلى مصر ومَن بقي فيها، وازداد اهتمامي في شتاء ٧٤/٧٥ بأنباء مصر؛ إذ كان أخي حسن قد التحق بعمله في وزارة الخارجية، وكان آنذاك سكرتيرًا ثالثًا في مونروفيا (عاصمة ليبيريا) وهو الآن سفير مصر في أذربيجان، وكان أخي مصطفى قد انتقل من الهيئة العامة للسد العالي (بعد انتهاء السد وتوزيع العاملين فيها على المصالح الأخرى) إلى الهيئة العامة للتأمينات الاجتماعية، لكن طموحه جعلَه يلتحق بالجامعة الأمريكية للحصول على الماجستير في إدارة الأعمال، وحصَل فيما بعدُ على الدكتوراه، وهو الآن أستاذٌ في إحدى الجامعات الخاصة، ولم يكن قد تزوَّج بعدُ، بخلاف حسن الذي

تزوَّج وأنجب أميرة وعزة — وهما من التوائم غير المتطابقة! وكان والدي قد شُفي من الأزمة القلبية التي كانت أصابَتْه بالفالج، وهو بعدُ في أواخر الخمسينيات من عُمره، وكان ماهر البطوطي قد عاد إلى مصر من إسبانيا، ومَرَّ عليَّ في إنجلترا وقضينا معًا وقتًا جميلًا، وزارنا في منزلنا في ردنج.

لا أذكُر الكثير — وهذا من العجب العجاب — عن مطلع عام ١٩٧٥م؛ فالمفكِّرة تقول في كل صفحة «عام العودة إن شاء الله» وتحكي عن المستقبل لا عن الحاضر أو الماضي، وكانت نهاد كشأنها حاسمةً في موضوع العودة، لا تُطيق التردُّد فيه، وكان اهتمامنا منصبًّا آنذاك على الضائقة المالية التي نعاني منها؛ فلدَينا طفلة، والأجر الذي سأتقاضاه إن شاء الله في الجامعة محدود؛ إذ كان راتب المدرِّس الشهري ما يزال أربعين جنيهًا، زيد فيما بعدُ إلى ستين، وأذكُر أنني عندما قدَّمتُ استقالتي سألَني رئيس مكتب الأخبار عن الراتب الذي سوف أحصُل عليه في مصر، فقُلت: ستون جنيهًا. ولم يدَعْني أُكمِل العبارة فقال: وهل تكفي ستون جنيهًا في الأسبوع؟ وتظاهرتُ بالانشغال بأشياءَ أخرى حتى لا أصحِّح له العبارة!

كان حفل التخرُّج يُعقد أربع مراتٍ في العام، وكان المشرف يرى أن أقدِّم الرسالة في الشتاء حتى أحضُر الحفل الخاص بفصل الربيع؛ فسنواتُ التسجيل الخمس قد انقضَت، والرسالة اكتملَت، ولم يكن يرى مبررًا للتباطؤ والتلكؤ، وكان يُلمِحُ لي من وقتٍ لآخر بأن وظائف التدريس متاحة في قسم اللغة الإنجليزية، وأشار ذات يومٍ إلى إعجاب مستر ويلكينز بدراستي الأسلوبية وإلى أننا تربطنا صداقةٌ متينة، فإذا ازدهرَت الدراسات اللغوية والأسلوبية فلماذا لا أكون في طليعة أنصارها؟ وكنتُ أستمع إلى هذه التلميحات فلا أردُّ الردَّ الشافي، لا بسبب تردُّدي، بل لأنني لا أريد إغلاق «أبواب المستقبل» إغلاقًا تامًّا، فالمستقبل مجهول (تعريفًا) ولا يدري أحدٌ ما تأتي به الأيام.

تُوفِّيَت أم كلثوم في مطلع فبراير (وأذكر أن الصحف المصرية تسرَّعَت بإعلان الوفاة قبل حدوثها يوم ٢ فبراير) وقرأتُ نعيَها في صحيفة التايمز يوم الثلاثاء ٤ فبراير وأنا في لندن — لا أدري ماذا كنتُ أفعل — لكنني أذكُر أنني كنتُ في محطة القطار حين قرأتُ الخبر المفصَّل، فكأنما كان إيذانًا بانتهاء عصرٍ كامل، ولم تنقَضِ أيامٌ حتى فُوجئ الجميع بانتخاب السيدة مارجريت تاتشر رئيسةً لحزب المحافظين، وكانت أول رئيسةٍ للحزب منذ إنشائه، والغريب أنها عصامية؛ إذ كانت تنحدر من أُسرةٍ فقيرة (أبوها كان بقالًا) وسلكَت طريق الدراسة الجامعية حتى أصبحَت مُدرِّسة للكيمياء، ثم دفعَها

طموحُها إلى الحصول على ليسانس الحقوق، والاشتغال بالسياسة، فتولَّت منصب وزيرة التعليم في وزارة المحافظين الأخيرة التي خَسِرَت الانتخابات نتيجة الصدام مع إضراب عمال الفحم في مارس ١٩٧٤م، وعودة حزب العمال بقيادة هارولد ويلسون من جديدٍ إلى الحكم رسميًّا يوم ١١ أكتوبر في العام نفسه.

وشُغل الناس بهذه السيدة فزعامتها لحزب المحافظين تعني احتمال تولِّيها رئاسة الوزارة إذا نجح الحزب في الانتخابات في جولةٍ مقبلة، وهذا هو ما لم يكُن «المحافظون» الحقيقيون من الإنجليز يُسيغونه، فبدأنا نسمع لأول مرة عن الحركة النسوية الجديدة، وهي التي كانت مقصورةً حتى ذلك العهد على الأدب، وبدأ الحديث الذي ملأ الدنيا هذه الأيام عن «طبيعة» الرجل والمرأة، وطلَب مني مكتب الأخبار الحضور للاطِّلاع على بعض الصحف العربية لمعرفة ردود الفعل العربية ولكنني قضيتُ اليوم كلَّه فاحصًا دون أن أجد تعليقًا مهمًّا في أيٍّ منها.

وفي يوم الثلاثاء ٢٥ مارس كنتُ في المنزل، وكنتُ قد انتهيتُ لتوِّي من محادثةٍ تليفونية مع أحد الأصدقاء العرب الذي كان يُهنِّئني بعيد المولد النبوي (١٢ ربيع الأول)، وأثناء صعودي إلى غرفة المكتب رنَّ التليفون من جديد، وإذا بمكتب الأخبار يقول إنهم أرسلوا السيارة؛ لأن وكالة أنباء الشرق الأوسط «أَخْلَتْ كل خطوطها» استعدادًا لنبأٍ مهم، ولا يريدون أن يسبقَهم أحدٌ إليه، فارتديتُ مِعطَف المطر والقُبَّعة الكندية وخرجتُ لأجد السيارة، وفي لحظاتٍ كنتُ أستمع إلى إذاعة الرياض؛ إذ قيل إن الملك فيصل قد قُتِل. وسرعانَ ما جاءت الأنباء المؤكَّدة من المصدر الأصلي عن اغتياله برصاص أحد أفراد الأسرة أثناء الاحتفال بالمولد النبوي. وبعد قليلٍ قال الراديو إن الأمراء «اتجهوا إلى منزل الأمير خالد وبايعوه ملكًا» وسرعان ما طيَّرتُ الخبر في عبارةٍ واحدة حتى لا تسبقنا وكالاتُ الأنباء الأخرى، وكان يقول Khalid is new Saudi King ثم جلستُ أترجم النبأ لأتعثَّر في كلمة «بايعوه»!

ووقفتُ في ضيقٍ واضح لأنظُر في المعاجم، فأسرع إليَّ المشرف وكان رجلًا مهذبًا من ليسوتو اسمه هاتون Hutton ليسأل عن المشكلة، فقلت له «كلمة»! فقرأ الخبر الناقص في الورقة التي كانت ما تزال في الآلة الكاتبة وسألَني كأنما لُيكمِل العبارة لي they proclaimed him king? وقلتُ له نعم! وسرعان ما اختطَف الورقة وأرسلَها إلى عاملة التليكس كي تطيِّر النبأ، لكنني عُدتُ إلى الكلمة لأتساءل عن معنى البيعة. وفي

لحظةٍ خِلتها دهرًا تزاحمَت في ذهني معاني البيعة والمبايعة في تاريخنا العربي، فذكَرتُ «بيعة العقبة»، وغيرها من الأحداث التي تجعل الكلمة زاخرةً بمعانٍ لا تخرج في كلمةٍ واحدة؛ فهي تتضمَّن الانتخاب وإعلان الولاء معًا، إلى جانب ما يوحي ذلك كلُّه به من وفاء وإخلاص وثقة، وأين ذلك من الكلمة المفردة التي تناقلَتها وكالات الأنباء نقلًا عني في ظهيرة ذلك اليوم من أيام الربيع؟ واضطُررت إلى إصدار نشرةٍ أخرى أضفتُ فيها تلك المعاني، ثم ذهبتُ إلى الكافتيريا لإحضار كوبٍ من الشاي بعد أن أوصيتُ والد جون بولارد أن يأتيني بالترجمات الإنجليزية التي تبثُّها وكالاتُ الأنباء العربية (أي العاملة في البلدان العربية) حتى أُقارِن وأُوازِن وأحكُم، ولكن الجميع كان يردِّد الكلمة «المؤقَّتة» التي اقترحَها هاتون دون الاطلاع على الكلمة العربية!

وانثنيتُ أفكِّر في مدى الاختلافات في التفكير (النابعة من اختلاف الثقافة) التي تتحكَّم في اختلاف صورتنا في العالم الخارجي، واختلاف صورة العالم الخارجي لدينا، وذكرتُ عبارةً أخرى كانت قد وردَت في تعليق إذاعة صوت العرب عَقِب اجتماع نيكسون مع بريجينيف قبل ثلاثة أعوام، وكان الذي كتَبه عبد الفتاح العدوي، صديقي القديم (رحمه الله) وهي: إن الانفراج الدولي «يأخذ بخناقنا»! كنتُ ترجمتُها آنذاك بتعبير is at our throat ولكن أحد زملائي المحرِّرين اقتَرح أن يجعل لها رنينًا جذَّابًا وهو throttle وهو فعل يعني الخنق، ولا يُوحي بالتنازُع الذي يُمسِك فيه الرجل بـ «خناق» غريمه، ومنها «الخناقة» بالعامية والفعل «يتخانق» المصري! وعندما اعترضتُ قال لي: هذه مسئوليتي. ولحُسْن الحظ أن الخبر لم يُكتَب له أن يُنشَر، وإن كان مكتب الأخبار كلُّه يعتقد أن المعنى هو أن الانفراج الدولي في رأي كاتب التعليق «خانِق» (suffocating)!

وقلتُ في نفسي إن هي إلا أيام وأعودُ إلى مصر، تُرى هل تُصبِح دقة الترجمة عاملًا يُساهِم في تصحيح صورتنا؟ إن لغة الأخبار يسيرةٌ موطَّأة الأكناف؛ فقوالبُها ثابتةٌ محفوظة، أما لغة الأدب فما أشقَّها وأعسَرها! وما بالُكَ بلغة الثقافة العربية ذات الجذور العميقة في التاريخ والمعتقدَات! لا شك أن تلك رسالةٌ لا تقل قيمتُها عن الكتابة والنقد، والصحوةُ العربية تقتضي صحوةً لغوية لا تقتصر على أجهزة الإعلام، بل تشمل كل ما نُترجِمه من آدابهم وما يُترجِمونه من آدابنا — بل وما ينبغي أن نُترجِمه نحن من آدابنا!

لا، لم يعُد الهدف من العودة تدريسَ الأدب الإنجليزي للصغار، بل القيام بما هو أهم وأفعَل وأجدَى وأقيَم!

٥

قدَّمتُ الرسالة في أبريل، بعد انتهاء موعد فصل الربيع، وحدَّدَت الجامعة لجنة المُمتحِنين، وكانت تضُم البروفسور روجر شاروك والبروفسور ماثيوز (صديقي المتخِّصص في شلي) ولم يعد أمامي سوى انتظارِ تحديدِ موعد المناقشة، وسمعتُ في أواخر مارس أن السادات سوف يُعيد فتح قناة السويس يوم ٥ يونيو، وأن مكتب الأخبار يتوقَّع أن يلقي خطابًا في هذه المناسبة، وأرسل يسألُني هل ستكون معنا هنا؟ ولم أتردَّد. نعم؛ فلا بد من دخلٍ إضافي يساعدُني على تحمُّل نفقات السفر وشحن الأثاث والكتب وما إلى ذلك.

كنتُ أعمل جاهدًا على استكمال مكتبتي حين ساقَتْني خُطاي إلى مكتبةٍ كبرى في لندن، وجعلتُ أتطلَّع إلى دواوين الشعراء، وإذا ببعض الكتب المعروضة تُباع بتخفيضاتٍ تصل إلى ٥٠٪، فتأمَّلتُ بعضَها فإذا بها — كما يقول الغِلاف — ترجماتٌ عن العبرية الحديثة؛ أي عن اللغة المستخدمة في إسرائيل، وإذا بكُتَّابها مجهولون تدور أعمالهم عن «مثالية» الحياة في إسرائيل، و«الدرس» الذي يتعلَّمه الإنسان، أو ينبغي على كل إنسانٍ أن يتعلَّمه من الحياة «محاصَرًا» بالأعداء، وكان وصفُ العرب بأنهم الأعداء مألوفًا، لكن وصف إسرائيل بأنها «جزيرة السلم والأمان» في بحرٍ هائجٍ متلاطم الموج يهدِّد باكتساح أهلها كان سخيفًا وغير شاعري بالمرة! وتساءلتُ في نفسي: هل يريد اليهود للعالم أن يصدِّق أن العرب وحوش يريدون ابتلاعهم؟ وكان السؤال الأهم: هل ردَّ العرب على ذلك شعرًا أو نثرًا؟ وإذا كانت تلك الدواوين مترجمةً حقًّا عن العبرية — وهو ما كنتُ أشُك فيه بل وأستبعدُه — فهل ترجمنا نحن أدبنا حتى يرى العالم صورتَنا الصادقة؟ وزاد ذلك من إيماني بأهمية الرسالة التي أصبحتُ أومن بضرورة النهوض بها عند عودتي إلى مصر.

وعندما خرجتُ من المكتبة وجدتُ في الشارع نفسه Shaftsbury Avenue المسرح الذي يحمل اسم الشارع ويعرض آخرَ ما كتَبه آرثر ميلر، وهي مسرحية «حادثة في فيشي» وهي تحكي بصراحةٍ قصةَ اضطهاد اليهود إبَّان الحرب العالمية الثانية، وتُثير الشفقة عليهم، وتستعطفُ العالم وترجوه أن يمُد يد المساعدة إليهم! هل هذا هو الأدب الهادف؟ هل كُتب علينا إذن أن نقتصر في تناولنا للأدب على مواطن الجمال وبراعة الفن المسرحي (أو الشعري في الدواوين التي ذكرتُها) بغض النظر عن الدلالة؟ هل كُتِب علينا أن نتجاهل تساؤل شكري عياد «وبعدين؟».

وعندما عُدتُ إلى ردنج طالعَتْني أنباء الصراع في لبنان بين الفلسطينيين والميليشيات المسيحية (اليمينية) ولم أكن أعرف حقيقةَ ما يجري، ولم أتمكَّن من معرفته حتى الآن، وكنتُ أحيانًا أعجَب لما يَجري وأُشفِق على المؤرخين الذين يقولون إنهم موضوعيون لا يبتغون إلا الحقيقة وحدها! فهل الحقيقةُ تقتصر على أن قتالًا ما يدورُ في بيروت، أم تتعدَّى ذلك إلى الذين يتقاتلون وما هي دوافعُهم والقوى التي تُسانِدهم؟ وفي بدايات مايو كنتُ أُدرِك أن سنواتٍ عشرًا حافلة قد انقضَت، وأن الطالب المصري الذي كان يتعمَّد عزل نفسه عن السياسة قد أصبح رغم أنفه مشغولًا بها، وأن انشغاله باللغة والأدب قد دفَعه دفعًا إلى الانشغال بالحياة العامة، ولم أعُد أقاوم رغبتي في متابعة أنباء سقوط سايجون في أيدي الشيوعيين وهزيمة الأمريكيين في حربٍ كلَّفَتهم ١٢٥ ألف قتيل، ومئات الآلاف من الجرحى، وآلاف الملايين من الدولارات (٣٠ أبريل) بعد سقوط كمبوديا (١٧ أبريل) وذكَرتُ عندها تلك الأمريكية الحسناء التي قابلتُها في بوفيه محطة القطار وكانت كأنما تريد من يَسمَع قصتَها، وكيف فقدَت زوجها وأخاها في فيتنام فضاقت الدنيا في عينَيها، ورحلَت إلى أوروبا كأنما لتبدأ حياتها من جديد، ولكن أشباح من فُقدوا كانت تُطارِدها، وانتهى بها الأمرُ إلى العمل في البوفيه. وقد تَخَلَّفْتُ عامدًا يومها عن اللحاق بالقطار حتى أسمع قصتَها، وأتأمل فلسفة «الرحيل» التي كانت عزاءها الأوحد؛ فهي ترى الناس دائمًا وهم يرحلون، وتنظُر في وجه كلٍّ منهم وهي تتساءل في أعماقها: هل يعود يومًا ما؟ وقلتُ في نفسي إنها تصلح شخصيةً في قصة أو مسرحية.

ولم أكن نسيتُ حبي للكتابة المسرحية ولكنني كنتُ أتساءل الآن عن قضايا تتخطى فنون الكتابة وتتعلَّق بالدلالة؛ فالأمريكيون الذين سيقوا دون إرادة إلى الحرب في فيتنام كانوا يتصوَّرون أنهم يدافعون عن الحرية، فما الحرية؟ هل من الحرية إرغام أو محاولة إرغامِ شعبٍ ما على تغيير نظامه الاجتماعي؟ وقرأتُ مقالًا في صحيفة الجارديان يقول فيه كاتبه إن قول الأمريكيين بأن قوات الفيتكونج اليسارية التي تقاتلهم لا تزيد نسبتها عن ١٠٪ من تعداد السكان يُغفِل أن القوات الأمريكية لا تمثِّل إلا نسبة لا تكاد تُذكَر من الشعب الأمريكي، وأن العشرة في المائة لم تكن لتستطيع النجاح لولا مساندة ٤٠ أو ٥٠ في المائة من السكان، مما يعني أن الغالبية هي التي تُحارِب، لا العشرة في المائة فقط، بخلاف الحال في أمريكا حيث لا يساند المقاتلين إلا أقلُّ القليل، وكلُّهم من أصحاب المصالح الحاكمة!

وفي مايو أعلن الرئيس الأمريكي جيرالد فورد انتهاء حرب فيتنام رسميًّا، ولم يهتم الكثيرون بذلك الإعلان إذ كانت الصحفُ البريطانية مهمومةً بالتضخُّم الذي وصل إلى ذروته في أواخر الشهر، وكانت النسبة مذهلةً وهي ٢٥٪، وكان ذلك بطبيعة الحال نتيجةَ استجابة الحكومة العمالية لمطالب نقابات العمال برفع الأجور، بغَض النظر عن زيادة الإنتاجية، مما أدَّى إلى «طبع» المزيد من النقود، فانخفض سعر صرف الجنيه الاسترليني من جديد، وارتفعَت الأسعار في الأسواق، وبدأَت الحملة التي أعادت — فيما بعدُ — حزبَ المحافظين إلى الحكم.

وفي يوم ٥ يونيو ذهبتُ في الصباح الباكر إلى العمل — وكان يوم خميس — حيث ترجمتُ خطاب السادات في إعادة فتح القناة أمام الملاحة العالمية، ومكثتُ في مكتب الأخبار حتى انتهت وقائعُ الاحتفال، وأرسلتُ الأنباء المفصَّلة إلى الصحف والإذاعات، وعدتُ إلى المنزل لأجد خطابًا يحدِّد لي موعد مناقشة الدكتوراه في ٨ يوليو (يوم ثلاثاء) فأخبرتُ نهاد فقالت آن الأوان للرحيل، وذهبنا في اليوم التالي إلى لندن مع سارة حيث حجزنا تذكرتَين لهما يوم ١٩ يوليو (يوم السبت)، وأرسلنا الخطابات إلى مصر بموعد عودتهما. وقضَينا بقية اليوم في لندن حتى المساء، وكان الجو صحوًا وفضَّلنا تناول الغداء في إحدى الحدائق.

وانهمكتُ في العمل على امتداد الشهر الباقي على مناقشة الدكتوراه، حتى يتوافَر لي أكبر قدْرٍ ممكنٍ من النقود، وتخلَّصَت نهاد من بعض الأشياء التي لم تكُن تريدها؛ إما بإهدائها إلى الأصدقاء، أو بتركها في المخزن الخاص بالمنزل، وسرعان ما انقضَت الأيام، وناقشتُ الرسالة، وبدأنا في تدبيرِ ما سنفعله.

كانت سارة في تلك الأيام سعيدةً بالحضانة، وكانت تُحب المشرفة مرجريت (nurse Margaret) حبًّا شديدًا وتصدِّق كل ما تقوله، وذكرَت مرجريت لنهاد ذات يومٍ أنها طلبَت من الأطفال أن يلعبوا في كثيبٍ رملي صغير، وأخذَت مرجريت تَحفِر فسألَتْها سارة عما تبحث عنه فقالت لها مرجريت أبحث عن الذهب! فإذا بسارة تتحمَّس وتُشمِّر عن ساعد الجد بحثًا عن الذهب! وكانت مرجريت تحكي لنا عن ميل سارة إلى النظام والتنظيم وعلاقتها مع الأطفال الآخرين، والصداقات التي عقدَتْها مع بعضهم (واستمرَّت حتى بعد عودتها إلى مصر) وطبعًا عن لغتها «المثقَّفة»!

وفي نحو منتصف يوليو كنتُ أقف في المطبخ وأُحاول إعداد طعامٍ للغداء حين وجدتُ شخصًا يدخل من الباب المفتوح — كان للمطبخ بابٌ يؤدي إلى الشارع أو إلى

الممرات الداخلية في المنطقة السكنية — ويُلقي عليَّ السلام بالعربية. كان سمير سرحان، وكان قد وصل من مصر لتوِّه، ولم يكَد يحُط الرحال في فندق كوبيرج بشارع بيز ووتر حتى استقل القطار وجاء إلى المكان الذي سبقَت له زيارته! وقال بلهجةٍ يتنازع فيها الجِد والهزْل: لقد جئتُ حتى أعود بك إلى مصر! وعندما عادت نهاد بدأَت مناقشاتُنا ومسامراتُنا التي لم تتوقَّف حتى ذهبتُ لتوديع نهاد وسارة في المطار!

وشُغلتُ بوجود سمير سرحان في لندن فكنتُ أذهب إليه ونقضي اليوم معًا وأحيانًا كنا نعود معًا إلى ردنج للمبيت، وفي الصباح نذهَب إلى أوكسفورد، وكان يُلحُّ عليَّ في كل يومٍ أن أتصل بشركات الشحن حتى تتولَّى إرسال الأثاث إلى مصر، ففعلتُ ذلك، ودفعتُ للشركة خمسمائة جنيه مقابل الإعداد والشحن وما إلى ذلك، وتحدَّد موعدُ الشحن في أواخر أغسطس، ثم رحل سمير في أوائل أغسطس، ولم يقُل لي إلا وأنا أودِّعه في المطار إن نهاد جاد — زوجته — حامل وإن موعد الولادة في سبتمبر!

وذهبتُ إلى لندن لحجزِ مكانٍ لي في إحدى رحلات مصر للطيران فوجدتُها كاملة العدد حتى منتصف سبتمبر! وكنتُ قلقًا؛ لأن الشركة لم تُرسِل بعدُ من يأخذ أثاث الشقة، فقلتُ أنتظر حتى يأتوا، وما إن وصلَت السيارة الضخمة في الموعد المحدَّد وحمَل الرجال كل شيء (باستثناء أقل القليل) واطمأنَّ قلبي، حتى ذهبتُ فأكَّدْتُ الحجز للسفر يوم الأربعاء ١٧ سبتمبر — وكان ذلك في رمضان! وقال لي المشرف على المساكن إنني أستطيعُ إخلاء البيت في أي وقت أريد اعتبارًا من أول سبتمبر دون أن يُطالِبني بدفع الإيجار؛ لأنه سوف يكلِّف أحد المقاولين بإعداده للمستأجر الجديد في أول أكتوبر، وعَرضَ عليَّ دهَّام العطاونة زميلي الفلسطيني أن أقيم عنده ابتداءً من يوم ٨ أو ٩ سبتمبر فقَبِلْت، وكان اشترى منزلًا في قرية كافرشام، وسيارة «ميني» (أوستن)، فأعددتُ ثلاثَ حقائبَ وذهبتُ بها إلى المطار في صحبة توم هيتون الذي كان قد عاد من بلانتاير، وشحنْتُها جوًّا إلى مصر، ثم أخذتُ ما بقي من حقائب وأشياء إلى منزل دهَّام يوم ٨ سبتمبر، وقضيتُ في صحبته أيامًا جميلة حتى حان موعد السفر.

كانت تلك الأيام وما تزال تبدو لي غائمةً كأنما تطفو بها سحابةٌ على وجه السماء؛ إذ أحيانًا ما كنتُ أسير ساعةً أو ساعتَين في الحقول وفي المروج، أنهَل من الخضرة وصفاء الجو ما لا تشبع عيناي منه أبدًا، ولا يشغل فكري شيء؛ فلقد انقضَت السنوات العشر وكانت حافلةً بما لم أحسب له حسابًا يومًا ما، وكنتُ قد تجاهلتُ مفكِّرتي ولم أعُد أسجِّل فيها شيئًا، بل وتجاهلتُ الكتابةَ للأصدقاء والاختلاطَ بالناس؛ فأنا عائدٌ إلى

مصر وإلى اللغة العربية، وإلى مراتع الطفولة واليفوعة والسماء الزرقاء، وكان ذهني غير قادرٍ على استيعاب معنى الرحيل؛ فهو معنًى عسير لا يقل عُسرًا عن معنى الزمن، بل كان يبدو في طابعه القاطع مُحالًا بعد أن اعتدتُ تحوُّل الفصول ومعنى العودة ودورة الأيام. وأعتقد أن غرامي بتعبير دورة الزمن يرجع إلى ذلك الوعي العميق الذي اكتسبتُه من الحياة في الطبيعة ومعها.

قد يتوقَّف القارئ عند تعبير «طابعه القاطع» — وقد يكون محقًّا في توقُّفه؛ لأن الرحيل يعني الغياب، والغياب يعني الفِراق الذي هو صِنو الفَناء، بل إن بعضنا يستخدم التعبير كنايةً عن الموت، ولكن الرحيل الذي كنتُ بصدده كان لا يزيد في معناه عن الانتقال من مكانٍ إلى مكان مع عدم نفي إمكان العودة، بل كان الانتقال نفسُه يعني العودة إلى مكانٍ قديم وزمانٍ قديم، ولَمَّا كانت العودة إلى الزمن القديم مُحالة، فقد خُيِّل لي أننا نُلقي بمعنى الزمن القديم على المستقبل حتى نُكسِبه معنًى، أو نُزيل بعضَ ما يكتنفُه من ظلال العَماء، بحيث نشعُر بدورة الزمن؛ فدورة الحياة من حولي تؤكِّد ذلك في الطبيعة التي يتجسَّد فيها إبداع الخالق المتجدد أبدًا، والذي ما انفَكَّ يتجلَّى في دوراتٍ متعاقبة يأخُذ بعضها برقاب بعض، ودَورة الروح في أعماقي ما فتئَت تدفع بالصور في دوائر، وما برحَت تؤكِّد التقاء المنبَع والمصَب؛ فمن حيث جئنا لا بد أن نعود، وما الرحيل إلا خطوةٌ واحدة من خطوات رحلتنا إلى الوجود المادي، ومن الوجود المادي إلى غيره من صور الوجود!

لم أكُن أتصوَّر أبدًا أنني لن أرجع إلى ذلك المكان مطلقًا بعد ذلك، وما أكثَر ما رأيتُني في الأحلام أزورُه وأتحدَّث مع مَن فيه! فلقد تحوَّل المكان في نفسي إلى واحةٍ دائمة الخضرة، أعتادُها في خيالي لأَبترِد من هجير حياتنا اللاهثة اللافحة، وتحوَّلَت بقعة المكان إلى بقعةٍ زمنية — كما يقول الشاعر — وتحوَّل كلُّ ما فيها إلى إحساسٍ صافٍ قد يخلو من الخطوط ومن الألوان، وقد يرقُّ فيصبح لطيفًا كالنسيم، لا يحمل أريجًا ولا يرنُّ بأي لحن، بل يصعَد مثل الطاقة المجرَّدة التي نعرف منها معنى الروح.

كنت في كل عام أسمع في شهر أبريل موسيقى باخ — وقِطعتُه الشهيرة عذابات السيد المسيح كما رواها القديس متَّى، التي أخذ منها عبد الوهاب موسيقى «إليها» — وكنتُ في كل عامٍ أهتَزُّ لسماعها وأَعِد نفسي بأن أحصُل على الأسطوانة، وها أنا ذا أرحل دون ما أردتُ، وكم كنتُ أنتظر سماع ألحان باخ الشجية، وخاصةً أنغام الأرغن التي تشبه ألحان الطبيعة التي تسبِّح للخالق جل وعلا، وكم دارت الأعوام وأنا أرسمُ لنفسي

حياةً مع الموسيقى والشعر! وها أنا ذا أرحل دون شيء، في جيبي جنيهاتٌ معدودة، ونهاد تقول لي إنها سافَرَت في سبتمبر إلى السعودية للعمل في جامعة الملك عبد العزيز في جدة، فأنا أعود إلى مصر وحدي، وبلا شيءٍ سوى الأحلام، وما أظُن أنني قد تعلمتُه، وأظُن أنه يكفي لبدايةٍ جديدة!

وفي يوم ١٧ سبتمبر صحِبَني توم هيتون إلى المطار حيث وزنتُ الحقيبة فأصَر موظَّف شركة مصر للطيران على أن أضع حقيبة يدي أيضًا، وكان فيها عددٌ من كتبي المفضَّلة، فاتضح أن الوزن أكثر من المسموح به، فقال لي لا بد أن تدفع ثمانين جنيهًا استرلينيًّا، وفي استسلام تامٍّ أخرجتُ النقود، وأنا أقول «فليكن»، ودفعتُ في صمت، ويبدو أنه دُهِش فلم يتكلم ووضع النقود في الدرج وأعطاني بطاقة الصعود إلى الطائرة.

جلستُ في الطائرة إلى جوار إبراهيم الشربيني — أمين عام مجلس الشعب — وزوجته، وعندما قلت لهما إنني دفعتُ ثمانين جنيهًا انزعجا وسألاني عدة أسئلة، وقطَعنا الوقت في الحديث، وعندما وصلَت الطائرة في نحو منتصف الليل، أمر المُضيف ركَّاب الدرجة السياحية أن يلزموا أماكنهم ريثما يهبط كبار المسافرين، ولمحتُ بينهم الدكتور عبد القادر حاتم، وصاح البعض: «كوسة! كوسة!» ولم أفهم، فسألتُ الأستاذ إبراهيم فقال لي إنها تعني «المحاباة»! ولم أعلِّق. لقد تغيَّرَت اللغة، ولا بد من بذل جهدٍ جديد لفهمها!

وفي المطار وجدتُ من يستقبلني عند باب الدخول من الطائرة، وكان أحد العسكريين الذي أرسلَه أحد أقاربي لمساعدتي في الخروج، وبذَل الشاب جهدًا حتى انتهى من ختم جواز السفر، وتفتيش الحقيبة بدقة، ثم الخروج حيث وجدتُ أخي مصطفى وصديق عمري أحمد السودة. لقد عُدتُ إلى مصر!

ملحق صور

أمام المنزل رقم ٢١ شارع داربي عام ١٩٧٣.

في الحديقة الخلفية للمنزل ٢١ شارع داربي شتاء عام ١٩٧٣م.

عبد اللطيف الجمَّال في شقتنا رقم ٥١ شارع داربي.

أمام بُحيرة وندرمير في حي البُحيرات شمال إنجلترا.

أمام أحواض زهور الزنابق والأقاحي عام ١٩٦٦م.

في غابات اسكتلنده.

أمام بُحيرة وندرمير في حي البُحيرات في شمال إنجلترا.

محمد عناني/نهاد صليحة في حديقة هايد بارك (صورة الزفاف).

في منزل شيكسبير.

سمير سرحان في الشقة رقم ٥١ شارع داربي.

أول صورة بعد وصول نهاد صليحة من مصر سبتمبر ١٩٦٦م.

معرض الفنان أحمد سليم في لندن.

سمير سرحان ونهاد جاد في محطة القطار بعد العثور على المعطف المفقود (أغسطس ١٩٦٨م).

نهاد في سوق السبت (لندن — سبتمبر ١٩٦٦م).

أمام ساعة بيج بن.

هيلاري وايز صديقتنا في لندن.

سمير سرحان في لبليان بنسون هول (لندن).

سمير ونهاد صليحة ونهاد جاد في المنزل شارع بوثويل عام ١٩٦٨م.

سمير سرحان ونهاد صليحة في حديقة هايد بارك.

نهاد صليحة في لندن.

سمير سرحان ونهاد جاد في مدينة برايتون ١٩٧١م.

عناني ونهاد (الحامل في سارة) وسمير في مدينة برايتون الساحلية.

نهاد والدكتور بشير إبراهيم بشير.

سمير ونهاد جاد يقرآن الصحف مع بائع الصحف.

أمام منزل الدكتور/صمويل جونسون في لندن.

على جسر ووترلو، ويبدو المسرح القومي البريطاني في أقصى الخلف، وبجانبه قاعة احتفالات الملكة إليزابيث.

على التل المُطِل على بحر الشمال في اسكتلنده.

محمد عناني ميدان الملكة في إدنبرة.

نهاد في رحلة إلى الجنوب.

هنداوي